# الحروب الصليبية

## مواقف وتحديات

سهيلة الحسيني

تقديم أ.د. محمد عمارة

إهـــــــداء 2005

SIDA

الســـويــد

# الحروب الصليبية

## مواقف وتحديات

تقديم الأستاذ الدكتور

**محمد عمارة**



إعداد

**سهيلة الحسيني**

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع: ٣٦٨٠ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي: I.S.B.N.
977 - 265 - 426 - 1



دار التوزيع والنشر الإسلامية

مصر - القاهرة - السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٣٩٣١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١

www.eldaawa.com

email:info@eldaawa.com

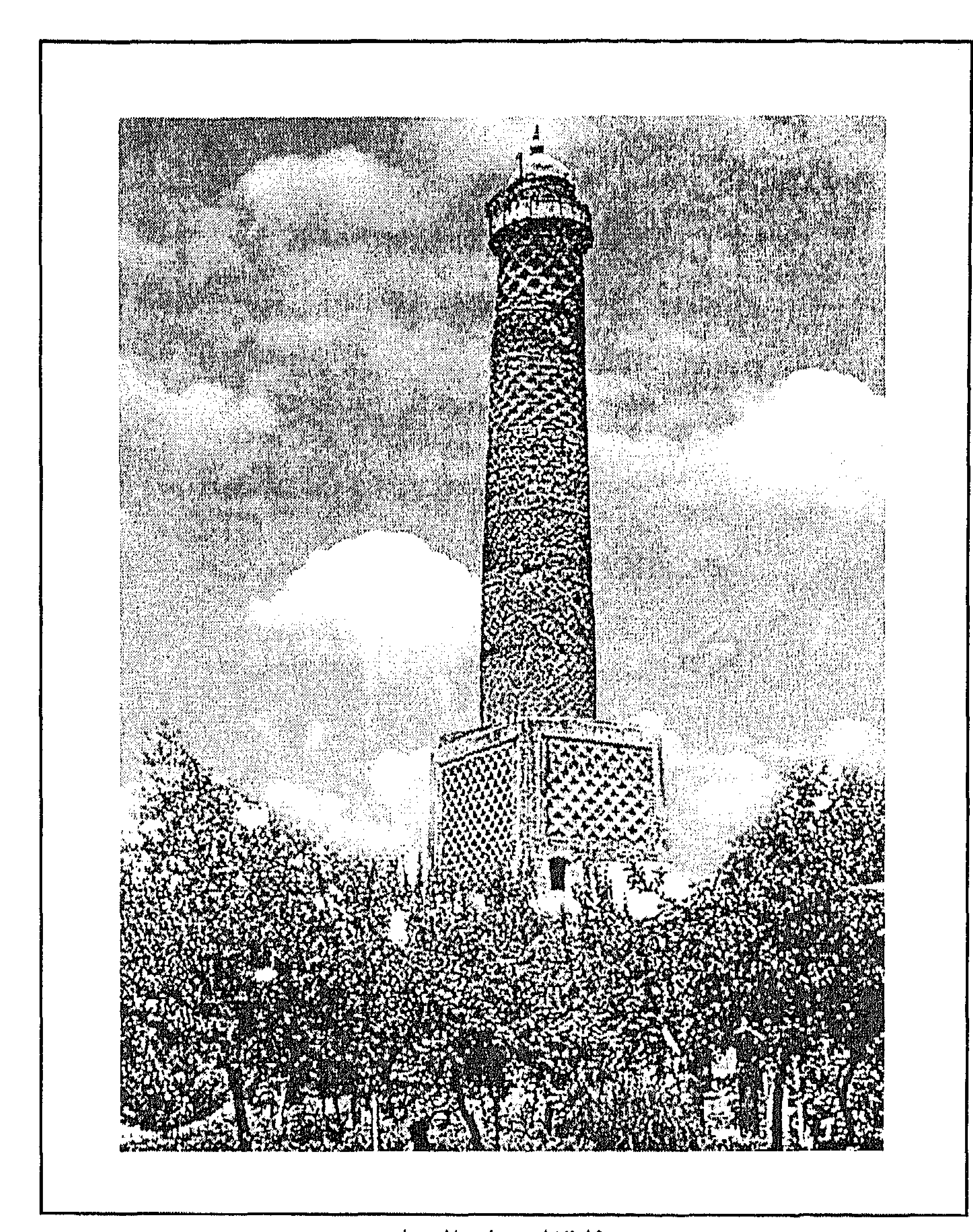
# الإهداء..

إلى أول من تنبه إلى خطر الزحف الصليبي على أمتنا .. وأول من قاد حركة الجهاد لصدهم ..

«الموصل» .. المدينة التي أحب وأفخر ..

وإلى روح الشهيد «نور الدين زنكي» بطل الجهاد في الحروب الصليبية .

المؤلفة



منارة الحدباء بالموصل

بسم الله الرحمن الرحيم

# تقديم

**بقلم الدكتور: محمد عمارة**

التاريخ – مع العقيدة الدينية.. واللغة – لغة القرآن الكريم – هى منظومة الهُوِيَّة، المعبرة عن جوهر الثوابت العامة والشاملة والخالدة لأمة الإسلام.

تطرأ مستجدات.. وتتبدل متغيرات.. وتتطور عادات وتقاليد وأعراف وثقافات فرعية، وتظل ثوابت الهُوِيَّة هذه بمثابة «البصمة» المعبرة عن تميز الأمة الإسلامية عبر الزمان والمكان..

لذلك، كانت مكونات الهوية هذه – العقيدة.. واللغة.. والتاريخ – هى الأهداف الرئيسة التى توجهت نحوها سهام الأعداء والغزاة لديار الإسلام على مر التاريخ، وذلك لإذابة الخصوصية الإسلامية، وتحقيق التبعية والذوبان والاحتواء لأمة الإسلام، تأييداً وتأبيدا لاحتلال الأرض ونهب الثروات واستغلال الإنسان..

كما كانت مقومات هذه الهوية هى الحصون التى احتمت بها الأمة، والأسلحة التى دافعت بطاقاتها عن الأرض والعِرض والحضارة عبر تاريخ الأمة مع موجات الغزو والاستعمار..

ولقد زاد من قيمة ومكانة «التاريخ» فى منظومة الهوية هذه، أنه – فى الحالة

الإسلامية – لم يكن مجرد تاريخ للأرض. ولا للسكان.. وإنما كان – أيضا – تاريخا للإسلام، الذى حرر الأرض، وجعلها دار للإسلام.. وللحضارة التى صبغها الإسلام.. وللإنسان الذى صاغه الإسلام.. فكان هذا التاريخ – فى الحالة الإسلامية – هو تاريخ الإسلام، والثمرات التى أثمرها الإسلام!

وحتى تكون هذه الأسلحة – أسلحة الهُوِيَّة – ماضية وفاعلة، وخاصة إبان المآزق التى تلم بالمسيرة الحضارية لأمتنا، والفترات التى تتداعى فيها الأكلة على مائدة الإسلام وأمته وحضارته ودياره – كما هو الحال الآن – لابد من الفقه والفهم والوعى الذى يُفَعِّل عمل هذه الأسلحة فى التدافع، وفى الصراعات التى يفرضها علينا الأعداء..

وفيما يتعلق بالتاريخ، فإن الفقه لوقائعه وأحداثه، والفهم لمعالمه وتقلباته، والوعى بالسنن التى حكمت صراعاته، وبالقوانين التى وجهت مراحل التقدم والتراجع فى دوراته.. إن الوعى بهذا التاريخ هو مرتبة أعلى وأهم وأجدى وأفعل من مجرد قراءة التاريخ!..

***

وإذا كانت أمتنا قد صنعت تاريخها كله فى مواجهة أشرس التحديات.. فكانت دولتها الإسلامية الأولى هى الفتح التحريرى الذى أزال سيطرة وهيمنة قوى البغى والجور – الروم والفرس – عن الشرق، بعد عشرة قرون من القهر الدينى والسياسى والاجتماعى والحضارى..

وإذا كانت فروسية هذه الأمة الإسلامية – الأيوبية والمملوكية – هى التى قهرت التحالف «الصليبى – التترى»، عندما حاول الغرب «الكنسى –

الاستعمارى » إعادة اختطاف الشرق من جديد، وذلك بعد قرنين من الاستعمار الاستيطانى اللاتينى، وموجات الإبادة والتدمير التترية..

وإذا كانت حركات التحرر الوطنى، التى فجرتها عقيدة الجهاد الإسلامية، قد تصدت ومازالت تتصدى لموجات وحملات الاستعمار الغربى، منذ إسقاط «غرناطة» والأندلس [ ٨٩٧ هـ - ١٤٩٢ م] حتى هذه اللحظات..

إذا كانت هذه هى حقائق التحديات التاريخية والحديثة والمعاصرة، التى مثلت «الأتون» الذى تطهّر فيه المعدن النفيس لهذه الأمة، وانصهرت فيه عزيمتها.. فإن الوعى بدورات هذا الصراع، وفقه قوانين هذا التدافع بين الحق الإسلامى وباطل العدوان على ديار الإسلام وهوية الأمة الإسلامية، هو المقصد الأول والأعظم من وراء أية كتابة للتاريخ، وأية قراءة لهذا التاريخ.. لأن هذا هو السبيل لتحويل الوعى بالتاريخ إلى طاقة خلاقة فى المواجهة بين الأمة وبين الأعداء.. ومن ثم تحويل هذا الوعى إلى أداة من أدوات صنع الأمة لهذا التاريخ!..

***

فى ضوء هذه الحقائق عن فقه التاريخ، والوعى بالقوانين الحاكمة لصراعاته، والسنن العاملة فى دورات التدافع بين الأمم والشعوب والحضارات، أتمنى أن يعى القارئ الوقائع التى تحملها صفحات هذا الكتاب، لا لمجرد تنمية الوعى - كقيمة فكرية - وهذا فى حد ذاته مقصد شريف وعظيم لابد وأن يسعى إليه العقل المسلم - وإنما أيضا - ليقرأ وقائع الصراع الراهن بين الصليبية الغربية والصهيونية التلمودية وبين الإسلام وأمته وحضارته وعالمه، وهو الصراع الذى تتولى كِبْرَهُ

اليوم الفرعونية والقارونية الأمريكية، بقيادة رعاة البقر، الذين تجردوا من الحضارة ومن التاريخ.. اللهم إلا تاريخ إبادتهم للهنود الحمر، والذى يحلمون بتكراره على أرض فلسطين.. وبعولمة فلسفته، بادئين هذا المسعى المشين بعالم الإسلام.. وغافلين عن الوعى بأن هذا الشرق الإسلامى قد كان، دائما وأبدا، مقبرة كل امبراطوريات الغزاة!..

إننى أتمنى أن يقرأ القارئ هذا الكتاب – عن الحروب الصليبية – فى تاريخنا الوسيط – بالوعى الذى يكشف له مقاصد هذه الحملة «الصليبية – الصهيونية» التى تواجهها أمتنا فى هذه الأيام، وذلك حتى يكون الوعى بسنن تاريخنا القديم والوسيط عونًا لأمتنا على النصر فى جهادها الحالى ضد الغزاة المحدثين!..

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب.. وأن يبارك فى جهود كاتبته – السيدة الفاضلة سهيلة الحسينى – تلميذة شيخنا العظيم، المرحوم الشيخ محمد الغزالى [ ١٣٣٥ – ١٤١٦هـ – ١٩١٧ – ١٩٩٦م] الذى أوصانى بإنتاجها الفكرى، قبل انتقاله إلى رحاب مولاه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.. وأزكى الصلوات والتسليمات على خاتم الأنبياء والمرسلين.

**أ.د. محمد عمارة**

## ما قبل البداية..

توحى استقراءات تاريخنا السياسى عبر العقود التى تعرضت فيها مصالح الولايات المتحدة لبعض الأخطار.. وإرجاع مصدرها لأحد متهمين: شبكة القاعدة التى يمثلها ابن لادن، أو المسلمين حيثما كانوا بتعجيل مبادراتها وتحقيق محاولانها لإيجاد موضع لقدمها فى العالم العربى والإسلامى، خاصة فى غياب الاتحاد السوفيتى القطب الذى كان يمثل مركز توازن وردع عسكرى أمامها، لتصبح وحدها ممثلة النظام العالمى الأحادى القطبية حتى وقعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م لتكون فرصتها الذهبية التى استغلتها بذكاء لتجسيد أحلامها وفرض هيمنتها على العالم الغربى بشكل عام والعربى والإسلامى بشكل خاص متخذة من ذريعة حماية أمنها القومى غطاء لاتخاذ كل تهم الإرهاب جوازاً لتمرير سياستها بشكل مباشر ومريراسقطت معه كل بنود الشرعية الدولية وقوانينها، واستهانت بكل مؤسساتها بدءاً من محكمة العدل الدولية وانتهاءاً بمجلس الأمن.

وتلاحقت تصريحاتها وقراراتها تشير بغطرستها الساخرة وامتهانها لسائر الدول العربية والإسلامية، ولم تعد مفردات الديمقراطية والحرية شعاراً تتغنى به وترفعه منذ الحرب العالمية الثانية، ثم ليبرز عنفها خلال أحداث ١١سبتمبر ضمان آلية ضخمة فى تزييف الحقائق تخصصت بها الإدارة الأمريكية عبر إعلامها الذى أضافت إليه إسرائيل إعلامًا أكثر زيفًا. هذا بجانب استنفارها العالم لمساعدتها فى شن هجمات إرهابية ضحيتها المسلمون وحدهم، من أجل إماتتهم وهم أحياء إن لم تقو على استئصالهم!.. وأسرعت ذيولها من الدول الأوربية

وكندا تبارك هذه الرسالة فى خطوة محمومة للقبض على كل مسلم تشتبه به حتى شملت من كان يتمتع فى دولها بحق اللجوء السياسى؛ بل كان من فرص إفرازات سبتمبر أن ألقت « الصين » بثقلها وراء واشنطن فى مزاعم حربها للإرهاب الدولى كى تضفى الشرعية على حملتها بشن « اعتقالات موسعة فى صفوف الأقلية المسلحة (الإيجور) التى تعيش بإقليم سينكيانج غربى البلاد والتى تتمتع بالحكم الذاتى »[١] وهؤلاء كانوا يشكلون جمهورية خاصة بهم قبل طيهم من قبل السلطة الشيوعية فى بكين عام ١٩٤٩م، رغم أن ذات السلطة استخدمتهم لمآربها حيث « كانت الصين وإيران قد دربتهم ليحاربوا روسيا، ربما منذ ١٩٧٨ كما تشير بعض التقارير »[٢].

وإذا كان الحلم الأصغر للنظام الأمريكى الذى تحكمه الثقافة الصهيونية منذ نشوئه، هو إيجاده مواقع استراتيجية واقتصادية فى العالم العربى والإسلامى، فإن حلمه الأكبر طمسه الهوية الإسلامية واجتثاثها من جذورها. هذه الروح العدائية سبقت انفجار سبتمبر بكثير يؤكدها الأحداث التى يموج بها العالم الأمريكى، فعلى سبيل المثال عندما فجر مبنى فيدرالى فى ولاية « أوكلاهوما » كان أول ردود فعلها هو التفكير فى شن هجمات سريعة على الشرق الأوسط لإمطاره بالصواريخ والقنابل، ولكن عندما ظهر أن الجانى ( محلى المصدر ) أمريكى، اكتفت بتقديمه إلى المحكمة ولم تناد بتدمير الولايات التى دفعت إلى هذا التفجير « والتى كانت تدعو إلى الإنشقاق عن الحكومة المستبدة فى واشنطن »[٣]. وإن سبقها حادث على عهد الرئيس ( ريجان ) عام ١٩٨٥م عمدت إدارته « إلى

---

(١) جريدة آفاق عربية العدد ٥٧٥.

(٢) نعوم تشومسكى: ١١سبتمبر: ص٤٥: ميريت للنشر: (القاهرة ٢٠٠٢م).

(٣) نعوم تشومسكى: ١١ سبتمبر: ص١٧، ص٦٨.

تفجير أشبه بتفجير أوكلاهوما «فقد فجرت شاحنة أمام مسجد في توقيت محدد لتقتل أكبر عدد ممكن»[1] من المصلين كان ضحيته أكثر من ٨٠ مصليًا وجرح ٣٥٠ منهم، معظمهم من الأطفال والنساء، هذا التفجير استهدف أحد علماء الدين الذى لم يرق لواشنطن ونجا منه. والحادث «ورد فى تقرير للواشنطن بوست بعد ذلك بثلاث سنوات»[2].

بعد أحداث سبتمبر وقف الرئيس ( بوش ) ليؤكد هذه النظرة فى العشرين من سبتمبر ٢٠٠١م، وما « صرح به هو عمليًا بمثابة إعلان حرب ضد كل من لا ينضم إلى واشنطن في عدوانها أو أى شيء تختاره.. شعوب العالم تواجه الآن (الاختيار الكامل)، إما أن ينضموا إلى حملاتنا الصليبية أو ( واجهوا الموت الأكيد والدمار»[3] ترى هل هناك ما هو أخطر من هذا المنطق الذى يدلى به علنا رئيس أقوى دولة مسيحية -رغم غطائها العلماني- لقلب أى نظام دولى لا يروق له؟!

وكم هو معلوم أن أميركا فى أعقاب ١١ سبتمبر جندت حليفاتها وفى مقدمتهم إسرائيل وانجلترا لاستنفار طاقاتهما الفكرية والعسكرية والإعلامية ضد الدول المنكودة ( العالم الثالث )، رغم أن بعض هذه الأسلحة كانت تمارس قبل أحداث سبتمبر، كفرض واشنطن « سلاح المقاطعة » لأجل غير محدد من عقوبات اقتصادية أوقعتها على ليبيا والسودان والعراق والصومال وافغانستان وحزب الله فى لبنان.. إلخ، هذا السلاح الذى يمثل سيفًا مسلطًا على رقاب أى دولة تقول لا.. لأميركا؛ كذلك تلويحها بقطع مساعداتها المادية التى تمنحها

( ١، ٢ ) المصدر السابق: ص٤٨.

( ٣ ) نعوم تشومسكي: ١١ سبتمبر: ص١٧، ص٦٨.

لحليفاتها من الدول النامية! وفى تلاحق قراراتها التعسفية عمدت إلى تجميد أرصدة المنظمات الخيرية الإسلامية بحجة إمداد شبكة القاعدة، رغم كونها مساعدات لفقراء آسية وأفريقية وبعض دول وسط أوروبا، هذا إلى وقف أرصدة بعض دولنا لشل حركتها الاقتصادية التى تمثل عمودها الفقرى. كما فرضت إجراءات صارمة على سفر وإقامة المواطنين فى دولها.

وضمن سياسة تدخلها فى شئوننا أعلنت رغبتها فى تقييد مناهجنا الدينية، والتضييق على بناء المساجد ومطاردة الأئمة وتكميم أفواههم مع تهديدها المصلين بإطلاق الرصاص، إلى جانب وضع العراقيل أمام أى مشروع لبناء المدارس الإسلامية والعربية، عدا التحرش بالنساء المحجبات وفتحها المعتقلات بعد ١١ سبتمبر لزج الطلبة الدارسين لديها والشباب العامل أمام شبهة انتمائهم لمنظمات إرهابية دون تحقيق بذريعة الحرب الوقائية. ولم تكتف أميركا بهذه الممارسات الاستفزازية، إنما استغلت الحدث لحرب طاحنة ضحيتها.. المسلمون وحدهم.

لقد ترجمت أميركا هذه المشاعر حرباً سريعة كان أول ضحاياها دولة (أفغانستان) التى أخذتها بشبهة – حتى الآن لم ترق إلى حكم المؤكد – أن كارثة برجى نيويورك وواشنطن من تنظيم شبكة القاعدة التى تحتضنها. أجل لقد كانت أفغانستان أولى مآسى إفرازات سبتمبر، لكأن أميركا تناست وهى تطارد «ابن لادن» وشبكته أنها الطرف الفاعل والحقيقى فى ترسيخ أركانها بسبب صراعها ضد روسيا، كتناسيها دعم مخابراتها المركزية بمساعدة حكومة باكستان لحركة طالبان وتدريبهم وإمدادهم بالسلاح لمصالحها أيضاً فى المنطقة ضد القطب المضاد؛ والحقيقة وردت فى عدة اجتهادات فى هذا الصدد أحدها

قول «الجنرال حميد جول الرئيس الأسبق للاستخبارات الباكستانية، إن سياسة بلاده في أفغانستان تديرها المخابرات الأميركية»[1].

لكن ينبغي الاعتراف بأن أهم ما يميز الإنسان الأفغاني شجاعته وصبره وعناده في القتال، ولعلها سمة تشترك فيها معظم الشعوب التي تعيش ضمن طبيعة جيلية وعرة. إضافة إلى مقت الأفغاني الشديد لأي تدخل أجنبي في شئون بلاده. فحساسيته عالية في هذا الخصوص لتمكن الدين من نفسه، حتى بات لعلمائهم سطوة دينية ونفوذ واسع على الشعب، فبإمكانهم استنفاره لإسقاط أي حاكم أو ملك لم يجدوه كفؤًا لحكمهم، وهم يشكلون المرجع الأول لقادة شعوبهم واستنفارهم في إعلان الجهاد للإطاحة بحاكمهم المنحرف عن القيم الدينية أو الوقوف مع المستعمر غيرة على الدين تساعدهم تضاريس بلادهم التي استعصت على أي مستعمر أو دخيل[2].

والأستاذ «فهمي هويدي» يقدم لوحة رائعة من لوحات بطولة شعب مسلم يعد متفرداً في صلابته وشجاعته دفاعًا عن أرضه ومواريثه، يقول: «فأشهر الغزاة من التاريخ مروا بتلك البلاد، ولكن أحداً منهم لم.يهنأ على أرضها ولم يستقر، الإسكندر الأكبر وجنكيزخان وتيمورلنك، نابليون أرسل مبعوثًا إلى كابول ليمهد لفتح الهند، ولم ينجح مسعاه، وجيوش قياصرة الروس والإمبراطورية البريطانية، جميعهم مرت جحافلهم فوق صخور أفغانستان. بل إنها المرة الوحيدة التي أفنى فيها جيش لبريطانيا من جانب دولة صغرى والإمبراطورية في أوج جبروتها وهيلمانها»[3].

(١) فهمي هويدي: طالبان جند الله في المعركة الغلط: ص٩٩: ط أولى (دار الشروق ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م).

(٢) المصدر السابق: انظر ص١٥-١٩.

(٣) فهمي هويدي: طالبان جند الله في المعركة الغلط: ص١٢.

إن روسيا أيضًا منيت بشر هزيمة عند اجتياحها بلادهم عام ١٩٧٨ من منطلق العزف على لحنها المشروخ، بتحسين أوضاع العامل والفلاح. إن شعبًا كهذا جدير لأن نتأمله إعجابًا وإكبارًا وتقديرًا رغم اختلاف أعراقهم التى تتجاوز الواحد والعشرين. بل عندما أمطرته « أميركا » القطب الأوحد والدولة الأعظم فى العالم، بقنابلها التى تخترق كهوف المجاهدين، وطائراتها العملاقة وأقمارها الصناعية وحتى إنسانها الآلى الأشد تفوقًا فى مجال الذكاء، وسائر آليتها الحربية المتطورة لم تجن سوى الفشل، وطاشت كل سهامها وأهدافها فى إلقاء القبض على ( ابن لادن ) أو قهر جماعة حركة طالبان، أو إسكات صوت المقاومة المتواصلة فى طول « البلاد » وعرضها مسببة لأميركا حالة من الإرباك والقلق ولحاكمها الذى نصبته على أفغانستان!

لقد كان هذا أبسط ثمن تدفعه لاستغلالها هذا الشعب لمآربها ضد التدخل السوفيتى فى شئونه سنة ١٩٧٨م عندما نشطت فى تسليحه وتدريبه حتى خروج الروس من البلاد وأعوانهم من الفصائل الموالية لهم وغيرها ممن قاومت حركة طالبان. ونظير هذه المساعدة لم تقدم أميركا لهذا الشعب الفقير أيما دعم يسهم فى تعمير البلاد أو رفع مستواه الاقتصادى والاجتماعى، وليتها وقفت عند هذه الحدود، بل حينما انتهى الدور المرسوم لطالبان أخذت تطالب بتسليم ابن لادن وأعوانه متهمة قيامهم بأنشطة تخريبية وإرهابية تعرضت لها مصالحها للخطر. وتصاعدت حدة الصراع بينهما لتفرض عليها قرار الحصار فى كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠١م لعزلها عن العالم أكثر وإنهاك نظامها الإسلامى استعدادًا لإسقاطه، ولتبدأ مرحلة جديدة باتهام شبكة القاعدة بتفجير برجيها العملاقين

الحيويين لتعلن على أفغانستان حربًا مدمرة انعدمت فيها قواعد العدالة والتكافؤ . . « والإنسانية » .

وفي الظن أن أميركا خرجت مندحرة، إذ لم تظفر بهدفها وهو القبض على أسامة بن لادن ورؤوس أنصاره الذين ترى في بقائهم خطرًا على مصالحها، بالرغم من المطاردة الشرسة لوزير دفاعها ( رامسفيلد ) بأصوله وتوجهاته الصهيونية، لاستئصال توابع وعناصر تنظيم القاعدة . أما من أُسر منهم فقد سامتهم أشد أنواع العذاب ويكفي نقلهم في حاويات ماتوا فيها اختناقًا وطاردت كل من يتحدث عن هذه الجريمة، أما من وصل منهم قاعدة « جوانتمالا » فلم تعاملهم كأسرى حرب ولم تستجوبهم وقد يبقون سنين حتى يدركهم الموت .

لقد كان من مخلفات هذه الحرب أن « ٤ » ملايين لاجئ شردوا عن ديارهم ومات الكثير منهم بصمت خلال رحلة عذاب الجفاف أو البرد القارس، ويكفي أن ٤٠٠ طفل منهم كان يموت يوميًا على مشهد من والديه، أما عن الجوع فقد « قال مدير برنامج الغذاء العالمي إن تهديد نشوء كارثة إنسانية بعد الهجوم والضرب بالقنابل قد تزايد إلى درجة لا أريد أن أفكر فيها »[١] . سيما أن ما يقدر بـ ٧,٥ مليون أفغاني يواجهون خطر الموت والمجاعة حسب تقارير الأمم المتحدة، بل ووصفت « إن توصيل أميركا إمدادات التغذية للاجئين ( دعاية ) تستغل لأغراض خبيثة »[٢] كما ضرب العاملون في الإغاثة الدولية منعًا لوصول أغذية اللاجئين .

هذه مواقف سيسجلها التاريخ لأميركا بحق شعب يتشبث حتى الموت بقيمه

---

( ١، ٢ ) تشومسكي : ١١ سبتمبر : ص١٠٣، ١٠٥ .

وهويته، ولعلها أسباب كافية لانسحابها إلى بقية الدول الإسلامية.

وفى مسلسل قهر دولنا العربية والإسلامية نقف مع «الجماهيرية الليبية».

لقد تعرض هذا البلد للغارات الأميركية إلى جانب فرضها عليه حصاراً اقتصادياً بسبب قضية (لوكربى) استمر زهاء العشر السنوات، وفى ظل حالة التشرذم التى تعيشها دولنا العربية وغياب وحدة تجمع أقطاره وتبعد شبح الاعتداء عليه كما يجرى فى العراق وفلسطين عمدت بعضها -فى ظل التهديدات الأميركية -المبادرة إلى مقاطعتها فى حين كانت بعض الدول الأفريقية أول من خرق هذا الحصار! . موقفان جعل الأخ القذافى يعيد النظر لا لييمم وجهه شطر القارة الأفريقية فحسب، بل ويطالب بالانسحاب من الجامعة العربية، للأسف.

أما «الصومال» هذا الوطن العربى الذى لعبت أصابع الخارجية الأميركية دورها فى إضعافه وتفككه متخذة من دول الجوار له والحليفة لأميركا (أثيوبيا، كينيا، أوغندا ،وإرتيريا)، هذه الدول مجتمعة اجتهدت فى إقصاء أى دور إيجابى تقوم به الجامعة العربية لإعادة الاستقرار والأمن إلى الصومال، وتحقيقاً لتقسيمه وتفتيت وحدته عمدت إلى التغذية العسكرية لفصائل المعارضة لاستمرار قتال الأشقاء، كما ساعدت عناصر من الكيان الصهيونى للتحرك باتجاه الصومال تحت غطاء إنسانى «بتهيئة الأجواء لتواجدهم - كخبراء فى شتى المجالات - عبر تقديم المساعدات التى تتم عن طريق صناديق تدعمها وزارة الخارجية الأميركية والمنظمات الصهيونية العالمية»(١).

ونقف عند «جيبوتى»، هذه الدولة التى كان موقعها سبباً لتميزها وجعلها

(١) جريدة آفاق عربية العدد ٥٧٥ .

نقطة كاشفة للشاطئين الأفريقى والآسيوى للبحر الأحمر الذى جعل أميركا تستغل حاجتها إلى الدعم المادى الذى وفرته لها نظير نقلها ما يزيد على ٨٠٠ عنصر من خبراء القوات الأميركية الخاصة إليها تحت ما تسميه بحربها ضد الإرهاب، الأمر الذى يوفر لها مواقع قريبة من اليمن والصومال والسودان وللقضاء على أيما شخص تشتبه به فى ظل غياب الشرعية الدولية.

وصورة خامسة من الحقد على الإسلام وأهله ضمن مسلسل الإرهاب الدولى الأميركى.. « السودان » هذه الدولة الأفريقية التى يشكل توجهها الإسلامى بداية التدخل الأميركى لخلق مشكلة الجنوب السودانى..هذه الدولة قاومت الاستعمار بروح الإسلام منذ مطالع القرن التاسع عشر وحتى يومنا، الأمر الذى لم يرق لنظام أميركا بل دفعها للتعصب ضده مع كونه بؤرة لمشاكل داخلية عديدة منها ندرة المياه الصالحة للشرب وعجزه عن تسديد ديونه الخارجية وصراع الآلاف من شعبه ضد مرض الكوليرا والسل والإيدز، إضافة إلى متاعب حربه الأهلية منذ عام ١٩٨١م بين شماله وجنوبه، تلك التى حصرت أكثر من ١,٥ مليون نسمة، مع عيشه فى ظل عقوبات مريرة.

وتحت دعاوى السودان يؤوى عناصر إرهابية ومعسكرات تقوم بتدريب إرهابيين من فلسطين لقتال إسرائيل، أصدرت الإدارة الأمريكية سنة ١٩٩٧م على عهد الرئيس « كلنتون » قانون فرض عقوبات عليه، ليتوج « بوش » خطة سلفه بقصف الخرطوم بصواريخ كروز عام ١٩٩٨.. هذه الضربة الصاروخية مثلت كارثة للسودان بكل المقاييس لتدميرها شريان حياة المرضى، المتمثل فى « مصنع الشفاء للأدوية » الذى كان يزود أكثر من ٨٠٪ من مرضى السودان بالأدوية حتى عانى عشرات الألوف منهم وماتوا بصمت جراء قصفه « المتعمد ». وفى ظل

اقتصاد وعقوبات لا تسمح باستيراد الأدوية لدرجة وصف السفير الألماني بشاعة الجريمة بقوله: «من الصعب تقدير عدد من ماتوا فى هذا البلد الأفريقى جراء تدمير مصنع الشفاء والتخمين المعقول للرقم يدور حول عدة عشرات من الآلاف»(١) معظمهم أطفال.

أى أن الضحايا أكثر من ضحايا أحداث سبتمبر قياساً لعدد سكان الدولتين، ولكن هناك ضجة سبتمبرية اهتز لها العالم.. وهنا صمت رهيب شل ألسنته!! .

أما ما سيذكره السودانيون للإدارة الأميركية، فهو تاريخ ٢١ أكتوبر ٢٠٠٢م المتضمن توقيع ما يسمى بـ«قانون السلام» الذى تنص بعض بنوده فرض عقوبات اقتصادية وسياسية تعجيزية ما لم تسارع بالتفاوض (بحسن نية) مع الحركة الانفصالية بقيادة «جون جرانج» الذى تربطه بالكيان الإسرائيلى علاقات وطيدة يدعمها اللوبى الصهيونى المسيحى «وهذا ما يعطى مزيداً من الضوء الأخضر لانتصار الحركة الانفصالية»(٢). وتشجيعها فى التصلب بشروطها المجحفة لحقوق حكومة السودان بالتعرض لسيادته وشل اقتصاده، فى حين ترصد أميركا لمسيحيى جنوب السودان ٣٠ مليون دولار سنوياً.

وجاء قرار الخزانة الأميركية متزامناً مع قانون السلام بتجميد أرصدة ١٢ شركة سودانية خضعت أصولها المالية لحظر الولايات الأميركية، هذه الشركات تكاد تشكل منظومة محورية فى اقتصاد السودان. إنها بعض مواقف الجبروت الأميركى لتوابع زلزال سبتمبر تجاه وطن العروبة والإسلام بعيداً عن الشرعية ومساءلة القانون الدولى.

---

(١) تشومسكى: ١١ سبتمبر: ص٥٢.

(٢) جريدة الأهرام فى ٨ نوفمبر ٢٠٠٢م.

أما حكومة « اليمن » التى أغضبت أميركا بشدة لوقوفها مع العراق فى حرب الخليج عام ١٩٩١م، إلى جانب رفضها طلب واشنطن سنة ١٩٩٨م بإقامة قاعدة على أرضها لتعاجلها بحملة تنديد إعلامية سياسية واسعة النطاق ضدها وهى فى حقيقتها رسالة تهديد، نجدها تسارع بعد موجة سبتمبر لتدور فى فلكها طالبة الرضا، لتشهد تعاونًا واسع المدى تجاه القوات الأميركية والخبراء العسكريين، كما « شاركت القوات الأميركية بالدعم اللوجيستى حكومة اليمن فى شن حملات تمشيط واعتقالات موسعة ضد بعض من أسمتهم واشنطن المتعاطفين مع تنظيم القاعدة »[١].

إنها « بركات » أحداث سبتمبر حلت على اليمن. ولكن... هل للدول الضعيفة حق الدفاع عن نفسها ما دامت تفتقد غطاءً عمليًا من شقيقاتها؟!!!

وفى ظل مخطط احتوائها وهيمنتها على عالمنا نقف أمام « فلسطين »، ذلك الجرح النازف والغائر فى ضمير الأمة، وكان لابد أن يبدو دور إسرائيل المحورى المتحدى علنا اغتصاب دولة عربية لابتلاع مدنها ومصادرة أراضيها ضاربة بشعار الأرض مقابل السلام عرض الحائط لمباركة حليفتها الكبرى أميركا وتواصل مساعداتها العسكرية لقمع انتفاضة إرادة هذا الشعب الحر دون حسيب.

لقد كان طبيعيًا دخول أطراف عربية لها ثقلها السياسى كمصر فى مفاوضات بشأن قضية فلسطين لإيجاد صيغة عادلة تنهى الصراع مع إسرائيل. لكن التحرك والضغط الأميركى المنحاز كلية إلى إسرائيل جعل منظمة التحرير الفلسطينية تقبل « بفكرة التفاوض سرًا بعيدًا عن الإطار العربى »[٢] والمسارات الدولية

---

(١) آفاق عربية العدد ٥٧٦.

(٢) مجلة القدس: ص٥٤، ٥٥: العدد ٤٢ يوليو ٢٠٠٢م تصدر عن مركز الإعلام العربى.

الأخرى، منها ما عرف باتفاقية غزة أريحا التى تم توقيعها فى القصر الأبيض بواشنطن سنة ١٩٩٣م لذا «كان منطقيًا أن يجنى الجانب الفلسطينى ثمرة الدخول فى آلية المفاوضات السرية بعيداً عن مظلة التنسيق العربى» فجاء اتفاق أوسلو الذى حققت إسرائيل من خلاله أكثر ما كانت تريد»(١).

ثم ألقت موجة سبتمبر بصماتها بقوة لا نظير لها على أرض الرسالات بعد أن هللت لها إسرائيل لتسارع باجتياح مدن الضفة الغربية بشكل غير مسبوق متخذة من أصداء الانتفاضة الفلسطينية وتواصل توهجها -رغم المحن- ذريعة للتنكيل الوحشى بإبادة شعبها متخذة من سياسة التطهير العرقى والأرض المحروقة منهجًا. هذه المآسى والمجازر اليومية بحق شعبها الذى ينبت نضالاً وكفاحًا من أجل أرض، أدمت حتى قلوب حلفاء أميركا، فالسفير البريطانى فى إسرائيل (شيراد كوبر) يقول عنه الأستاذ إبراهيم نافع «كان يزور مدن الضفة الغربية فآلمته صورة أكبر سجن فى العالم شيدته إسرائيل حول الفلسطينيين يتسع لـ ٣,٥ مليون إنسان»(٢) لقد «أراد كوبر أن يعبر عن رأيه فطلب لقاء الجنرال (جلعاد) منسق الاحتلال وقال له: شاهدت بنفسى كيف تمارسون القمع والإذلال والإهانات دون سبب للفلسطينيين وهذه الممارسات تشكل خرقًا لميثاق جنيف وحقوق الإنسان والقوانين الدولية، رغم أن جلعاد نفسه اعترف بأن ٨٠٪ من الفلسطينيين يعانون القهر»(٣). لقد شهد شاهد من أهلها!

وجاء تصديق قرار بوش الابن باعترافه أن القدس عاصمة لإسرائيل انتهاكا صارخًا لكل المعايير الأخلاقية والدولية وكارثة لا تعدلها -إن تحققت- سوى

---

(١) مجلة القدس: ص٥٤، ٥٥: العدد ٤٢ يوليو ٢٠٠٢م تصدر عن مركز الإعلام العربى.

(٢، ٣) جريدة الأهرام بتاريخ ١٩/١٠/٢٠٠٢م.

نكبة تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٨م، رغم أن قراره لقى معارضة داخل أميركا واتحاد دول أوربا. أما تنصل إسرائيل من كل قرارات الشرعية الدولية والمؤتمرات التفاهمية -رغم إنها جميعًا تصب في مصلحتها -فقد جاء مشروع بوش الأخير «وخارطة الطريق» ممثلاً لإماتة القضية الفلسطينية، لا إقامة الدولة الفلسطينية حيث يبدو واضحًا أن إسرائيل من وراء الكواليس وضعت بنوده، وما تطبيقه حتى سنة ٢٠٠٥م سوى كسب الوقت لابتلاع ما تبقى من الأرض الفلسطينية وسحق أهلها.

كل هذا يجرى أمام الصمت الرهيب للعالم العربى والإسلامى حتى لكأن أميركا وإسرائيل عقلت لسانه قبل أن تقيد يده.

لكن يبقى موقف اسمه الإصرار ومواصلة التحدى والجهاد يمثله إنساننا العربى الفلسطينى فوق أرضه. ومع صورة أخرى من صور الكفاح المقترن بالصبر والصمود «العراق»..

هذا القطر العربى المسلم الذى ما زال يكابد سياط الحصار لأجل غير مسمى. فأمام فزع أميركا من النموذج الإسلامى فى إيران الثورة الإسلامية سنة ١٩٧٩م.. ثم حادث احتجازها الرهائن الأميركان، وتصاعد موقفها العدائى لواشنطن، زجت الأخيرة بالعراق فى أتون الحرب ووقفت تمده بوقود المعركة الطاحنة ثمانى سنوات دون توقف، دفاعًا عن مصالحها حتى حصدت آلة الحرب الملايين من زهرة شباب الجارتين المسلمتين، وحينما انتفت مصالحها وقفت بكل ثقلها تمطر العراق بقاذفات القنابل عام ١٩٩١م أيضًا لأجل مصالحها البعيدة المدى.. لا.. حماية للشعب الكويتى. واستمر عدوانها على العراق وهى تكيل بمكيالين أمام زعمها أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل، فى وقت سكتت عن إسرائيل التى تمتلك

كل الأسلحة المدمرة والمتطورة، والكل يدرك أهدافها الجمة من هذه الحرب التى يبرز فى مقدمتها تمكين إسرائيل الانسياح فى المنطقة العربية من خلال رسم الخريطة الجديدة لجغرافية الوطن العربى، هذا عدا الهيمنة على نفط العراق.

والعراق رغم موافقته للقرار التعجيزى الأميركى ١٤٤١ الذى خرج زوراً باسم قرار مجلس الأمن.. وموافقته بعودة فريق التفتيش عن أسلحته والذى باركته أميركا وضاعفت عناصره حتى الـ ٣٠٠ عنصر تلهفاً على إنجاز مهمته، وفى حال إثبات الفريق خلو العراق من أسلحة الدمار الشامل ستتغاضى أميركا وتخلق ألف سبب وعذر لقصف العراق ولسنا مغالين، فسرعة اكتمال حشودها العسكرية وانتظار أوامر الهجوم قبل وصول فريق التفتيش ماذا يعنى؟! إنها فرصتها الذهبية لاحتواء الوطن العربى والهيمنة على سائر مصادر ثرواته الطبيعية.

عراق اليوم يعيش أزمة حقيقية أمام سعار أميركا لطيه عسكرياً واقتصادياً وفتح المجال أمام توسع إسرائيل، فهى لم تكتف بإبادة جيل من شبابه حصدته بطائراتها خلال عاصفة الصحراء التى «وفرت العمليات العسكرية عام ١٩٩١ الفرصة الأولى لتجربة اليورانيوم المنضب كسلاح فى ساحة المعركة. واعترفت المصادر الأميركية فيما بعد بأن هذه الحرب أتاحت الفرصة المناسبة لاختيار فاعلية ذخائر اليورانيوم المنضب»[١] إلى جانب ما أمطرته به من قنابل النابالم والقنابل العنقودية ومتفجرات الوقود ذات النطاق النووى سنة ١٩٩١م «وخلال عشر سنوات أسقطت ١٣٥ ألف طن من القذائف فى طلعاتها اليومية» وهى ما تعادل ٦-٧ أضعاف القوة التدميرية لقنبلة هيروشيما»[٢]!!! بل إن التقارير الرسمية

---

(١، ٢) مجلة المفكر الإسلامى الشهرية: ص٦٩: العدد الثالث تشرين أول ٢٠٠٢/ تصدر عن المؤتمر الشعبى الإسلامى فى بغداد/ العراق.

لحكومات الغرب تؤكد «أن كمية ما أطلقته القوات الأميركية والبريطانية يقدر بـ ٤٠٠ طن من اليورانيوم المنضب»[١] فى حين تجمع الكثير من التقارير التى أعدتها منظمات أميركية تعمل فى قضية أسلحة اليورانيوم المنضب أن ٧٠٠ طن من اليورانيوم قد قذفت على الطرق»[٢]. وهناك تقارير رسمية تجاوزت هذه الأرقام!!. وقد «اعترف وزير الدفاع البريطانى أمام البرلمان فى السادس من كانون الأول - يناير سنة ١٩٩٤م بتلك الأرقام»[٣]. كما صرح وزير الخارجية البريطانى «روبرت كوك» سنة ١٩٩٨م لمؤسسة الإغاثة الدولية «إن االقوات الأميركية أطلقت قذائف وإطلاقات يورانيوم أكبر بكثير من القوات البريطانية»[٤].

وأثمر حصاد اليورانيوم وقطافه موت ١,٥ مليون طفل، عدا من ولد مشوها، أما الكبار فانتشار داء السرطان بينهم أشبه بالزكام وقد لمست هذا بنفسى وذهلنا له. هذا باستثناء الحصار الاقتصادى وما خلفه من آثار مادية ونفسية مدمرة من توابعها إفرازات اجتماعية دخيلة على العراق.

كل هذا وأميركا «المسالمة» تعاقب وتتعقب أصحاب الإرهاب الدولى! ولعلهم العراقيون الذين تتلهف على ضربهم بموافقة بعض أقطارنا العربية التى فتحت مجالاتها المختلفة كقواعد مرحبة بأساطيلها وحاملات طائراتها لقهر هذا الشعب ومواصلة أنينه وهو البوابة الشرقية والعمق الاستراتيجى لدول شقيقة، حتى جعلت مواطن الشارع العربى الغيور يتساءل بحرقة:

- أين بنود صيغ العمل العربى المشترك كأحد أشكال الوحدة، والذى تعقد له المؤتمرات الموسمية؟!

---

(١، ٢) مجلة المفكر الإسلامى: ص٦٩، ص٦٧ العدد الثالث.

(٣، ٤) المصدر السابق: ص٧١.

واين اتفاقات مقاطعة الدولة المعتدية، وأين رفضنا لهذه الممارسات وإن إعلاميًا وحسب!!

وهل وصل الخوف بنا لتسارع بعض دولنا لإسماحها للتواجد الأمريكى على أرضها فقط، بل والرضا بخرق سيادتها والتدخل فى أدق خصوصيتها السياسية، كأنها تذكرنا بعصر الاستعمار القديم!!

وهل «عرف عدونا فينا إدماننا لموقف الدفاع الجبان دون اتخاذ موقف الهجوم الذى يربك العدو وخططه ويرد كيده إلى نحره، والهجوم لا يعنى بالضرورة الهجوم العسكرى المسلح»(١) وإن من حقنا مشروعية الدفاع بكل الوسائل عند الاعتداء علينا، كمنظومة عربية واحدة.

ويبقى الرد معلقًا على ألسنة وضمائر قادة أمتنا.

ونصل إلى دولة إسلامية تعد إحدى جارات وطننا العربى وأخته «جمهورية إيران».. رغم كون إيران (أحد محاور الشر) بزعم ووصف أميركا، لكنها كالعراق لم يثبت اشتراكها فى أحداث ١١ سبتمبر، وما يبدو من وراء الكواليس من تقاربها مع أميركا بعد الإطاحة بحكومة طالبان، إلا أن ثمة مطالب أمريكية تحاصرها بها كى ترفع عنها «مغزى» سبة هذا الوصف، منها سماحها لحكومة واشنطن بقاعدة تنطلق منها لضرب العراق توفيراً للوقت، إتاحة سلطتها المتشددة مساحة كبيرة لتوجهات رئيس الوزراء الإصلاحية من منطلق الهوى الأميركى!.. كذلك إيقاف برنامج تسلحها النووى وتجميد مساعداتها لحزب الله فى جنوب لبنان.. وحماس فى فلسطين!. فاميركا لم تنس أن نموذجها الإسلامى الذى أطاح

---

(١) مجلة الرسالة: ص٥٣: العدد الثالث ربيع الأول ١٤٢٣هـ- مايو ٢٠٠٢م (مركز الإعلام العربى -القاهرة).

بنظام الشاه قد وقف منها موقفًا عدائيًا ساخراً، خاصة والتحولات السياسية تساعدها على تصفية حساباتها مع إيران تلك التى لا يبدو لها نهاية فى ظل عدم رضوخ إيران لهذه المطالب . . والأيام حبالى!!

وإذا اتجهنا شمالا فى هذه السياحة من هموم أمتنا، إلى حيث أعالى القوقاز أحسب سنعيش مع نموذج متفرد يمثل أحد تحدياتها فى مواجهة القوى الاستعمارية الشرسة، بمنطق جهاده المعتمد على إرادته وإيمانه أضعاف اعتماده على أسلحته حتى دوخ بها العسكرية القيصرية والسوفيتية. إنه شعب «الشيشان» ذلك الشعب العنيد القوى الشكيمة!

فى سجله نقرأ أن ثلاثة قرون طويت وهم يقاومون الروس منذ اتخاذ «بطرس الأكبر» أراضيهم فى حملته ضد بروسيا ليستمر تاريخ الصراع حتى سنة ١٩٢٤م عندما انضم الشعب الشيشانى إلى الأنجوش ليكونا معًا جمهورية سنة ١٩٣٦م. وفى عام ١٩٤٤م أمر الزعيم السوفيتى «ستالين» بحلها، واستمر كفاحهم ضد الروس حتى أعلن «جوهر دودابيف» -الذى انتخبه شعب شيشان رئيسًا- استقلال الجمهورية مما أثار موسكو عام ١٩٩٤م فأرسلت «نحو ٤٠ ألفًا من القوات الروسية للقضاء على حركة الاستقلال وانتهى القتال فى أغسطس عام ١٩٩٦م»(١) بعدما لقى أكثر من ٥٠ ألف جندى مصرعهم ليتم انسحاب روسيا بعد تنصيبها حكومة من الشيشان الموالين لها، مما أعطى استمرارية النضال للثوار ومهاجمة مصالح روسيا كان آخرها أزمة الرهائن فى أحد مسارح موسكو يوم ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٢م التى انتهت بكارثة لكلا الطرفين.

---

(١) جريدة الأهرام فى ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٢م.

ولعل من الغريب وقوف أميركا مع روسيا فى خندق واحد ضد الشيشان، فقد أعلن سفير الولايات المتحدة فى موسكو «أن عدة وكالات أميركية قدمت معلومات ونصائح فنية إلى الجانب الروسى طيلة مدة الأزمة»(١). ليأتى وصف المحاور (باراساميان) مطابقًا للواقع فى مقابلة أدارها نعوم تشومسكى، فى ٢٠ سبتمبر ٢٠٠١م بأن أميركا «نفسها دولة إرهابية كبرى»(٢) مستر سلافى وصف شدة سعادة الدول المتحالفة معها لتنفيذهم فظائعهم الإرهابية دون خوف، ومنها «روسيا مثلاً ستسعد جداً للحصول على دعم الولايات المتحدة لحربها الوحشية فى الشيشان»(٣).

نعم.. لقد شهد حلف الناتو فى عصر ما بعد أحداث ١١ سبتمبر تقاربًا هذا العام ٢٠٠٢م مع موسكو غايته القضاء على المسلمين، وحقًا نال هذا الشعب المجاهد من عنف العسكرية الروسية ما لم ينله شعب آخر من دول أواسط أو شمال آسية ممن نالوا استقلالهم. لكن نضال العقيدة مستمر!!

«أندونوسيا»..

على الرغم من أن مسلمى أندونوسيا يشكلون ٩٠٪ من نسبة مواطنيها إلا أن دستورها لا ينص على أن الإسلام دين الدولة، وأكبر مشكلة تواجهها هى غزوها من قبل الحملات التبشيرية المكثفة التى يركز فيها الغرب الصليبى لطى الإسلام فيها. ورغم كفاحها المرير ضد أنواع الاستعمار منذ سنة ١٥١١م نرى أن محاولة إجهاض الإسلام مستمرة «فقد طرح سوكارنو -أول رئيس بعد الاستقلال- دستوراً مصاغًا بعناية؛ بحيث يتم استبعاد الإسلام، وفرض عقيدة هجين تسمى

---

(١) جريدة الأهرام فى ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٢م.

(٢، ٣) نعوم تشومسكى: ١١ سبتمبر: ص٤٩، ص٤٤.

البانكاسيلا »[1] واعترف بأربعة أديان على قدم المساواة هى الإسلام والنصرانية والهندوسية والبوذية!!

وفى هذه القارة (آسية) التى ابتليت شعوبها الإسلامية أكثر من ابتلائها فى القارات الأخرى نرى أن أندونيسيا هى الأخرى دخلت فى منظومة التحالف مع أميركا متجاهلة قيامها فى عام ١٩٦٥م «بتنظيم مذابح لمئات الألوف من البشر معظمهم مزارعون بلا أرض فى مذبحة تساوت بمذابح هتلر وستالين وماو»[2] وفى مقابل هذا التحالف «ستحصل إندونيسيا على الدعم الذى ترجوه لمجازرها فى إقليم أكيه Aceh»[3] رغم أن أميركا عملت على إضعاف اقتصاد هذا البلد. وفى أعقاب حادث (ملهى بالى) الذى شكل الأستراليون معظم قتلاه، ومع فداحة المجزرة إلا أنها عبرت عن استياء مسلمى أندونوسيا لموقف استراليا الداعم لمخطط انفصال مسيحيى إقليم جزر (تيمور الشرقية) عن دولة أندونوسيا، ولم تدع أميركا فرصة كهذه تفلت دون تدخلها لتعبر هى الأخرى عن حقدها للإسلام فسارعت باتهام منفذى العملية بانتمائهم لشبكة القاعدة، حتى لكأن هذا الاتهام (تيك أواى) أميركا لضرب المسلمين وملاحقتهم أينما تواجدوا فوق سطح الكرة الأرضية. ومن ينسى مسارعتها فى هبوط وحداتها العسكرية الخاصة فى «الفلبين» لتدريب قواتها أساليب القضاء على المقاومة الإسلامية فى جزر «مورو»!!

يخيل إلىّ لو أن المسلمين تواجدوا فى القطبين المتجمدين لصهرت أميركا ثلوجهما بقاذفات قنابلها حد الغليان!!

---

(١) مجلة الرسالة: العدد الثالث: ص١١٢.

(٢، ٣) تشومسكى: ١١ سبتمبر: ص٧٢، ص٤٥.

لكن.. برغم الصور المأساوية التى يتعرض لها العالم العربى والإسلامى، لتوابع زلزال ١١ سبتمبر حتى أصيبت بعض حكوماته بالغبش الفكرى، إلا أن هناك الكثير من « المواقف » المضيئة « والتحديات » التى بزغت مؤكدة أن أشد نقطة من ظلمة الليل أقربها لاندلاع الفجر، وإن النصر فى النهاية لا محالة للمسلمين المعتدلين بعيداً عن التطرف أو.. نقيضه.

ففى جنوب لبنان أحرزت المقاومة الشعبية ( حزب الله ) أيار ٢٠٠١م أروع نصر بإجبارها القوات الإسرائيلية على الانسحاب فى ليلة ظلماء. كما سجلت المملكة العربية السعودية لأول مرة حق الفيتو العربى بموقفها الذى يستحق التسجيل عندما أعلن وزير خارجيتها لشبكة سى.إن.إن وبكل أنفة وشجاعة قائلاً: « إن بلاده لن تسمح للولايات المتحدة باستخدام أراضيها وأجوائها لحرب محتملة على العراق حتى فى حالة تفويض الأمم المتحدة »[١].

وفى الشقيقة « الكويت » ظهر أكثر من موقف رافض متحد للتواجد العسكرى الأميركى، فهل تكرار حادث إطلاق الرصاص على الجنود الأميركان من قبل بعض شبابها جاء تعبيراً لصرخة احتجاج مكبوتة -لاعتبارات كثيرة- فى صدور مجتمعها العربى الغيور!!!

واستمرار « الانتفاضة الفلسطينية » تحت ظروف قاسية أذهل تواصلها الصهاينة، ومثلت صفعة عنيفة للعسكرية الإسرائيلية وإدارة أميركا التى تساندها بكل ثقلها.

« العراق » صفحة مشرقة جديدة بالإعجاب لشعب أبى يتحدى ويفشل كل مخططات أميركا لإخضاعه رغم سياط حصارها اللاهبة، ولأجل غير مسمى!

---

( ١ ) جريدة الأهرام العدد ٤٢٣٣٩ فى ٧ نوفمبر ٢٠٠٢م.

« مصر الكنانة » التى لم تسمح لمجالاتها أن تستخدم فى حرب ضد شقيقتها العراق، ومواقفها من أجل مساعدة العراق فى محنته على الصعيد الشعبى والرسمى تستحق الإكبار.

فى دول العالم أجمع ترصد لنا وكالات الإعلام وأقمارها المظاهرات التى ترفض ضرب العراق . . وتصرخ فى وجه الإدارة الأميركية بلافتات ( لا لحرب العراق )، مواقف عالمية تضاف لإدانة بوش، لعل أروعها ما انطلقت من ولاياتها ممثلة بالعديد من بيانات الرفض والشجب المذيلة بتوقيع الآلاف من أساتذة جامعاتها ومثقفيها وقد تجاوز أحدها ٢٨ ألف توقيع لشخصيات بارزة[١]، هذا إذا استثنينا شجب الشعب الإنجليزى أيضًا، نجد أن إحدى وزيرات حكومته تقف لتشجب هذه الحرب!!

وفى تتويج المواقف المستقبلية المضيئة لانتصار العالم العربى والإسلامى، ما أظهرته نتائج الانتخابات البرلمانية ردًا على ما أصابه من جراح توابع ١١ سبتمبر فى الجزائر والمغرب والبحرين، ولأول مرة فى تركيا ذات النظام العلمانى. وفى إعلان الغضب أيضًا نجد « فى باكستان اكتسح تحالف الأحزاب الدينية الانتخابات البرلمانية بعد حملة صاخبة ضد أميركا وضد حليفها الرئيس مشرف »[٢].

وأخيرًا . . إن مثل هذه المواقف التى تعانى مرارتها أمتنا نتيجة أطماع قوى البغى لانتهاب أرضنا وثرواتنا، وإذابة هويتنا ومحاولات « الابتعاد » إن لم يكن القضاء على ديننا، ليست جديدة فى تاريخها، فقد عاشتها فى فترة القرون

---

( ١ ) انظر نعوم تشومسكى: ١١ سبتمبر: ص١٣٣-١٦٩.

( ٢ ) جريدة الأهرام العدد ٤٢٣٣٩ فى ٧ نوفمبر ٢٠٠٢م.

الوسطى من خلال حملات الحروب الصليبية العديدة لكسر شوكتنا ونهب أرضنا غير أنها انتهت ( ولله الحمد ) بطرد آخر جندى صليبى دبت قدمه فوق ثرانا.

ولعل ما سبق من تقديم لأحداث وصراعات تعيشها أمتنا اليوم.. إنما هو امتداد لفترة عاشتها تقاوم جيوشًا غازية هبطت علينا من أقاصى الدنيا لاحتلالنا، لتبرز معها معادن الرجال من الحكام والقادة وكل المتناقضات التى عرفتها دولنا وكابدتها مدننا العربية إبان تلك الحقبة التى انتهت بانتصار الرجال الذين علموا الأمة معنى الشجاعة والصمود والحق وتحرير الأرض.

وتلك الأحداث بدأت تظهر فى الأفق منذ نهاية القرن الثالث الهجرى حيث تسلل التمزق إلى أوصال الخلافة العباسية وما صاحبها من استقلال بعض الأمراء بأقاليمهم لإقامة دويلات على حساب الخلافة الشرعية فى بغداد، إضافة إلى اندلاع ثورات هجينة كثورة الزنج والقرامطة، وتفاقمت هذه الأدواء بانسلاخ « مصر » عن جسد الخلافة العباسية، ليعقبها الحكم العبيدى فتزداد الأمور حدة نتيجة الخلافات المذهبية.

ثم استشرت الفوضى بتناحر حكام الأقاليم المنسلخة، والدويلات مع بعضها إبان القرن الرابع الهجرى طمعًا فى الزعامة ليغرى ضعفها إطلاق عنان أحقاد بيزنطة لمهاجمة أعالى الشام والعراق وصولاً إلى بيت المقدس فى جولة العبث بممتلكاتها ما أمكن « وزاد الطين بله انحياز أمراء مسلمين إلى جانب هذه القوى المعادية بعدما ارتضوا الخيانة والخنوع حفاظًا على مراكز نفوذهم لتنتهى هذه الصراعات التى أنهكت جسد الأمة إلى نتائج حتمية حصيلتها زحف طلاب الحروب والمصالح الدولية من أوروبا على شكل حملات صليبية تمكنت فى حملتها الأولى -بعد حصد الأرواح والممتلكات- من احتلال أجزاء من وطننا

ليتوج هذا الاحتلال بإسقاط مدينة (القدس) سنة ٤٩٢هـ- ١٠٩٩م، مما كان له وقع الصاعقة على المسلمين نظراً لخصوصيتها الدينية، ولتعقبها حملات تمكنت من إرساء مستعمراتها المتناثرة فى معظم وطننا العربى والإسلامى.

وكان لابد للأمة أمام هذه الهجمة الاستعمارية من نضو ثياب المهانة والقهر ببعث حركة الجهاد الإسلامى الذى أعلنه الخليفة العباسى؛ فتحركت هذه القوى المبعثرة تلملم أشلاءها عبر وثبة أطلت منها إلى صدر التاريخ الإسلامى حين قهرت أقوى إمبراطوريتين يومها (الفارسية والبيزنطية).. فعادت توحد قواها بسرعة تحت لواء قادة أكفاء ابتداءً من المجاهد «مودود» وحتى السلطان «الأشرف قلاوون» امتداداً بالأتراك العثمانيين.

الجدير أن أروع المعانى التى تمخضت عنها الحروب الصليبية إلى جانب تحرير الأرض المغتصبة هو مبدأ الصمود والتحدى ووحدة الجيوش ووقوفها تحت مظلة واحدة، ومواقف ترجمتها أمتنا واقعًا عمليًا قبل انطلاقها على مستوى الزعماء والقادة.

وفى بحثى هذا حاولت التركيز على المواقف الإيمانية وصور المجابهة والصمود ومع أن أمتنا كبت أكثر من مرة، إنما لتنهض وتلتمع مؤكدة وجودها، ومن ثم تفوقها على المحتل الطامع.

واليوم.. فى الوقت الذى يمتد شرخ التمزق فى أوصال أمتنا، تذهب دول أوربا فى طريق الوحدة، لتضيف كل يوم جديداً من المكاسب وعلى أكثر من جانب، وربما لا نستبعد فى الغد توحيد أوروبا وأميركا وإن من أهلته حلف الناتو والبقية تأتى. فما أحرى أصحاب أولى مهاد الحضارات ومهبط الرسالات

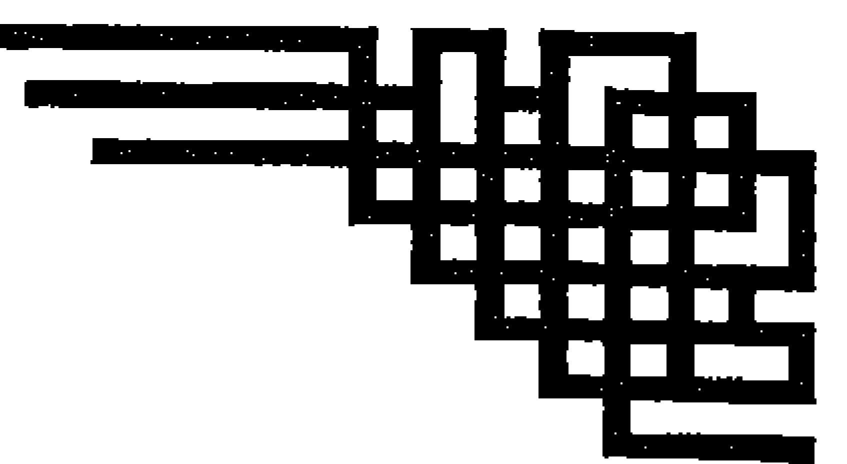
السماوية من وقفة إعادة حساباتهم لاستلهام كل الأمجاد، وإثراء كل المعانى الجليلة التى عرفها واحتواها تاريخنا الإسلامى.

ويقينى أن أمة تمتلك كل هذا الثراء المتآلف الخالد من تراثها الذى ربط صلتها برب السماء، محال أن تقهر أو تذل.

**هذا وبالله التوفيق**

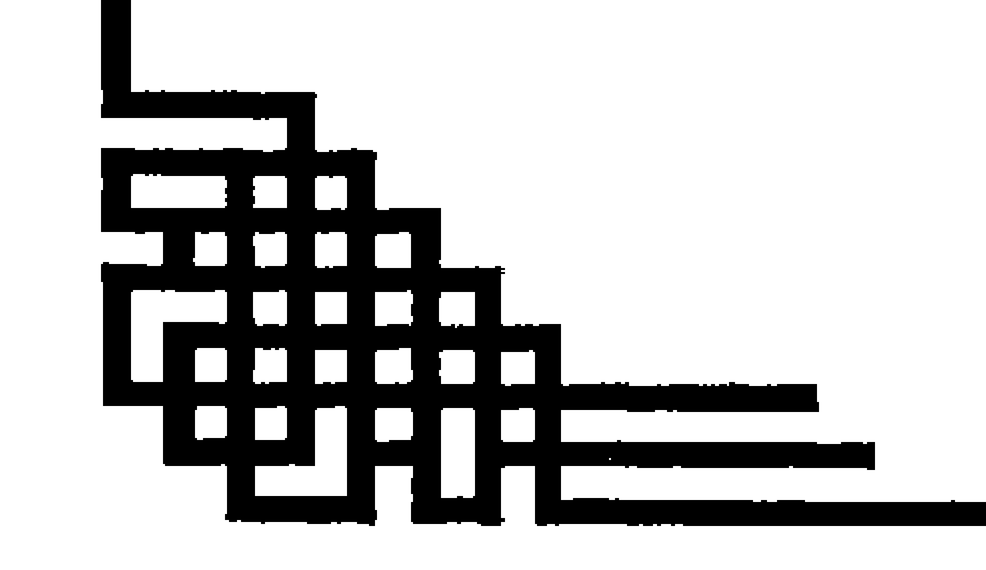
**سهيلة الحسينى**

**القاهرة**



# الفصل الأول

# بالإيمان وحده



# من يصنع النصر ؟ !

البعيد عن أحداث التاريخ الإسلامى قد يفاجأ كيف أن فئة قليلة قهرت أقوى إمبراطوريتين يومها الفارسية والرومية فى وقت تجردت مما تتمتع به سيدتا العالم من جيوش جرارة وأسلحة وعتاد ثقيل وخزائن طافحة بالذهب!! . . ذلك اعتمادها عبر انتصاراتها المتلاحقة رصيداً من التوكل على الله وقد أودع قلبها إيمانًا ذللت به الصعب، وتوغلت فى عمق بلاد العدو تحمل شعلة الإسلام كى تنير شعوبًا حجب حكامها شمس الحرية والحياة الكريمة عنهم.

لقد خرجت جيوش الأكاسرة والروم فى محاولة لوقف المد الإسلامى ولكن ما تعدادهم. . وما صفتهم؟ . . والإجابة كما أوردتها المصادر التاريخية. ففى معركة اليرموك مثلاً: « . . وكان الروم فى مائتى ألف وأربعين ألف مقاتل، منهم ثمانون ألفًا مقيدون، وأربعون ألف مسلسل للموت، وأربعون ألفًا مربوطون بالعمائم لئلا يفروا، وثمانون ألف راجل . . »(١) ولكن. . ماذا عن الجيش الإسلامى؟ « فصاروا ستة وثلاثين ألفًا سوى عكرمة فإنه كان ردءاً لهم. . »(٢).

وربما تساءل أحد الجند بعفوية: « ما أكثر الروم وأقل المسلمين!! » وبثقة القائد بالنصر أجاب خالد بن الوليد : « بل ما أكثر المسلمين وأقل الروم، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال . . »(٣).

ولا نفاجأ بنصر المسلمين. . فالنصر لا تصنعه أهواء الساسة وأغلالهم وجيوش تخرج مكرهة يخشى من أفرادها الفرار، إنما ينتزعه قائد وجيش رشف الحرية

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢/ ٢٥٨-٨٥٩.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٢٦٠.

وتذوق حلاوة الإيمان لهدف جليل سعى إليه.. وإن كلفه حياته!!

هذا التواؤم الروحى بين فصائل القيادة والجيش، سر القوة التى تنتزع روح النصر. والذى يعنينا.. المرحلة التاريخية التى اندلعت فيها الحروب الصليبية، بما فيها زحف التتار، فمثلهم لن يكونوا بمعزل وقد تحالف الاثنان للإجهاز على الإسلام. ويومها لم تفتقر جموع المسلمين إلى روح الإيمان والوعى والإقدام، فقد تناول المؤرخون هذا الجانب بدءاً من بخارى حتى مصر فبلاد الأندلس، وهذه صرخة احتجاج يطلقها أحد المسلمين الغيارى سنة ٦٢٨ هـ، أحد سكان قرية « مؤنسة » قرب نصيبين خلال زحف التتار، تعكس صورة صادقة لغياب القيادة الحكيمة:

« لو كان عندنا خمسمائة فارس لم يسلم من التتار أحد، لأن الطريق ضيق بين الجبال والقليل يقدر على منع الكثير »[١]!!

أجل! « فما كان ينقص المسلمين حقًا، قيادة داعية مؤمنة تجمع شتاتهم وتوحد جبهتهم لتضع حداً لمذابحهم!. حتى قيض الله للمسلمين قائداً سنة (٦٥٩هـ- ١٢٦٠م) جمع الإيمان والشجاعة بشخص المظفر قطز ليسحق التتار فى معركة عين جالوت بجيش من خير الأجناد منهيًا بذلك حمامات الدماء التى سفحت ليل نهار نتيجة عبث ملك، وتخاذل خليفة، وهروب سلطان، وأمراء سارعوا مباركين هجومه ومقبلين الأرض بين يديه عصمة لدمائهم الباردة!!

إن الاعتماد على الله ثم على النفس من أولى ركائز النصر وقواعده الذهبية لدى المسلم فى مشارق الأرض ومغاربها. ففى الأندلس خاض المسلمون سنة ٧١٩هـ قتالاً ضاريًا ضد الصليبيين الذين أعمتهم روح التعصب ضد كل ما هو

---

(١) المصدر السابق: ١٠/ ٤٩٣.

إسلامي، ووفد لاستئصالهم في معركة غرناطة الشهيدة عدد لا يحصي ضم خمسة وعشرين ملكًا حتى قلق أهل غرناطة، وكان طبيعيًا أن يستغيثوا بإخوانهم من المسلمين، فالوحدة من أساسيات النصر، حيث «استنجدوا بالمريني ملك فاس فلم ينجدهم»(١). وهنا تتجلى روعة الاعتماد على الله قبل الاعتماد على الأخوة «فلجّوا إلى الله، وحاربوهم وهم نحو ألف وخمسمائة فارس، وأربعة آلاف راجل، فأبادوا الصليبيين الذين وصفتهم المصادر «أقل ما قيل أنه قتل منهم خمسون ألفًا وأكثر ما قيل ثمانون ألفًا»(٢).

وربما لا يخلو الأمر من مبالغة، بيد أن الإيمان صنع النصر وبأقل خسارة لم تتعد الثلاثة عشر فارسًا.

* * *

**نعم.. فما زلنا نملك روح الإيمان تحقيقًا للنصر في قضايانا المصيرية حتى اليوم لقد أعدنا الأمجاد وانتزعنا النصر (بعد التوكل على الله) وفق قرارات قيادة جريئة وجيش مؤمن أطاح بإسطورة العدو، حين اقتحم جند الله خط بارليف ترافقه ترنيمة «الله أكبر» في العاشر من رمضان سنة ١٣٩٤هـ- ١٩٧٣م.**

## الزحف الصليبي.. هل أوقف المد الإسلامي؟!

لا أراني مع من يؤرخ للحروب الصليبية بخروج الأولى سنة ١٠٩٦م.. فالحرب سبقتها بكثير وإن لم تحمل نعتها، إنما حملت روح وفكر وأطماع وأحقاد أصحاب الحملات الصليبية المنظمة.. وهناك من الشواهد ما تلقي بثقلها على أرض الحقيقة التي ترفض الشك حول مخطط هيمنة الروم البيزنطيية على العرب كما في الجاهلية، ثأراً لانتصاراتهم بعد الإسلام.

---

(١، ٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دولة الملوك: ج٢ ص١٩٩: دار الكتب المصرية: (القاهرة ١٩٣٤).

ففي فتوح الشام سنة ١٣ هـ نسمع رنة الحقد والثأر للنيل من مقدساتنا، وجيش بيزنطة يحاول حجب شعاع المد الإسلامى فى معركة اليرموك مخاطبًا حاكمها هرقل:

« أيها الملك نردهم عن مرادهم، ونصل إلى مدينتهم، ونخرب كعبتهم »(١).

أما نقفور الذى ظهر إبان ضعف الخلافة العباسية، فقد استغل الموقف لطمس مصدر سنا هذا الإشعاع بلجاجة، فقد « جعل نقفور همته بلاد الإسلام والاستيلاء عليها »(٢).

ومن الشواهد الدامغة لهذه الروح العدائية توجيه رسالة جريئة إلى الخليفة العباسى سنة ٣٤٧هـ - ٩٦٤م على شكل قصيدة عرفت بالأرمينية نظمت باللغة العربية(٣)؛ تظهر بوضوح الدافع الدينى من حروبه مع المسلمين، أختار بعض أبياتها..

سأفتح أرض الله شرقًا ومغربًا

وأنشر دينا للصليب بصارمى

وفى محاولة استرداده ما كان خاضعًا لنفوذهم قبل الفتح الإسلامى ومنها « مصر »

ومصر سأفتحها بسيفي عنوة

وآخذ أموالاً بها وبهائمى

---

( ١ ) محمد بن عمر الواقدى: فتوح الشام جـ١ ص٩ : دار الجيل: بيروت.

( ٢ ) ابن الأثير: الكامل ٧ / ٣٢٠.

( ٣ ) كل ما نتناوله من نصوص هذه القصيدة مأخوذ عن كتاب « مقدمات العدوان الصليبى على الشرق العربى » للدكتور عمر كمال توفيق.

حتى تنتهى القصيدة بتهديده الخليفة العباسى بالانسحاب إلى أرض الجزيرة بكل جرأة..

عـــــودوا إلى أرض الحـــــجــــاز أذلة

وخـــلــوا بـــلاد الـــروم أهـــل المـــكـــارم

ولا تخلو أحقاده الصليبية من مكة والمدينة، ففى سياق البحث ستكون لنا أكثر من عودة بإذن الله، حول هذه القصيدة ما دعت الضرورة خدمة للبحث.

وما يمضى نقفور حتى يعقبه فى حكم العرش البيزنطى « حنا الشمشقيق » (٩٦٩-٩٧٦م) والذى لا يبتعد كثيراً عن نهج سلفه، ففى أول أعماله يمتشق سيفه على هيئة رسالة محرضة يوجهها إلى «آشوت الثالث» ملك أرمينية، حليفه ورفيق دربه فى محاولة الإجهاز على المسلمين، وكما يصفه:

« يا آشوت، يا شاهنشاه أرمينية الكبرى، يا بنى الروحى[١] ». وأيضاً: « فأنت بوصفك مسيحياً وصديقاً وفياً لجلالتنا »[٢]. إلى أن يطلعه على مشاريعه وانتصاراته ضامنا سعادة حليفه؛ « سوف تسعد بذلك وتلهج بعظمة مولانا المسيح السامية، هكذا ستعرف أن الرب لا يكف عن حماية المسيحيين »[٣] حتى يقول: « وهو الذى أتاح لجلالتنا أن نخضع كل بلاد الشرق. وستعرف كذلك كيف استولينا على نصيبين مدينة المسلمين »[٤].

وفى الرسالة يتعرض للخليفة الفاطمى ساخراً من تصديه، مستبيحاً المدن الإسلامية بوحشية تحت سنابك خيله حتى يقول:

« وكانت حملتنا تهدف الاقتصاص من أمير المؤمنين وزهوه، وهو مولى

---

(١، ٢، ٣، ٤) المصدر السابق: ص١٧٩.

الأفريقيين المعروفين بالعرب المغاربة الذى تصدى لنا بقوات هائلة عرضت جيشنا فى البداية للخطر، ولكنا هزمناه بعد ذلك بفضل القوة وعون الرب، فانسحبت فى خزى، شأنها شأن أعدائنا الآخرين وعندئذ جعلنا من أنفسنا سادة على بلادهم وحكمنا بقطع رقاب أهالى عدة أقاليم »(١).

وتنطلق روحه الصليبية من عقالها تعلن حقدها على المسلمين من خلال إشارته: « وكانت رغبتنا أن نحرر ضريح المسيح المقدس من يد المسلمين.. »(٢).

ولكن تشاء العناية الإلهية أن يموت قبل تحقيق حلمه الآفل فى بيت المقدس.

ما تقدم لا يفسر سوى تفعيل الفكر الصليبى لحملات صليبية غير منظمة.

وقبل أن يفيق المسلمون ويتداركوا قواهم المبعثرة تزحف الجيوش الغازية تحت راية الصليب من غرب أوربا فى حرب منظمة، ووسط هذا الطوفان المدمر تستولى على الكثير من الثغور والمدن العربية سافكة الدماء الإسلامية ليل نهار، وبمنتهى الوحشية مستهدفة الدين الإسلامى، بيد أن الصليبية وسط هذا السعار هل نالت ثأرها وحققت أغراضها لاقتلاعه أو إعاقة زحفه؟.. ببساطة، كلا، فهو لم ينتشر تحت ظلال السيوف بل بقوة روحية جذابة استطاع معها نشر أجنحته فوق كل القارات المكتشفة يومها، لقد استمر والخناجر المسمومة تغرز فى جسده مع كل خطوة يتقدم فيها رغم شراسة الحروب الصليبية، ليسره وطبيعته السمحاء التى توائم طبيعة النفس الإنسانية النزاعة إلى الخير، وإلا فما الذى جعل المسيحيين يعتنقونه بعد الفتح الإسلامى؟!

وعلى سبيل المثال نجد أهل أسبانيا الأصليين قد أخذ كثير منهم « يقبلون على

---

(١، ٢) دكتور عمر كمال: مقدمات العدوان ١٨٠–١٨٢: طبعة ثانية: ١٩٦٧ لا توجد دار الطبع.

الإسلام ويعتنقونه فى حماسة واضحة حتى غدوا أكثر تعصبًا لدينهم الجديد من المسلمين الغزاة»[1]!!

أما المغول وهم من سوء الخلق وغلظ الطباع فقد اعتنقوه خلال الحروب الصليبية، وكانوا من قبل قد نالوا من المسلمين وسفارات الصليبيين تتجه تباعًا نحوهم، توغر صدورهم.

ترى المصادر: وفيها وصل كرمون المقدم على طائفة كبيرة من التتار قد أسلموا فأنعم عليهم الملك الظاهر»[2]. بل بلغ الأمر إسلام أحد خاناتهم ووقوفه بوجه هولاكو كما ذكر: «أسلم بركة خان هذا، وكان يحب العلماء والصالحين ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتطريق جنوده. وكان يناصح الملك الظاهر ويعظمه ويكرم رسله إليه ويطلق لهم شيئًا كثيرًا»[3].

وإذا كان الإسلام ينتشر فى قلب الحروب الصليبية طوعًا، فالمسيحية نشرته خارج الدائرة الإسلامية كرها «وحسبنا ما قام به خلفاء الإمبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسلمين على اعتناق المسيحية، وما قام به شارلمان فى القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والبافاريين. والآفار بحد السيف، حتى إنه قتل من السكسون وحدهم فى مذبحة «فردين» الشهيرة أكثر من أربعة آلاف فرد جملة واحدة»[4].

---

(١) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ١ ص٥٣١: القاهرة.

(٢) ابن عماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب: جـ٣ ص٣٠٥: دار الكتب العلمية: بيروت.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية: ١٣ / ٣٧٩ تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح -دار الحديث (القاهرة ١٩٩٤م).

(٤) دكتور سعيد عاشور: الحركة الصليبية ص٢٧: مكتبة الأنجلو: القاهرة ١٩٩٤م.

وأيضًا بالنسبة للشعب الجرمانى إذ كان هذا المجتمع ذو الميول العسكرية يحتاج إلى ديانة عدوانية ويبدو من المصادر التاريخية أن العلمانيين فى هذا المجتمع كانوا على اقتناع تام بوجوب استخدام العنف فى تحويل الوثنيين إلى المسيحية. كذلك «إن الفترة الكارولنجية شهدت حروبًا عديدة ضد الوثنيين تم فيها إدخال هذه الشعوب إلى حظيرة ديانة السلام على أسنة الرماح وأنصال السيوف»(١).

وممن تبنى فكرة التطهير العرقى خدمة للمسيحية والسعى لمحو أية ديانة، الإمبراطور البيزنطى نقفور المعروف بجموح عاطفته الدينية التى تتحرك على وتر التطرف، فقد نشط لإبادة اليهود حين وقف على دورهم المعادى فى غزو بيزنطة للفرس. كما أنه اتخذ موقفًا معاديًا من الإسلام نتيجة «نبوءة غامضة مفادها أن عنصرًا يتخذ عادة الختان سوف يدمر الإمبراطورية، فأصدر أمرًا بفرض التنصير على جميع اليهود بالإمبراطورية، وكتب إلى ملوك الغرب يحثهم على أن يحذوا حذوه»(٢).

وثبت أن الغرب المسيحى لم يخيب ظنونه ضمن حملاته الصليبية لإبادة اليهود والمسلمين معًا، خاصة وقضية اليهود من صلب المسيح مسألة دينية لا يمكن للمسيحى إغفالها أو غفرانها!!.. ففى الحملة الصليبية الأولى برزت واضحة من خلال موقف الأمير جودفرى بوايون الذى «نذر قبل رحيله أنه سوف ينتقم لموت المسيح بإهدار دم اليهود»(٣). ولقد حقق نذره بتحريضه «أميخ»

---

(١) دكتور قاسم عبده قاسم: الخليفة الأيديولوجية للحروب الصليبية ٤٥ طبعة ثانية ١٩٥٨.

(٢) المؤرخ ستيفن رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/ ٢٨ ترجمة السيد الباز العرينى- دار الثقافة (بيروت ١٩٦٧).

(٣) المصدر السابق ١/ ١٩٨.

أحد قادة الحملة الشعبية، ضد الجالية اليهودية، والذى انتهى بمصرع المئات منهم غرقًا أو حرقًا أو ذبحًا «بعد أن رفضوا اعتناق المسيحية»(١).

والحق أن تاريخ قادة الحملات الشعبية يموج بقصص مذابح اليهود وبخاصة فى حوض الرايق.

هذه السياسة العنيفة المجافية للتعاليم المسيحية وضمن إطارها الغوغائى الذى يحاكى الرعاع والقتلة، امتدت إبان محنة المسلمين فى الأندلس سنة ٩٠٥هـ- ١٤٩٢م عبر تنظيم فرق تنصيرية لتنصير المسلمين تحت الإكراه حتى أعدموا كل من تمسك بدينه، بل إن محاكم التفتيش التى شكلوها طلبت من المسلمين إبقاء بيوتهم مفتوحة لرصد حركة تعاملهم اليومى.

لكن غبار معارك الحروب الصليبية لم ينجل إلا وقد اتخذ المسلمون طابعًا هجوميًا بروح وثابة جريئة حيث اتجهوا شرقًا وغربًا يضربون فى الآفاق من أجل نشر عقيدة التوحيد إلى أبعد مدى، وليردوا هذه الهجمات فى الثلث الأول من القرن الرابع عشر فى قلب أوربا!!

كانت هذه القوة ذات الدماء المتجددة تضخ بقوة فى عروق الأتراك العثمانيين الذين حملوا راية الجهاد فى آسيا الصغرى، ثم نقلوها إلى أوربا حتى حوض الدانوب.

لقد كان الفتح الكبير الذى زلزل عروش البابوات وأقض مضجعهم سقوط القسطنطينية عاصمة الأباطرة والكنيسة الشرقية على يد المجاهد البطل «محمد الفاتح» سنة ١٤٥٣م ليرتفع الآذان فوق قباب كنائسها منهيًا دولة الشرك، تلاه امتداد الزحف الإسلامى باستيلاء العثمانيين على دول البلقان وتوغلوا حتى دقوا أبواب فينا سنة ١٦٨٣م.

---

(١) المصدر السابق: ١/٢٠٥.

**وإذا ما قيض الله لنا المماليك من آل عثمان ليوقفوا طوفان مجازر الصليبية والمغول وقد تقدموا تحت راية الإسلام.. فمن لهذه الأمة كي يوقف إبادة المسلمين على امتداد خارطة العالم؟!!**

## القدس.. ومراكز القوى:

إذا ما أفرزت الحروب الصليبية من خلال موجها المتلاطم فرص صراعات دنيوية اهتبلتها مراكز النفوذ في المعسكر المسيحي، فإن الأمر لم يسلم في الجانب الإسلامي، وإن كان محدود الأفق قياسًا لمثيله. والتاريخ مهما أوغل في القدم فأحداثه تبقى رطبة غضة. وشخصية مثل «معين الدين أنز» حاكم دمشق والمحرك الفعلي لسياستها على الرغم من وجود صاحبها «مجير الدين آبق» حرى بها أمام الخطر الصليبي فسح المجال لنور الدين زنكي، الذي باءت جهوده ونداءاته السلمية لإيجاد موقع مؤثر يحول دون توغلهم في العمق الإسلامي مما اضطره لمنازلتهما، بيد أن الزعامة الزائفة لحاكمها آثرت الخيانة. ففي سنة ٥٣٤هـ «رأى أنز أن زنكي لا يفارقهم ولا يزول عن حصرهم، فراسل الفرنج واستدعاهم إلى نصرته وأن يتفقوا على دفع زنكي»(١).

أما الصفقة الفادحة التي دفعها للصليبيين فهي تنازله عن ياينياس «.. فنازلها معين الدين فقاتلهم وضيق عليهم، ومعه طائفة من الفرنج فأخذها وسلمها إلى الفرنج»(٢).

واستمر معين الدين في مستنقع الخيانة، فطيلة حصار نابلس كان يدفع للصليبيين نفقات الحرب!!

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل: ٩/ ٣١٤.

هذه الخيانة حركت لواعج الشاعر ابن منير فقال فى حصار آخر لدمشق من قبل نور الدين سنة ٥٤٦هـ قصيدة طويلة ينال فيها من صاحب دمشق.. منها[١]:

وقل لمبيـر الدين وهو مجيره
بزعم له وجه الحقيقة أزبد

حملت الصليب باغيا ونبذته
وثغرك مطووس النبات وأدرد

تنصرت حينا والبلاء موكل
ولابد من يوم به تتهود

أمسعاة نور الدين تبغي ودونها
الأسنة بتر والعوامل تعضد

ومع صورة أخرى..

فأمام كشف الحسابات نجد أن المجاملات والتنازلات مرفوضة على حساب المقدسات الدينية، وفي الوقت الذى رصد صلاح الدين كيانه الروحي والجسدى من أجل الجهاد وقضية فلسطين، رأيناه يتخذ موقفًا ينبو عن الضعف أو التخاذل رغم تخلى معظم الأمراء عن مساندته وتعرضه لضغوط الفرنسيين لأخذ القدس، وإلحاح الإنجليز وتشدد ملكهم ريتشارد ضمن رسالة:

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين: جـ١ ص١٩٧-١٩٨: نشر وتحقيق د. محمد حلمى: (القاهرة ١٩٥٦).

« والقدس فمتبعدنا ما ننزل عنه، ولو لم يبق منه واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما صليب الصلبوت فهو خشبة لا مقدار لها عندكم، وهو عندنا عظيم، فيمن إلى السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا التعب »[1].

وبإصرار المجاهد عن حرمات الله، وقد رأى فى القدس أمانة أنى له التفريط فيها وقلوب المسلمين معلقة فى رده الذى ترجم بصدق إرادة الشعب:

« القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومحشر أمتنا ومجتمع الملائكة فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين، وأما تلك البلاد فهى أيضًا لنا فى الأصل واستيلاؤكم كان طارئًا عليها لضعف من كان بها من المسلمين فى ذلك الوقت » حتى يقول: « وأما الصليب فهلاكه عندنا قربى عظيمة ولا يجوز أن نفرط فيها.. »[2].

وفى الوقت الذى تشبث ببيت المقدس حتى آخر رمق من حياته (رحمه الله) نجد هناك من جامل الصليبيين فتنازل عنه، كالسلطان الكامل. وبغض النظر عن ماهية الأعذار، فالأمر لا يخلو من بشاعة القرار. ومع أننا لم نعثر للسلطان الكامل حركة جهاد مرموقة خاضها فى الشام ضد الصليبيين لكن وجدناه يتحرك بسرعة ويقاتل كى يسخر المواقف تبعًا لمصالحه، فهو فى أوج حربه مع الصليبيين فى دمياط يغادر معسكرها سنة ٦١٤ هـ ليصبح غنيمة سهلة تمكنهم احتلال القسم الشرقى منها حين أحس بتواطؤ بعض الأمراء على خلعه « وتمليك أخيه الفائز »[3].

---

(١، ٢) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: ص١٨٧: دار الفكر: بيروت.

(٣) المقريزى: السلوك: ١/١٩٦.

ونراه ثانية عند وصول أخيه الأشرف منقذاً له والصليبيون يحتلون دمياط، فيعمد إلى المساومة لإجلائهم بتنازله عن بيت المقدس وسائر ما منحه المجاهد صلاح الدين، ثم يسرع بإلغاء اتفاقية التنازل عنها عندما يتغير الموقف لصالحه، بعيداً عن المقاومة التى أبداها أخواه الملكان الأشرف والمعظم، بل وسخر الله الطبيعة لقتالهم بشكل فيضان النيل وما ترتب عنه من معوقات ألزمت الفرنج بالجلاء عن دمياط.

بيد أن الكامل مرة أخرى يغامر بتسليم القدس كما لو كانت سلعة يمتلكها أو هدية. وتأتى الصفقة هذه المرة لقاء شن حرب ضد أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق، وكأنه نسى مساعدته كما نسى تخاذله وهروبه يوم أحس بضياع كرسى السلطنة لصالح أخيه الفائز، فإذا به من أجل نزاع عائلى على الأملاك يخرج على رأس جيش لحربه متسلحًا بمساعدة الملك «فردريك» الذى دعاه سنة ٦٢٦هـ واعداً إياه تسليم القدس لقاء مساعدته الجائرة، بيد أن أخاه السلطان المعظم عيسى توفى بعدما أقدم الملك الكامل على هذه المغامرة المخزية، فلقد وصل الملك فردريك ولا مجال للتراجع «وذلك أن الكامل تورط مع ملك الفرنج وخاف من غائلته عجزاً عن مقاومته، فأرضاه بذلك..»(١) فسلم الكامل القدس وسلم معها كبرياء السلطان وشرف الفرسان، ويصف المقريزى استقبال الكامل له:

«وتلقاه بالقرب من القاهرة بنفسه وأكرمه إكرامًا زائداً» كما «واهتم الكامل بتجهيز هدية سنية إلى ملك الفرنج وفيها من تحف الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم ما قيمته (أضعاف ماسيره، وفيها سرج من ذهب، وفيها جوهر بعشرة آلاف دينار مصرية»(٢) ففردريك الثانى الذى ما كانت القدس لتعنيه

---

(١) المقريزى: السلوك: ٢٣٠.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٢٢٣.

كثيراً، إنما جاء إضافة إلى استدعاء الكامل له « حفظ ناموسه عند الفرنج »[1].

وبهذه البساطة سقطت المدينة لقمة سائغة سهلة بيد الصليبيين بعدما كانت من أبرز أسباب اندلاع الحروب الصليبية، وقد فداها المسلمون بأرواحهم وأموالهم كي يشمخ هلالها فوق مئذنتها رمزاً لقدسيتها وتحررها.. ولكن!!.

وما بين تسليمها إلى الصليبيين وبكاء المسلمين وعويلهم أنشد شمس الدين سبط بن الجوزى قصيدة تتجاوز الثلاثمائة بيت معبراً عن هول الكارثة وحجمها، منها:

على قبة المعراج والصخرة التى
تفاخر ما فى الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحى مقفر العرصات

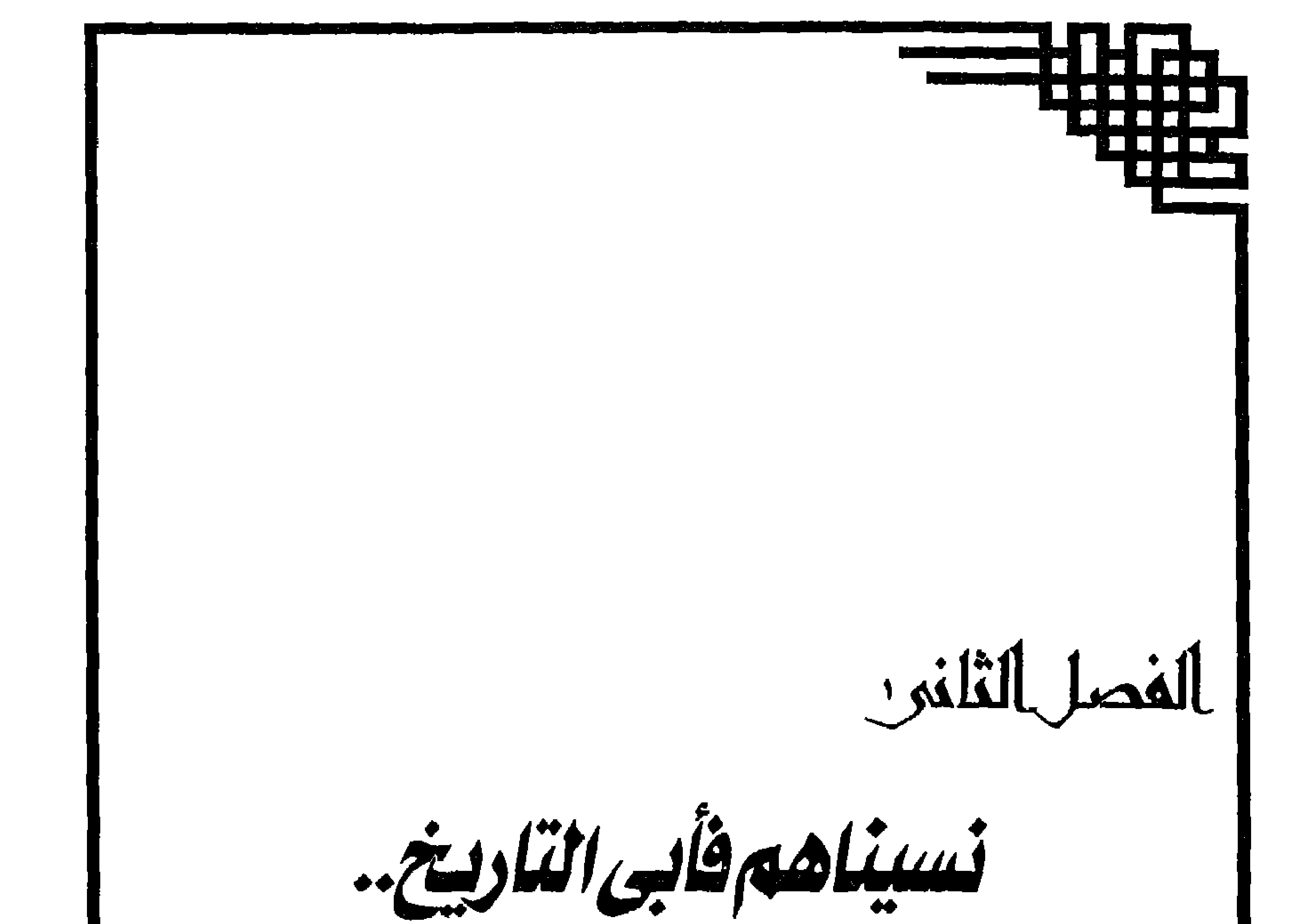
ولقد أعاد التاريخ نفسه على عهد السلطان الصالح أيوب، فقد جعل القدس قابلة للمساومة مع الملك لويس التاسع لقاء انصرافهم عن دمياط، كما فعل والده قبل ثلاثين سنة، وإن لقى هذا العرض السخى الرفض حتى من لويس الصليبى نفسه.

* * *

**لقد رفض السلطان العثمانى «عبد الحميد» المساومة والعروض المغرية، رغم تهديد الأعداء الإطاحة بعرشه.**

---

(١) المقريزى: السلوك: ١/ ٢٣٠.



## الفصل الثانى

# نسيناهم فأبى التاريخ..

## الأمة والخالدون..

تجتهد الأمم تقديم شخصياتها التاريخية بأبهى وأجل صورة وإن بدا دورها هامشياً، أو حملت بين أكنافها بعدا لا يؤهلها للوقوف مع العظام، لحمل الأجيال الصاعدة على الانتماء إلى الوطن وشد روحهم إلى تاريخ ينظرون إليه بكثير من الفخر والإجلال.

لكن تاريخنا الإسلامى منبع ثرى بالأفذاذ - ورغم جلاء صور الكثير منهم - بيد أن دورنا يبقى قاصراً أمام وقفاتهم الواهبة إرثا عريضاً لا يكفى وقوفنا أمامه مبهورين، بل نستغله عسى أن نكون فخورين بمآثره ورفده بكل ما هو جدير.

ومن قلب الحروب الصليبية سعيت لأختار بعض الرموز الجديرة بنفض غبار التاريخ عنها، غير أنى عجزت، فوقفت حيرى أمام جيش كل أفراده بذل وفداء.. وكله يمتلك قصة صنعت النصر وتستحق التسجيل فى لوحة الخالدين حتى خلت الثرى وهو يحتضن أجسادهم بفخر على امتداد أرض المعارك، حقولاً دائمة الخضرة مثقلة بالغلال.. فواحة بعبق الزنابق.. تثرى قنوات الروح والفكر خصبًا ونماء.

من اخترتهم ليسوا من ذوى الشهرة العريضة أو أرباب المراكز القيادية والنفوذ، كلا، فهم مضمورون.. بيد أن أسلوبهم فى الحياة كان متميزاً!!

### غدر.. ووفاء معًا:

شارور الوزير الداهية الطموح وقد قصد الملك نور الدين مستصرخًا ومستنجداً لينقذه من الصليبيين، ونظيره ضرغام خصمه اللدود الذى لا يختلف

عنه. وقد أغرى نور الدين بوعود جمة في مصر، فرآها فرصة لتوحيد الجبهة الإسلامية في جهاده الصليبيين.

بيد أن شاور وقد تحققت مآربه بمساعدة «شيركوه» أحد قواد نور الدين، نكث العهد وأضمر الغدر وقد وجد الخليفة العاضد بالله يقرب القائد الشجاع «فعزم على أن يعمل دعوة يدعوه والأمراء الذين معه ويقبض عليهم، ثم يستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنج»(١).

ويتصدى لموقفه الصق الناس به «فنهاه ابنه الكامل، وقال له: والله لئن عزمت على هذا لأعرفن شيركوه. فقال له أبوه: والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعًا»(٢).

فلتكن هذه النهاية، ولا مجال لأيما خيانة، والصليبيون يتحينون الفرص لمهاجمة البلاد، وشيركوه يقف لهم، إذن فما قيمة حياة الوالد أمام خيانته الله والوطن؟!.. وما قيمة حياته هو إن أطاع والده وعصى ربه في آن واحد؟!!..

وفي رده تتجلى ذروة الموقف الإبداعي المميز لهذا الابن المجاهد:

«صدقت، ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارسًا واحداً، ويملكون البلاد..»(٣).

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل: ١٠/ ١٤.

(٣) ابن الأثير الكامل: ١٠/ ١٥.

وتمر الأحداث.. فبعد فترة يقتل شاور حين أرسل «إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إنْ مَلَك مصر»(١).

وتسجل سنة ٥٦٤ ندم القائد شيركوه لمصرع صنو الوفاء وشهيد المثل العليا، ولكن بعد فوات الأوان فكان «يتأسف عليه كيف عُدم لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه في منعه من قتل شيركوه، وكان يقول: وددت أنه بقى، لأحسن إليه جزاء الصنيعة»(٢).

ولكن لا بأس.. فلئن ذهب الكامل فإنما بقى ذكره المعطار في لوحة التاريخ.

## أغرقوا أنفسهم.. لكنهم شهداء!!

الزمن سنة ٥٨٧ هـ - ١١٩١م والمكان مدينة «عكا» حيث تدور المعارك بين قوات الملك ريتشارد وقوات المجاهد صلاح الدين الأيوبى، ووصول بطسة (سفينة ضخمة) قادمة من بيروت مثقلة بالمؤن والعتاد وسبعمائة مقاتل كلهم يحلم بالنصر ونجدة إخوانه. حتى إذا وصلوا شواطئ عكا بدأت الأمانى المثقلة إيمانًا تذوب، وقد ترصدتهم سفن العدو. ورغم تطويقهم بأربعين سفينة إنجليزية غير أن أصحاب البطسة استطاعوا بإيمانهم التصدى لها.. بل وأحرقوا واحدة منها على أن قائد البطسة «لما رأى إمارات الغلبة عليهم، ورأى أنه لابد أن يقتلوا قال: -والله لا نقتل إلا عن عز ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئًا»(٣). ونزل ربانها «فخرقها خرقًا واسعًا لئلا يظفر الفرنجة بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق

(١) المقريزى: السلوك: ٢/ ٢٣٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل: ١٠/ ١٥.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية: ١٤٩.

جميع ما فيها »[1] .. ثم « تلقف العدو من كان فيها وأخذوه إلى الشوانى فى البحر، وخلصوه من الغرق، ومثلوا به، وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالوقعة، وحزن الناس لذلك حزنًا شديداً »[2].

من خلال رواية المؤرخين نقف على مدى الحس الإيمانى لهذه العصبة المجاهدة، فلم يأت ذكر يشير برفض أحدهم نهايته على هذا النحو المأساوى، أو تراوده فكرة القفز منها عله ينجو!! .. إن مواجهة الموت بجنان ثابت ونفس مطمئنة لا يطيقها سوى من قالوا:

« والله لا نقتل إلا عن عزم، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئًا »[3].

وصدقوا الوعد .. لقد كانت حمولة البطسة من جند وسلاح، القوة التى يحاربون بها، ولئن كان الجندى لا يترك سلاحه حتى يموت .. فهؤلاء موتى لم يتركوا للعدو سلاحًا!!

كانت هذه الخاتمة أشبه برسالة بعثوا بها إلى القائد صلاح الدين ولسان حالهم يقول: إنا فشلنا فى توصيل البطسة وحمولتها، فعذرا أيها القائد وقد شهد الله قتالنا حتى جدنا بأنفسنا والجود بالروح غاية الجود.

لقد استشهد الأبطال فى ساحة المعركة لا بضربة سيف أو طعنة رمح أو رشقة سهام .. بل باغراق أنفسهم. وهكذا طويت صفحة مشرقة لثلة صنعت لنفسها الشهادة .. ولنا المجد!!

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ١٠/ ٢٠٥.

(٢، ٣) ابن شداد: النوادر السلطانية: ١٤٩.

**يجاهد.. رغم موته:**

وأمام شخصية فريدة فى تعاملها الجهادى قلما تجود بمثلها الأقدار أو يكررها الزمن. لقد وهبتها العناية الإلهية الجهاد فى مماتها كما فى حياتها.

إنه البطل عيسى العوام..

اختار من أمواج البحر ساحة لجهاده.. ومن الليل سدولا لمهمته، فهى كفيلة لأن تبعده عن عيون الأعداء لتنفيذ عملياته الناجحة التى تتطلب الحذر والسرية التامة.

كم اخترق صفوف الأعداء وسمع أحاديثهم وهمسهم، أما هم فما أحسوا به وهو يمرق من بينهم كالسهم مواصلاً عمله كمراسل لتوصيل الأخبار وما يخدم المعركة.

«كان يدخل إلى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا، على غرة العدو، وكان يغوص ويخرج الجانب الآخر من مراكب العدو»(١) يؤدى الأمانة كدأبه.

ويتابع ابن شداد من واقع مشاهدته الحادث: «وذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتب للعسكر»(٢) لكنه أبطأ العودة، وما كانت عادته، فقد كان يطيِّر طيراً إشعاراً بوصوله.

ترى هل قاربت رحلة البطل النهاية ومن أحضان المياه إلى أحضان السماء؟!..

والناس بين متسائل.. تراه هلك؟.. تراه استولى على الوديعة؟!

وبعد أيام صمت ثقيلة من الشكوك والترقب دفع «البحر غريقًا قد قذفه البحر

---

(١، ٢) المصدر السابق: ١٢٠.

على ساحل عكا فافتقدوه، فكان عيسى العوام.. وبرأه الله مما قالوا»[1] و«تفقدوه فوجدوا فى وسطه الذهب وشمع الكتب، وكان الذهب نفقة للمجاهدين»[2] ومن كلمات ابن شداد نقف على الإعجاز الإلهى لهذه الشخصية المتفردة «فما رُئى من أدى الأمانة فى حال حياته وقد أداها بعد وفاته إلا هذا الرجل»[3].

وهكذا حرم الليل الساكن والبحر الهائج أحضان رجل لينتهى فى سماء المجد كوكبًا دائم اللألاء!!

**بطل من دمشق..**

لم يكن محاربًا، ولم يتقلد سيفًا فى حياته وهو يطأ أرض المعركة محققًا نصراً عجز عنه جيش كامل..

هو نموذج من شريحة اجتماعية قدر لها أن تكون من أرباب الكدح والكسب المضنى، نراه فى العتال والزبال والفحام وممن لا تلقى كبير حفاوة فى غير مجتمعها. ولو أتيحت لها فرص العلم لنبغ بعضها، ولربما غداً نموذجنا هذا عالما كيمياويا شهيراً.

ما زلنا أمام أسوار عكا من سنة ٥٨٦ هـ وقد استعصت على المسلمين، ومن شاهق أبراجها راحوا يرشقون المسلمين الذين عجزوا عن حرقها. كان بطلنا يرقبها بإمعان «ثلاثة أبرجة للعدو من خشب وحديد وألبسها الجلود المسقاة بالخل

---

(١) عماد الدين الكاتب: الفتح القسى: ص٤٢٣: تحقيق محمد محمود صبح. لا توجد دار النشر.

(٢، ٣) ابن شداد: النوادر السلطانية: ١٢٠.

« والطين والأدوية التى تمنع من إحراقها »[1] وبدت « هذه الأبراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على أسوار البلد، مركبة على عجل، يسع الواحد من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر، ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق، وكان ذلك عمل فى قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد »[2].

وصلاح الدين، القائد الذى لا تلين قناته يتحرك بكل الاتجاهات فى جبهات القتال، موجهًا الحامية وأميرها « قراقوش » الذى نشط « وجمع الصناع والزرافين والنفاطين، وباحثهم، وحثهمُ على الاجتهاد فى إحراقها، ووعدهم بالأموال الطائلة والعطايا الجزلة »[3] فلم يجد ذلك.

لا ريب أن الموقف جد خطير، وقد شق الأمر على القائد، ماذا يصنع وقد بلغت القلوب الحناجر. فالأعصاب متوترة والنفوس حيرى، ومن وراء معايشتهم لأيام الضيق والقلق الحاد تلوح فى الأفق بوارق الأمل عن طريق شخصيتنا التى كانت ترقب الأبراج عن كثب بتدبر وذكاء علها تنقذ الموقف وهى البعيدة عن فنون الحرب. « شاب نحاس، دمشقى، ذكر بين يديه أن له صناعة فى إحراقها »[4] ويزيد ابن الأثير على ذلك « .. كان مولعًا بجمع آلات النفاطين، وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار، فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه، وهو يقول: هذه حالة لم أباشرها بنفسى إنما أشتهى معرفتها »[5].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ١٩١.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية: ١٠٣.

(٣، ٤) ابن شداد: النوادر السلطانية ص١٠٣، ١٢٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ١٩٢.

وبسلوكه البسيط أثبت مدى جدوى فلسفة تفعيل العلم ما وسعنا.

وما أخذ بطلنا موافقة القيادة حتى بدأ المهمة. وإذا ما تمت «الوصفة» أمر المنجنيقى أن يرمى الأبراج، وهنا تكمن عبقرية الفتى الدمشقى «فرمى [المنجنيقى] عدة قدور وأدوية ليس فيها نار، فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئًا يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج، حتى إذا علم أن الذى ألقاه قد تمكن من البرج ألقى قدراً مملوءة وجعل فيها النار، فاشتعل البرج»(١) حتى «أعجزت من فى طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص»(٢) ثم انتقلت النار بسرعة لتحرق البرج الثانى فالثالث بمن فيه. ووصف ابن شداد فرحة المسلمين الطاغية «حتى كادت عقولهم أن تذهب»(٣).

هذه الشخصية قد يشتد إعجابنا بها عندما نعلم أنها لم ترسم لنا ملامح جدوى البحث العلمى فحسب، إنما البعد الأخلاقى أيضًا فقد «حمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين، فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثيرة فلم يقبل منه الحبة الفرد وقال:

- إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه»(٤).

وأمام هذه الشخصية الفذة ونظائرها نقف صامتين نتأمل.. ونتأمل!!

***

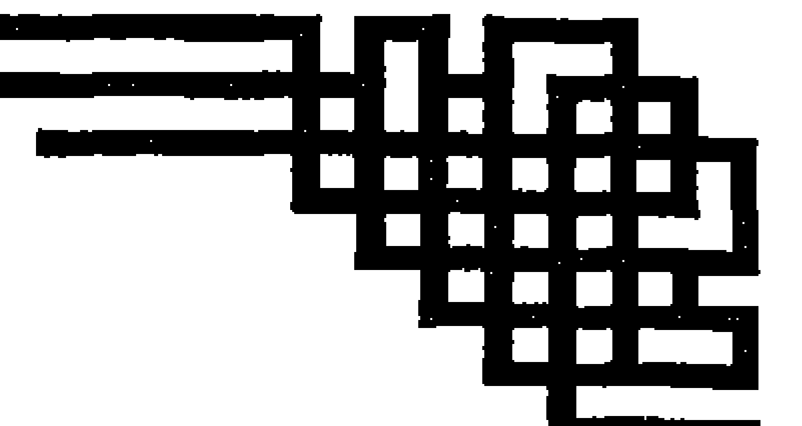
**إن الأمة الإسلامية لا تعدم أمثال هذه الصفوة من الشباب.. لكن لو كانت لها قيادة موحدة!!..**

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٩٢.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية ١٠٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٩٢.



## الفصل الثالث

# الحروب الصليبية.. صور وتأملات

## هل حقًا كذلك؟

كثيرة هى دوافع الحروب الصليبية المعلنة عنها والخفية. بيد أن أبرز سماتها تلك التى لازمتها طوال فترة الحملات متمثلة بذريعة حماية المقدسات الدينية، واتخاذها صبغة (المقدسة والعادلة).

ومع أن الحرب قذفت بالكثير من الملوك والأمراء نحو الشرق ودعتهم بفرسان المسيح حينًا، وطوراً بجيش الرب، وأسماء أخرى، بيد إن الواقع يأتى مخيبًا للآمال.. بل نقيضها. وإذا ما استثنينا من رجال الدين الأسقف «ادهيمر دى مونتيل» فقد ذهب معظم الأساقفة فى صراع مرير للاستحواذ بكرسى أسقفية بيت المقدس، كما فى الصراع الذى دار بين الأسقف دايمبرت والبطرق أرنولنى مالكورن.

أما الملوك وقد جرفتهم الأطماع الدنيوية، فلم نلحظ أنهم قدموا أثرًا دينيًا ذا بال، أو عملاً يستحق التسجيل خدمة للكنيسة فوق أرض المسيح الذى قدموا باسمه، بما فيهم الملك الفرنسى لويس التاسع الملقب «بالقديس» لشدة ورعه وتقواه منذ الطفولة، وبعدله وحمايته الكنيسة من أطماع رجالها، بل هو نفسه لم يصب أثرًا دينيًا جليلاً يوجب الإشارة إليه رغم قيادته حملتين صليبيتين اتجهتا نحو الشرق، ومارست دورها المرسوم لها مدة طويلة؛ ولعل من المهازل حقًا «أن السيد القنطيبور الذى جعلته الأساطير محاربًا مسيحيًا مثاليًا ضد المسلمين، لم يكن فى حقيقة أمره سوى جندى مرتزق يبيع سيفه لمن يدفع من المسلمين والمسيحيين على حد سواء»(١).

---

(١) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ص١٢٠.

أما فكرة الحرب المقدسة، فهى تسمية كم جانبت الواقع.. ولعل سنابك فيلهم تشهد على مذابح جماعية ارتكبها ( جيش الرب ) منذ بدء مسيرته فوق أرض مسيحية كهنغاريا مروراً بالأراضى الإسلامية المقدسة حتى مصر فالأندلس.

وحول البعد الدينى ومنطق السلوك العسكرى، تبرز بعض النماذج المعاصرة لذات الفترة مرتبطة بأشهر أقطابها القيادية من المسلمين والمسيحيين، ممثلة بأشهر قادتها كنور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى، إلى جانب بوهيموند الأول وبلدوين الأول أيضًا، ومقارنة هذه الخصائص الدينية والعسكرية فى كلا الجانبين عبر إطلالة جد مختصرة.

## آل زنكى.. جهاد وبذل:

لعل من المستحسن قبل الحديث عن دور نور الدين، المرور بالعائلة الزنكية للوقوف على الخلفية التى بلورت شخصيته الفاعلة وجعلته أبرز أقطاب الجهاد الإسلامى فى الحرب الصليبية، فجده «آق سنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحاجب، جد البيت الأتابكى أصحاب الموصل»[١] وقد عهد إليه السلطان السلجوقى بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين، كان من أبرزها حصار الرهّا وغيرها من المدن التى احتلها الصليبيون، حتى غدا من أعيان الدولة السلجوقية.

منحه السلطان « فلك شاه » الذى تربى معه ( حلب ) وأعمالها « بناء على مشورة الوزير نظام الملك »[٢].

ومن المؤلم أن يدفع آق سنقر حياته سنة ٤٨٧ هـ- ١٠٩٤م ثمنا لوفائه ضمن

---

( ١ ) ابن خلكان : وفيات الأعيان : جـ١ ص٢٤١ : تحقيق إحسان عباس : دار صادر ( بيروت ).

( ٢ ) أبو شامة : كتاب الروضتين : جـ١ ص٦١.

حرب انهزم فيها معظم أصحابه ليثبت أمام تاج الدولة تتش الذى أسره « فقتله صبراً »(١) لا لشيء إلا وفاءً ودفاعًا عن حقوق أولاد سيده السلطان ملكشاه بعدما « طمع عمهم تاج الدولة فى السلطنة »(٢). وفيه يقول ابن الأثير: « فيكفيه فخراً أن قتل فى حفظ بيت صاحبه وولى نعمته »(٣).

أما والده « عماد الدين آق سنقر زنكى » الذى لم يكن تجاوز العاشرة من عمره فقد دخل فى خدمة أتابكة الموصل حتى غدا صاحبها، وشب كوالده محارباً قديراً أثبت كفاءة قتالية عالية، جعلت السلطان السلجوقى محمود يقلده شحنكية العراق. وحين رأى « أن الجزيرة وبلاد الشام قد استولى الفرنج على أكثرها »(٤) استشار أعيان دولته حول رجل يتصدى لدفعهم فأجابوه: « لا تقدر على رقع هذا الخرق وإعادة ناموس الولاية ولا تقوى نفس أحد على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين زنكى »(٥).

ومن منصبه لأتابكية الموصل انطلق فى جهاده المتواصل لكسر شوكة الصليبيين، فتمكن وقد سيطر على حلب ودمشق من انتزاع الرهّا تلك المدينة المستعصية منذ خمسين سنة بيد المسيحيين، هذه المدنية ذات التراث المسيحى القديم لتشكل لطمة قوية لهم، وليصبح بعد ضمها بحق موحد الجبهة العربية الإسلامية بعد أن شل حركة الصليبيين شمال العراق والشام.

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ٨/٤٩٥.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين: جـ١ ص٦١.

(٣) ابن الأثير: الكامل: ٨/٤٩٥.

(٤) المقريزى: السلوك: ١/٧٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل: ٩/٢٤١.

ولكن من المؤسف حقًا وقد حمل هذا القائد الفذ راية الجهاد منذ سنة (٥٢١-٥٤١هـ/ ١١٢٧-١١٤٦م) أن تنتهى حياته غيلة بيد أحد مماليكه وهو يحاصر قلعة بعرين أن «تشاجر مع خادم ينتهى أصلاً إلى الفرنج»(١) ليقتله وهو نائم، فوأد فكرة الجهاد التى تملكته، وخسر المسلمون مجاهداً وخصماً عنيداً للصليبية، حتى إن أهل قلعة بعرين صاحوا بالقاتل: «اذهب إلى لعنة الله فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله»(٢).

وصفه ابن الأثير بأنه «كان أشجع خلق الله.. عظيم السياسة»(٣).

أما أبو شامة: «وظهر من أتابك زنكى شجاعة لم يسمع بمثلها»(٤).

وامتزجت حركة جهاده بالجانب الدينى فقد «كان أيضًا شديد الغيرة على نساء الأجناد، وكان يقول: إن لم تُحفظ نساء الأجناد وإلا فسدن لكثرة غيبة أزواجهن فى الأسفار»(٥).

وفى خضم جهاده المتواصل لم ينس إصلاح وتعمير مدينته. قال ابن الأثير: «حكى لى والدى قال: رأيت الموصل وأكثرها خراب.. وكان الإنسان لا يقدر على المشى إلى الجامع العتيق إلا ومعه من يحميه لبعده عن العمارة، وهو الآن فى وسط العمارة»(٦). وبحسه الذواق الرفيع «وكانت الموصل «أقل بلاد الله

---

(١) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/ ٣٨٥ نقلاً عن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق: ص٢٨٥.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية: ٤٧٦ عن حاشية زبدة الحلب: ٢/ ٢٨٢ وبغية الطلب ٨/٢١٣.

(٣، ٥، ٦) ابن الأثير: الكامل: ٩/ ٣٤٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل: ٩/ ٣٤٠، أبو شامة: كتاب الروضتين ١/ ٦٨.

فاكهة»[1]. فصارت في أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فاكهة»[2].

وما قصدنا الإطالة إلا كونها المدخل الرئيسي -وكما سيأتي- في تكوين طبيعة ونشأة وسلوك ولده نور الدين الذي ولد وشب في الموصل، ثم سكن حلب ودمشق أيضاً، وتنقل بينهما.

لقد تشكلت أولى سلوكياته عبر التربية التي رضعها من والده الذي كان «أتابكا لأبناء الملوك السلاجقة» مع بعض ما أخذه الوالد من حاضرة الخلافة العباسية، وعلى ذلك يكون الابن قد نهل أسباب المعارف من عيونها. وفي هذا أتذكر كلمة لطيفة للدكتور جمال الدين الرمادي يقول فيها: إذا شب الغلام وترعرع وأراد أن يستزيد من العلم رحل إلى مواطن العلم في مصر أو الشام أو الموصل أو بغداد أو مكة ليتقن العلوم العقلية والنقلية.

ومن تلك الأرومة وهذه النشأة برز نور الدين زنكي مواصلاً مسيرة جده وأبيه في حمل لواء الجهاد الإسلامي.

---

(١) أبو إسحق الإصطخري: المسالك والممالك: ص٥٣، ياقوت الحموي: معجم البلدان: المجلد الرابع ص٦٨٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل: ٩ / ٣٤٠.

# الشهيد نور الدين محمود زنكى

## ٥١١-٥٦٩ هـ/ ١١١٧-١١٧٤م

يمكن القول بأن « نور الدين زنكى » الملقب بالشهيد أو الملك العادل حمل العبء الأكبر من الجهاد ضد الصليبيين، ليكون أمل الأمة المنشود فى تلك الفترة بعد أبيه، وقد ظن الصليبيون بوفاته سنوح الفرصة لهم.

لقد استقل بحلب تاركًا الموصل لأخيه سيف الدين غازى.

والحقيقة لسنا بصدد حركة نور الدين الميدانية حيال الصليبيين، بل تناول البعد الأخلاقى فى جهاده، وكذلك سلوكه الدينى، وهما عنده لا مجال لفصل أحدهما عن الآخر!!

### الجهاد.. والبعد الأخلاقى:

إن اقتداء نور الدين بوالده وقد لزمه فى حروبه، ثم طبيعته المحبة للفروسية، ولربما كونه الابن البكر شكل سببا فاعلاً فى تحمله المسئولية للحفاظ على تركة والده، ودعم إنجازاته ورعاية إخوته وحل مشاكلهم ورعاية أولادهم أيضًا.. هذا الجهاد العائلى أمده زخمًا أوفر لحب الجهاد الميدانى حتى بات ألصق بصهوة جواده من الأرض التى يسير عليها!!

يصف أبو شامة المعاصر لحركة فتوحه، وحبه الجهاد، حين غادر شهر زور عبر إحدى جولاته: « وعاد إلى الموصل عازمًا على المسير إلى الشام، فإنه كان لا يرى المقام، بل لا يزال ضاعنا. إما لقصد بلاد عدو، وإما لغزو الفرنج وسد الثغور،

وكانت ميائر السروج آثر عنده من وثير المهاد، والسهر على المملكة أحب إليه من عرض الوساد، وأصوات السلاح ألذ فى سمعه من الغناء »(١).

ولا نستغرب أمام هذه الروح الموارة بحب الجهاد، وصف ابن العماد بطولته: « هزم الفرنج غير مرة وأخافهم وجرعهم المر.. »(٢).

وأسلوب جهاده العدو، يعيد إلينا صورة وضاءة طالما افتقدها المحاربون خلال تلك الفترة التى نأت كثيراً عن روح الإسلام حتى باتت السيوف مسخرة لغايات خاصة، فسمة جهاده أقرب إلى الصحابة رضوان الله عليهم، وقد وجدوا فى حمل السيف قضية مجردة من الرياء والظلم والأهواء الدنيوية، ميالة إلى التواضع، غايتها نصرة الله ودينه.

وبدا فى هذه الوقفة كم هو صغير أمام نفسه، شجاع معول عليه أمام المسلمين حتى لنسمعه يومًا يردد بأسى وحسرة: « لطالما تعرضت للشهادة فلم أدركها »(٣) فسمعه الفقيه قطب الدين النيسابورى « فقال له: بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين، فإنك عمادهم ولئن أصبت -والعياذ بالله- فى معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذ بالسيف وأخذت البلاد »(٤). وهذا الثناء من رجل فقيه حكيم، كفيل لأن يهزه طربا وسروراً، لكنه نور الدين!!.. لذا نكاد نسمع أصداء روحه: « يا قطب الدين ومَنْ محمود حتى يقال له هذا؟.. قبلى من حفظ البلاد والإسلام، ذلك الله الذى لا إله إلا هو »(٥).

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين: ١/ ٨٥.

(٢) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب: جـ٢ ق٢ ص٢٢٨.

(٣، ٤، ٥) أبو شامة: كتاب الروضتين: ١/ ١٩.

وصدق «فالجهاد بحاجة إلى نفوس متواضعة لا يداخلها غرور، وصدق لا يشوبه رياء. ولعل طبيعته التلطف واستخدامه الحلول السياسية ما دعت الضرورة، ونبذ العنف ما استطاع، ساعداه على تحقيق النصر أمام المسلمين من حكام المدن والمراكز والأقاليم الذين ما كان يتركهم حتى يسعى لتحقيق ما يرضيهم. ومن المهم جداً القول بأن نور الدين وهو يخضع هذه المدن ما كان مدفوعًا تحت ظلال النظام السائد تلك الحقبة، باستيلاء الحاكم القوى لإخضاع الضعيف، إنما لأسباب عسكرية جد وجيهة -كما سيأتي- لغرض إقامة جبهة إسلامية موحدة لإجلاء الصليبيين من المستعمرات التى اتخذوها فوق التراب العربى.

ومن سلوكه فى الانتصار، كان يجعل من خصمه نداً لا متحكمًا فيه. ينبغى احترامه ومعاملته بما يليق ومكانته وما يربطه من وشائج دينية، أو انتماء إنسانى بالنسبة للصليبيين؛ ولقد عزل مدبر شئون أخيه فى الموصل «فكان يبغض فخر الدين لما يبلغه عنه من خشونة سياسية»(١).

## موقفه من الحكام المسلمين:

لا أظن المغالاة فى القول وصفه بأحد نماذج الاستراتيجية العسكرية، فقد استولى على دمشق من صاحبها لكونها تعترض طريقه إلى عسقلان التى «أوشك الصليبيون أن يأخذوها، فكان نور الدين يتلهف ولا يقدر على إزعاجهم عنها لأن دمشق فى طريقه»(٢) ذلك ما عرف عن حكام دمشق آنذاك بخيانتهم. فحين حاصرها الصليبيون خوفهم صاحبها مجير الدين بتسليمها لنور

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ١٠/ ٣٠.

(٢) المصدر السابق: ١/ ١٩.

الدين « وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق »(١) لذا تنازل حاكمها معين الدين عن مدينة بانياس لتكون ثمن رحيلهم، إضافة إلى « كل سنة قطيعة يأخذونها منهم »(٢) ولم يكفهم هذا « حتى طمعوا فى دمشق واستضعفوا مجير الدين صاحبها، وتابعوا الغارة على أعماله مما ألجأ نور الدين انتزاعها حماية للمسلمين. وخوفًا من استنجاد صاحبها بالصليبيين ثانية، عمد إلى الحلول الدبلوماسية فاستمال صاحبها حتى إذا وثق به أخذها منه سنة ٥٤٩هـ بعد فشل مساعيه فى تنازله عن مدينة أخرى « فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الأموال وتسليم قلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه »(٣) ولكن « فإلى أن اجتمع لهم ما يريدون تسلم نور الدين البلد فعادوا بخفى حنين »(٤).

على إنه بقى محتفظًا بخلقه العالى أمام خصمه « وعوض مجير الدين آبق عن دمشق حمص »(٥) لكنه غير رأيه فموقع حمص له خصوصيته الاستراتيجية، لذا « أخذها منه وأعطاه بالس »(٦).

واستقبل أهالى دمشق نور الدين بالفرح لإعادة الكرامة والعزة إليهم أمام أعدائهم الصليبيين سيما وقد أصبح وجودهم فى دمشق كأنهم سادة البلاد الحقيقيون!!

أما استيلاء نور الدين على بعلبك، فلتميز موقعها أيضًا من الصليبيين، وأمام رفض صاحبها الذى سبق وولاه عليها مجير الدين.. ولحساسية الموقف « إذ لم

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين ١/٢٣٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/٣٩٨.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين ١/٢٣٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٩/٣٩٨.

(٥، ٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/١٨٤.

يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج، فتلطف الحال معه.. فملكها واستولى عليها»[1].

وفي مقته الاستبداد السياسي، سار سنة ٥٦٨ هـ إلى مملكة عز الدين قلج أرسلان عندما اغتصب (داشمند) بعض مدن ذى النون، فلجأ إليه مستصرخًا ومستجيراً فأكرمه، أما قلج أرسلان فبات يستعطفه، بيد أن نور الدين لم يضع فرصة كهذه لخدمة المسلمين، فكان أن اشترط عليه -لكثرة جنده- قائلاً: «بيدك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام ولابد من الغزاة معى. فأجابه إلى ذلك»[2]. ولم ينس إرضاء ذى النون.

وخلال سنة ٥٦٤ هـ أخذ قلعة جعبر من صاحبها شهاب الدين العقيلى وهى من القلاع المنيعة، وحين رأى أخذها بالحصر متعذراً «سلك مع صاحبها طريق اللين بأخذ العوض»[3] إلى جانب أعمالها. وعندما قيل لصاحبها: «أيهما أحب إليك، وأحسن مقامًا سروج والشام أم القلعة؟ فقال: هذه أكثر مالاً، وأما العز ففارقناه بالقلعة»[4].

وهكذا -بعيداً عن الأطماع المادية- مضى فى سياسته البعيدة النظر لضم المدن المهمة لإيجاد جبهة إسلامية «موحدة» يصعب على العدو اختراقها.

## لا مكان للضغائن:

فى سنة ٥٥٩هـ استطاع نور الدين انتزاع حصن بانياس من الصليبيين وكانوا قد امتلكوه سنة ٥٥٥هـ، أى بعد ستة عشر سنة من تنازل معين الدين عنه

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل: ٩/ ٤١٩، ١٠/ ٤٨.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين: ٢/ ٣٨٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١١.

للصليبيين. وتشاء العناية الإلهية وجود ولده ضمن المجاهدين عند فتحه. ورأى القائد نور الدين بشفافيته، مكافأة ابن معين الدين بما يستحق من إشادة تحفر معانيها في قلبه سعادة لا تمحى. فالتفت إليه بحنو وقال: «للمسلمين بعد الفتح فرحة واحدة، ولك فرحتان.

فقال: وكيف ذاك؟ قال: لأن اليوم، برد الله جلد والدك من نار جهنم»[1].

ولم ينس مواساة شقيقه نصرة الدين زنكى، وقد ذهب سهم بعينه فى ذات المعركة: «لو كشف لك عن الأجر الذى أعد لك، لتمنيت ذهاب الأخرى»[2].

**موقفه من الحكام الصليبيين:**

وامتدت أيديولوجيته العسكرية هذه مع أعدائه الصليبيين، فحين فشلت محاولته فى اقتحام مجموعة قلاع وحصون شمال حلب، وحيث صاحبها جوسلين الذى وصفته المصادر بأنه جمع الشجاعة والرأى «وشدة عداوته للملة الإسلامية»[3]. فوجد منه نور الدين وهو القائد العنيد الذى يأبى الاستسلام «فهجر الراحة ليأخذ بثأره»[4].

ولعدم جدوى نصل سيفه فى مثل هذه الحالة عمد إلى سيف آخر باستعمال الخدعة، وذلك بإرسال مجموعة تأتيه بجوسلين، فقبض عليه متصيداً. ورأى غريمه استعمال عقله أيضًا للإفلات من الكمين لقاء مال سخى لخاطفيه فأجابوه. بيد أن نور الدين وهو المتحسب لكل المفاجآت أفشل «بعيونه» مخطط المجموعة

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ١١.

(٢) المصدر السابق ٩ / ٤٦٩، انظر الذهبى: العبر فى خبر من غبر: جـ٤ ص١٦٣.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين ١ / ١٨٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل: ٩ / ٤٦٩، انظر الذهبى: العبر فى خبر من غبر: جـ٤ ص١٦٣.

الخائنة، فقبض على الجميع وجوسلين. ووصف ابن الأثير القبض عليه بأنه «من أعظم الفتوح لأنه كان شيطانا عاتيًا شديداً على المسلمين، قاسى القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره، ولما أسر سار نور الدين إلى قلاعه فملكها»(١).

ومن وحى جهاده الذى لا يفتر، وصدقه مع الله سبحانه، كان يبدو مهابًا يوقع الخوف فى قلوب أعدائه، حتى إن أهل قلعة باشر التى وُصفت من أمنع القلاع، راسلوه وبذلوا له، فتسلمها بعدما حصنها وزودها وحاميتها بمؤنة تكفى سنوات، لكي تكون مستعدة للدفاع أمام أى غدر صليبى. وهذه اللفتة الذكية فى استراتيجيته انسحبت إلى جميع المدن التى فتحها قهراً أو سلمًا. فهو يأخذ بكل أسباب النصر ويترك البقية متوكلاً على الله عز وجل.

## تحالفه.. مع الأعداء!

وعبقرية القائد نور الدين لا تبرز من خلال قوته العسكرية. فكثير من الدول تفشل فى مواجهة خصومها رغم وفرة العدة والعدد، لافتقارها القناعة بحتمية النصر وماهية الحرب. فإذا رأينا فى تحالف معين الدين أنز مع الصليبيين خيانة لجميع المسلمين، فتحالف نور الدين مع المسيحيين باستمالته «مليح بن ليون» ملك الأرمن سنة ٥٦٧هـ-١١٧٣م لصالح المسلمين أن إخلاصه الجهاد لم يمنع ماحاك فى صدور أصحابه من ريبة فعلل ذلك:

«إنما حملنى على استمالته أن بلاده حصينة، وعرة المسالك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام فإذا طلب انحجر فيها فلا يُقدر عليه. فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئًا من الإقطاع

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/٣٦٩.

على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج »(١).

وعند ابن الأثير « أستعين به على قتال أهل ملته، وأريح طائفة من عسكرى تكون بإزائه »(٢).

ومن الخلاف بين أرمينية وبيزنطة حقق كسبًا عسكريًا عن هذه الاستمالة وبأيديولوجية كفلت للمسلمين حقن دمائهم وتجنيبهم معارك رآها خاسرة بعد دراستها. فهو ربيب « الموصل » ذات الجغرافية التى تدخل الجبال تضاريسها الشمالية، وحرب الجبال كما هو معروف غاية فى الصعوبة. من هنا ضن بدماء المسلمين فى غير ضرورة.

لقد كان بوسع نور الدين استمالة القلوب حتى من الأعداء، فحين أطلق سراح جمع غفير من أسرى الروم سنة ٥٥٤ هـ - ١١٥٩م قدر عددهم بستة آلاف أسير بينهم شخصيات بارزة، بهدف عقد هدنة تجنبه الصدام مع الإمبراطور البيزنطى مانويل الأول، فوفق فى ذلك مع تلقيه هدية حوت من النفائس الشىء الكثير، بيد أنها لم تترك أثرًا فى نفسه. فهو كما وصفه المؤرخون « لم يلبس حريرًا قط ولا ذهبًا ولا فضة »(٣) لكن حسبه وجد فيها ما يضيفه إلى أمجاد المسلمين يومها وخزائنهم.

### أمام الغدر!!

على الرغم من ترجيحه كفة الليونة فى تعامله السياسى، فإنه كان حازمًا شديد البأس أمام تصور استغفاله أو محاولة الغدر به حتى لو كانوا أشقاءه. ويبدو أن مرضه سنة ٥٥٤ هـ - ١١٥٧م حمل بعضهم على الاعتقاد بموته بعد

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين ١/١٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٦.

(٣) العماد الحنبلى: شذرات الذهب جـ٢ ق٢ ص٢٢٨.

أن عهد بحلب إلى أخيه «قطب الدين» صاحب الموصل «لما يرجع إليه من عقل وسداد ودين»[1] وإبعاد أخيه «نصرة الدين» صاحب حران لحمقه، مما وجدها فرصة سانحة لاستيلائه على حلب. أما أكبر أمرائه «شيركوه» فسارع إلى محاولة الاستيلاء على دمشق، لكنه عاد إلى حلب بناء على مشورة أخيه أيوب، لخدمته «إن كان حيًا، وإن كان قد مات فإنا في دمشق نفعل ما نريد من ملكها»[2].

والحق لولا حكمة أيوب لافتضح أمر شيركوه وهلك. أما أخوه نصرة الدين وقد تصرف بغباء فحرم الأمارة بقرار نور الدين: «أعرف من أخلاقه وسوء فعله مالا أرتضى معه بتوليته أمرًا من أمور المسلمين»[3].

ولا شك أن انتقامه لغدر الأعداء أشد وأنكى. فحين فتح والده «عماد الدين» الرها التي شكل سقوطها دويا هائلاً في العالم المسيحي ترتب عليه خروج حملة صليبية، ورغم حروب عماد الدين الموسومة بشدتها فقد أشفق من هدمها، وعامل أهلها الأرمن بلطف حتى «نودى في العساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم»[4].

لكنهم مع ذلك لم يحفظوا جميله بل أعلنوا العصيان، ففي سنة ٥٤١ هـ - ١١٤٦م اتفقوا مع جوسلين سراً لتسليمها، فدخلها، وكان نور الدين بحلب فلما قاربها انهزم جوسلين خفية، ليواجهوا مصير خيانتهم أمام نور الدين «ومحق بالسيف كل من ظفر به من نصارى الرها»[5]. ثم «نهب منها الشيء الكثير من

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين ١/٣٠٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/٤٣٥.

(٣) القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٣٥٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٩/٣٣٢.

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين ١/١٢٥.

المال والأثاث والسبى»[1] حتى خلت من أهلها ولم يبق منهم إلا القليل.

ولا شك أن الملك نور الدين لقنهم درسًا قاسيًا ما كان أجدرهم به!!

## جندٌ طائرة.. شوقًا إلى مصر:

ونور الدين الملك القائد المثابر فى جهاده لم يجد وسيلة إلا واستغلها فى جهاده. ومن هذه الوسائل «الحمام» كأسرع بريد، لذا نجد «إن أول من اعتنى به من الملوك ونقله من الموصل الشهيد نور الدين سنة خمس وستين وخمسمائة»[2] ليصل الخبر إليه فى يوم. فهؤلاء مراسلون أوفياء سريعو الوصول عظيمو البأس فى الحرب رغم رقة شكلهم ودقته. ونراه عنى بنوعها فاتخذ (الهوادى) وهى المناسيب التى تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فعل نور الدين هذا «وهو المتشوق لأخبار مصر وأحوالها»[3]. وحقق هدفه «فحصل منها الراحة العظيمة والنفع الكبير للمسلمين»[4].

وتلك لملمة موجزة، لكنها مضيئة من جهاده.. وتعامله العسكرى.

## نور الدين والبعد الدينى:

لا شك أن نور الدين وقد سلخ شطراً من صباه فى مدينة كالموصل جاهدت طويلاً من أجل الحفاظ على هويتها الإسلامية، وارتباطها بالدولة الحمدانية فقد كانت هدفًا لغارات الدولة البويهية. حيث ملكها معز الدولة البويهى من الدولة الحمدانية فظلم أهلها وسامهم العذاب، فاستردها الأمير العربى ناصر الدولة

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين ١/ ١٢٥.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا: جـ١٤ ص٣٩٠.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين ٢/ ٥٢١.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٨.

الحمدانى لقاء مبلغ فادح من المال يؤدى كل سنة، حتى انتهى بها الأمر لتكون فى ظل السلاجقة ولتغدو الحرب سجالاً بين البويهيين والسلاجقة، ثم تنتهى مدينة حلب التى كانت عاصمة الدولة الحمدانية، تحت نفوذ الخلافة الفاطمية لتتأثر بالمذهب الشيعى. ولم يكن غريبًا على نور الدين وقد ملكها «أظهر بحلب السنة وغير العبارة التى كانت لهم فى التأذين (بإبطال حى على خير العمل)»[1]. كما جد فى حث قائده صلاح الدين الأيوبى على تقويض المذهب الفاطمى فى مصر أيضًا فتحقق له ذلك.

وبغض النظر عن مذهبه، فقد أولى الجانب الدينى كثيراً من وقته حتى لازمه كظله فى الجهاد، ولعل هذه السطور تسلط الضوء حول دائرة نبضه الدينى!

**عطفه:**

ففى الكسرة التى أصابته خلال حصره حصن الأكراد «٥٥٨هـ» أُخذ جيشه على غرة، وجعل الصليبيون يعملون فى جنده القتل والأسر حتى شق عليه الأمر فقال: «والله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأرى وثأر الإسلام»[2] ولم يمنعه هذا تعويض الجند عما فقدوه، ومن قُتل منهم أقطع أولاده، فأشفق بعض رجاله من إرهاق ميزانيته وقالوا: «إن لك إدارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت فى هذا الوقت لكان أصلح، فغضب من ذلك وقال: «والله إنى لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»[3]. كما رفض عرض الصليبيين للصلح، واستنفر فى رمضان سنة ٥٥٩هـ أخاه صاحب الموصل، وصاحب كيفا، وماردين. بيد أن صاحب كيفا

---

(١) القلانسى: ذيل تاريخ دمشق: ٣٠٥، أبو شامة: كتاب الروضتين: ١ / ١٠.

(٢، ٣) ابن الأثير: الكامل ٩ / ٤٦٣.

«فخر الدين» تلكأ وقد تحرك كرهه القديم لنور الدين حتى قال لندمائه مؤثراً عدم الجهاد: «إن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة»[1] - وفخر الدين هذا «ابن عبد المسيح» الذى غيَّر نور الدين اسمه إلى «عبد الله» ونقله من الموصل التى كان مدبراً لشئون أخيه فيها وذلك لخشونته السياسية -خاب فأله عندما وجده قد توجه للجهاد، فقال لأصحابه بعدما غير رأيه: «إن نور الدين قد سلك معى طريقًا، إن لم أنجده، خرج أهل بلادى عن طاعتى، وأخرجوا البلاد من يدى. فإنه قد كاتب زهادها وعبادها، والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقى المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر، ويستمد منهم الدعاء، ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه، وهم يقرؤون كتب نور الدين، ويبكون، ويلعنوننى ويدعون علىَّ، فلابد من المسير إليهم ثم تجهز وسار بنفسه»[2].

ومن كلمات «عبد المسيح» نستشف مدى التوافق الروحى والتلاحم الدينى القائمة جسوره بين القائد نور الدين وبين جماهير العامة من المسلمين. فعنايته ببناء قاعدة جماهيرية وفق أسس دينية متينة كانت ركيزته الصلبة فى تحقيق النصر. وهو أيضًا الجيش الثانى الذى يشهر سلاحه الإعلامى الفتاك سابقًا السيف لشل عزيمة العدو وقهره.

لقد تحرى نور الدين معركته فى رمضان كشهر فيه الخير كله، وكان أن انتصر وفتح (حارم) رغم وصول الصليبيين «فى حدهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم وأقبلوا إليه من كل حدب ينسلون»[3]. فالروح المعنوية

---

(١، ٢، ٣) المصدر السابق ٩ /٤٦٨.

العالية مفتاح النصر، وهو ما غرسه نور الدين في جنده على المستوى الجماهيري والعسكري.

**عدله:**

لعل حكمة (العدل أساس الملك) تنطبق إلى حد بعيد على الملك نور الدين حتى لقب بالعادل.

قال عنه ابن خلكان: «كان ملكًا عادلاً زاهداً عابداً ورعا متمسكًا بالشريعة مائلا إلى أهل الخير»[1] ويؤكد أبو شامة ذلك: «كان نور الدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف وسماها دار العدل»[2] وفي غير أيام الحرب كان يخصص أربعة أيام من الأسبوع يجلس فيها، ويمنع الحجاب كي يصل الضعفاء لعرض قضاياهم على الفقهاء والقضاة دون حرج.

ولعل من أظرف ما حصل له في دار العدل التي أقامها أن أحضره إنسان إلى مجلس الحكم سنة ٥٦٩ هـ فجلس نور الدين يقول لقاضيها:

«قد جئت مُحَاكَمًا. فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم»[3]. وأسقط ما كان يؤخذ في دولته من مكوس.

وذهب ابن الأثير: «قد طالعت سير الملوك والمتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحريا للعدل»[4].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥ / ١٨٥.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين ١ /١٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠ /٥٧.

(٤) المصدر السابق ١٠ /٥٦.

## ورعه وعبادته:

يقول ابن الأثير، حكى لى طبيب كان يخدم نور الدين فى مرضه الذى مات فيه «دخلنا إليه وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق.. كان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه»(١). كما وصف بطول تلاوته القرآن الكريم.

ويبدو رغم اتسام ذاك العصر بتوسع دخول العبيد والقيان والخصيان على نساء الملوك والأمراء، فقد كان نور الدين كأبيه غيرة على النساء حتى «ما يدع خادمًا بالغًا يدخل على حريمه»(٢).

وكان من الحرص على مال المسلمين أنه رفض أخذ أى دينار للإنفاق على بيته «حتى شكت زوجته من الضائقة، فأجابها: ما بيدى، أنا خازن للمسلمين، لا أخونهم، ولا أخوض نار جهنم لأجلك. وكان يصلى كثيراً بالليل وله أوراد»(٣).

لقد كان حقًا كما قيل:

جمع الشجاعة والخضوع لربه

ما أحسن المحراب فى المحراب(٤)

## آثاره الدينية:

كانت لنور الدين يد تجاهد.. وأخرى تبنى!

ورغم سقوط مدينة القدس بيد الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ بيد أن الأمل كان

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ٥٦.

(٢) العماد الحنبلى: شذرات الذهب جـ٢ ق٢ ص٢٥٧.

(٣، ٤) المصدر السابق ١٠ / ٥٧.

يحدوه لاستعادتها، فالقدس تستحق بناء الآمال وترجمتها فعالاً. هذا الأمل دفعه قبل تحرير المسجد الأقصى بعشرين سنة لعمل منبر له. بيد أنه للأسف لم ير ثمرة نتاجه، رحمه الله. على أنه ذكر: «فعمر منبراً وقبلة بجامع حلب على اسم القدس، فتوفى قبل الفتوح فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس حمل المنبر إليه وأبقى القبلة بجامع حلب»(١).

لقد أولى نور الدين اهتمامًا فنيًا عاليًا لكل ما يمس الجانب الدينى. فأمر الصناع بالمبالغة فى تحسين منبر بيت القدس حتى استغرق من الصناع سنوات طويلة من العمل، فجاء أشبه بتحفة فنية، مؤملاً وضعها بنفسه فى المسجد الأقصى بعد عزمه على فتح القدس إلا أن القدر لم يمهله. وإن دل هذا العمل على شفافيته الشديدة وتفاؤله لاستعادة القدس الشريف.

ويضيف ابن الأثير «فعله النجارون فى عدة سنين لم يعمل فى الإسلام مثله.. فحمل من حلب ونصب بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة وهذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله»(٢).

وبكثير من الحزن والأسف، أحرق اليهود هذا المنبر ذا الأثر الإسلامى العريق ضمن حريق المسجد الأقصى بتاريخ ٢١/٨/١٩٦٩م.

وأبدا ما كانت مهامه العسكرية لتصرفه عن تزيين البلاد بمساجد تنطلق منها وتتواصل حركة العلم والجهاد، وهما شاغلاه. ورغم مذهبه على أبى حنيفة النعمان لكنه لم يتعصب لمذهبه، وبنى المدارس للشافعية والحنفية «بجميع بلاد الشام الكبيرة مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك ومنبج والرحبة، مع مستشفى

(١) سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان: جـ٨ ص٣١٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٥٨.

ودار للحديث. إضافة إلى الخانات على جميع الطرق تسهيلاً للمسافرين.

وليس غريبًا أن يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه، وينبسط معهم ولا يرد لهم قولاً ويكاتبهم بخط يده.

وأكثر من بناء المساجد منها «بمدينة الموصل الجامع النورى ورتب ما يكفيه، وبحماة الجامع الذى على نهر العاصى، وجامع الرها، وجامع منبج».

ولكون جامعه المتفرد فى الموصل كان حديث المؤرخين كابن شداد وابن الأثير وأبو شامة والعماد الحنبلى وشمس الدين الذهبى، وغيرهم كثير، رأينا التوقف قليلاً عند هذا الأثر الإسلامى العريق والذى يطاول الزمن بشموخه ومتانته حتى اليوم!!.. ولا ندرى إن كان الحنين قد شده إلى مغانى صباه وصدر شبابه حتى أولى المسجد الجامع عناية خاصة. وربما جعل هذه المدينة التاريخية تنتسب بأحد أسمائها إليه «الحدباء»(١) وذلك لانحناء مئذنته الشاهقة حتى نرى برج بيزا فى إيطاليا محاكيًا لها.

أما قصة بنائه، ففى سنة ٥٦٦ هـ قصد الموصل «فصعد منارة أبى حاضر فأشرف منها على موضع الجامع»(٢) الذى أراده رحب الجنبات، لذا وجد إضافة الدور والحوانت المجاورة للموضع «على أن لا يؤخذ منها شيء بغير اختيار أصحابها، وشرائها منهم بأوفر الأثمان»(٣).

وعين لبنائه الشيخ عمر الملا «ولما عوتب انه لا يصلح لمثل هذا العمل أجاب بما يكشف عن حسه الدينى: «إذا وليت العمل بعض أصحابى من الأجناد

(١) وإن كان يرى أحد المصادر الحديثة أن الحدباء، من انحناء نهر دجلة وتعرجاته عند مروره بالموصل، وهو رأى ضعيف.

(٢، ٣) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ٣١.

والكتاب، أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات، ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم. وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإذا ظلم كان الإثم عليه، لا عليّ»(١). وقد كلفه هذا الجامع «ستين ألف دينار»(٢).

والحق صدق حدسه فما زال «الجامع النورى» ومئذنته السامقة «الحدباء» تقارع الزمن وتطاوله بأنفه وتحدٍ معلنة عن صاحبها، وهي قائمة في قلب المدينة كأروع أثر. ما زال محافظًا على مكانته كمنارة للعلم وعقد الندوات والصلاة وإقامة الدروس والخطب وتحفيظ القرآن الكريم.

## ما قيل فيه:

وإن غالى وتجاوز البعض الحدود الإسلامية في ذكر مآثر الملك العادل نور الدين زنكي درجة ذهب معها ابن خلكان إلى القول: «سمعت جماعة من أهل دمشق [حيث دفن] يقولون: إن الدعاء عند قبره مستجاب، ولقد جربت ذلك فصح»(٣).

ويبقى الشهيد زنكي وإن مضى!. فأثره في الجهاد منارة تهدى خطى طلاب البذل والجهاد من الشباب.. اليوم.. وفي الغد!!

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص١٧٠، أبو شامة: كتاب الروضتين: ص٢٠.
(٢) ابن الجوزى: المنظم في تاريخ الملوك والأمم: ١٠/٢٤٨.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٥/١٨٧.

# الناصــر .. صــلاح الدين الأيـوبى

## ٥٣٢-٥٨٩ هـ/ ١١٣٨- ١١٩٣م

أحد تلاميذ وقواد وأمراء الملك نور الدين. ترسم خطاه وتخرج فى مدرسته، واندفع فوق صهوة جواده حافراً بجهاده الأسنى اسمًا يضاف إلى أمجادنا التاريخية كبطل لمعركة حطين الشهيرة. وواصل دحره الصليبيين حتى انتزع منهم زهرة المدائن ( القدس الشريف ).

وعادة فالأبطال لا يصنعون التاريخ من خلال الصدفة، أو نتيجة مغامرة عسكرية يخرجون منها ظافرين، أو لطموحات شبابية تؤججها نوازع الأثرة. فلقد تجاوز -خليفة نور الدين- حدود الذات والعرق واللغة والموطن إلى أسمى غاية، ذلك ارتباطه برضا الله خدمة للإسلام مجاهداً لا يرى للحياة طعمًا إلا من خلال غبار المعارك والانتقال بحدودها إلى أبعد مدى.. فهى القضية التى نذر نفسه لأجلها، حتى وصفه الرحالة ابن جبير بأنه كان:

« لا يأوى لراحة، ولا يخلد إلى دعة، ولا يزال سرجه مجلسه »(١).

وكما وصف ابن شداد الذى يعتبر أفضل من أرخ لجهاده، فقد كان قاضيًا لعسكره ومرافقًا لمعاركه ومستودعًا لبعض أسراره. ولا بأس من هذه الإطلالة التى تبرز بوضوح الهاجس الذى رصد حياته من أجله.

فها هو ابن شداد يسير إلى جانبه على الساحل قاصدين « عكا » فى يوم شتائى من سنة ٥٨٤هـ بين هياج البحر حتى بدا لشداد كالجبال. فمدينته

(١) ابن جبير الأندلسى ( الرحالة ) : رحلة ابن جبير ص٢٤٣.

«الموصل» خلو من البحر، بل يخترقها نهر دجلة، لذا فقد هابه حتى خيل إليه: «لو قال لى قائل إن جزت فى البحر ميلا واحداً ملكتك الدنيا، لما كنت أفعل»[١]. ومن أحلامه وتصوراته الغارق فيها، يوقظه صوت صلاح الدين:

-أما أحكى لك شيئًا فى نفسى؟.. إنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسمت البلاد، وأوصيت، وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائره واتبعتهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله، أو أموت»[٢]..

إن جوانحه الموارة بكل هذا الحس الدينى حفى بصاحبها أن تؤلف فيه عشرات الكتب والرسائل إعجابًا وإشادة ووفاء.

## تحركه الذاتى فى الموقع:

الراصد أسلوب سلوكه الحربى لا يعدم تشربه بروح سلفه نور الدين، فقد عايشه كأحد أشجع قواده، غير أن صلاح الدين فاقه فى التسامح والليونة.

وهو فى تعامله الحربى يبدو سريع المغادرة لا يصمد طويلاً أمام مدن استعصت عليه، بل يتركها -بحسب تصوره- كسبًا للوقت لمعالجة مدينة أخرى «هذه كانت عادته متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه، ومن حصاره، فرحل عنه»[٣].

وقد استخدم نشاطه بأداء عال خدمة للمعركة، فالنجاح بمنظوره أن يكون جنديًا عاملاً قبل أن يغدو قائداً آمراً. وعليه بدراسة الموقع ورصد منافذه ومعالجة

---

(١، ٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ص١٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ١٦٠.

الأمر بنفسه. ففي فتح القدس «بقى صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله، لأنه فى غاية الحصانة والامتناع»(١).

وفى هدمه لعسقلان سنة ٥٨٦هـ «لعجزه عن حفظها»(٢) بعد أن لاح فى الأفق أن «العسكر الغريب مل الإقامة وأبدى السآمة»(٣) فهدمها وإن شق عليه حزن الناس وبكاؤهم عليها «فلقد أصيب الإسلام بعروسه»(٤). ومن واقع ضغوط معاناته المريرة لحتمية الهدم. رأى أن فقد أولاده أحب إليه من هدمها. على أنه كان سريع التحرك خلال هدمها خوفًا من مفاجآت الصليبيين، حتى أجهده العمل إلى درجة «امتنع بسببه عن الركوب والغداء يومين»(٥).

ورغم صيامه رمضان فقد كان ينأى عن الركون إلى الآخرين، أو تفويضهم ما دام قادراً، ففى حصاره «صفد» شتاء سنة ٥٨٤ هـ - ١١٨٨م وضمن أجواء قارسة ممطرة أحالت الأرض وحولا، لم يمنعه ذلك من «تعيين خمسة مواضع للمجانيق قائلاً: «ما ننام حتى تنصب الخمسة»(٦).

وكان من عادته فى الحرب مراقبة العدو بنفسه «فقد كان كل صباح يسير إليهم، ويشرف عليهم، ويتعرض لهم» راصداً بنفسه قدرات العدو مستكشفًا مواقع تحصناته.

وبتواضعه الجم كان كل صباح «ينقل الصخرة على قربوس سرجه»(٧) لتحصين سور القدس الجديد والصخرة المقدسة حتى اقتدى به القواد والأمراء فنقلوا معه.

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ١٠/١٥٥.

(٢) المقريزى: السلوك: ١/١٠٦.

(٣، ٤) العماد الكاتب: الفتح القسى ٢٦٠، ٥٥١.

(٥، ٦) ابن شداد: النوادر السلطانية ص١٨٠، ٧٨.

(٧) العماد الكاتب: الفتح القسى: ٥٨٢.

وامتدت حركته السريعة فى تطويع أيما إمكانات متاحة من شأنها العمل كوكالات أنباء لنقل الأخبار بسرعة، فبرًا «سير الجواسيس والمخبرين حتى تواصلت الأنباء بقوة»(١). كذلك استغل البحر كى يتمكن العوامون من اختراق المدن الساحلية. وجوًا نقل له «الحمام» الرسائل العديدة خدمة للمعركة.

كما جعل له عيونًا ترصد تحركات الصليبيين من أبناء جلدتهم، حيث نقلت زوجة الأمير «بوهيموند» الثالث تحركات القطعات الصليبية وأخبارها الخفية «وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً»(٢).

وهذا امبراطور بيزنطة إسحق الثانى (إنجليوس) يكتب إليه بتحركات الحملة الصليبية الثالثة إلى جانب ما يرده من المسلمين المتاخمين لهم كالسلطان السلجوقى قلج أرسلان سنة ٥٨٥هـ - ١١٨٩م.

## سلوكه الحربى.. بين السلب والإيجاب:

لا يذكر القائد المجاهد صلاح الدين إلا وتسبق سماحته ورحمته وشهامته ومروءته النادرة، أمجاده العسكرية، فهى طبيعته حتى وصفه الأعداء «بأنه رحيم القلب»(٣) وطيبته هذه التى أرادها أداة لكرامة الإنسان بعيداً عن القهر وسفك الدماء أو إذلال العدو والثأر منه خلال حرب الاسترداد، ضيع منه أكثر من فرصة طيبة كان بالإمكان إضافتها نصراً، أو تجنبها خسارة، حتى أدت إلى ظلمه، تاريخيًا، علاوة على استغلال الأمراء المسلمين طيبته لحسن ظنه.

هذه الجوانب جعلته مثار لوم المؤرخين وخاصة ابن الأثير، ففى حصاره صور -

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل: ١٠/ ١٧٣.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية ص١٤٥.

كمثال- نجده لا يخفف غيظه وتحامله وحسرته عند انصراف صلاح الدين عنها سنة ٥٨٣ هـ، الأمر الذى زاد من شوكة الأعداء وكان السبب فى صلح الرملة. بل جعله المسئول أيضًا عن تحصينها وملئها بجموع الصليبيين «ولم يكن لأحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين فإنه هو الذى جهز جنود الفرنج وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك -كما سبق ذكره- وكان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور»[1] إضافة إلى التجار الصليبيين الذين كان لهم أثر واضح فى حفظ المدينة واستنجادهم بقطعات صليبية وردت عن طريق الحملات من أوربا «فوعدوهم بالنصرة. وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها»[2].

الواقع أن القائد الذى استطاع أن يقفز من نصر إلى نصر حتى حرر القدس، لا يكون وحده موضع ملامة حيال خطأ لا شك كان جسيما لما تبع حصار صور، فالقيادة الشجاعة لا تحقق نصراً بجيش لا توحدهم كلمة!.. فحين استشار أمراءه «اختلفوا وملوا»[3] على أن هذا التبرير لم ير فيه ابن الأثير حجة مقنعة: «ليعلم أن الملك لا ينبغى أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار، فلأن يعجز حازمًا خير له من أن يظفر مفرطًا مضيعًا للحزم، وأعذر له عند الناس»[4].

والواقع أن اختلاف أمرائه سبب له آثاراً مدمرة انسحبت إلى بعض المدن التى فتحها، والملابسات المتداخلة فيها. فمدينة كعسقلان عز عليه تخريبها بعد «أن ندب الناس إلى دخولها وحفظها، فلم يجبه أحد إلى ذلك، وقالوا: إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار، وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا»[5] على أن ما أعقب معركة (أوسوف) التى نكب

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ١٦٠.

(٢، ٣، ٤) المصدر السابق ١٠ / ١٦١.

(٥) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ٢٠٩.

فيها المسلمون أمام وحشية الملك ريتشارد لا تشكل عذراً مقبولاً أخاف أمراءه، فقد عرفوا بشدة البأس واقتحام الصعب. لكن يبدو أن نضوب معين الغنائم أمام الخسارة جعلت أغنياءهم ينأون عن فكرة الحصار والصمود، فاتخذ بعضهم الاستراحة من الشتاء ذريعة وقالوا «ما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يومًا»(١) وإن «كان هذا قول الأغنياء منهم لكأنهم «خافوا أن السلطان يقترض منهم ما ينفقه فى العسكر إذا أقام»(٢).

أما الطائفة الأخرى «الرأى أن نصابر البلد ونضايقه»(٣). وفى هذا الجو بالتوتر وانقسام الكلمة رأى ضرورة الرحيل، فهو أدرى بنفسية جيشه.

وأبدا لا نستطيع أن نأتى على جانب تعامل صلاح الدين فى الحرب إلا وجدنا كل النوافذ مشرعة لكرمه وتسامحه ومروءته التى طالما جلبت عليه المتاعب من أصحابه قبل أعدائه!! . كما أن الموقف الاستغلالى من بعض الأمراء فجر الضغائن العرقية لدى غيرهم من الأمراء وقادة الجيش. ففى فتح القدس «رتب على كل باب أمينا من الأمراء يجمع من أهلها النقود فاستعملوا الخيانة. واقتسم الأمناء الأموال»(٤).

هذه التجاوزات والتحايل -دون علمه -كان من الممكن أن تملئ خزائنه ذهبًا، ولكن «لم يصل إلى خزائنه إلا القليل»(٥). ويبدو أن معظم التجاوزات صادرة عن الأكراد. فقد كان صلاح الدين من الأكراد الراوندية من أعمال أذربيجان «ولد فى تكريت، وانتقل والده من تكريت إلى «الموصل المحروسة» وانتقل ولده معه وأقام بها إلى أن ترعرع»(٦) بعد اتصال والده بعماد الدين زنكى الذى أحسن خدمته عسكريًا فأقطعه بعلبك قبل أن يقيم فى دمشق».

---

(١) عماد الكاتب: الفتح القسى ص٣٢٢.

(٢، ٣) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ١٦١.

(٤، ٥) المصدر السابق ١٠ /٦، ١٠ /١٥٧.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية ص٤.

ولا ريب جاء استغلال بعض أمرائه فرص تحقيق ربح غير مشروع كان سببًا قويًا لتفجير الصراع العرقى، على أن هذه الضغائن المكبوته لم تكن وليدة اليوم، فرغم مظلة الإسلام يبقى العنصر مدخلاً للعصبية، ولكنه يتأثر بمدى الوازع الدينى وسياسة القائد، ولقد سبقت وقعات كثيرة بين الترك والأكراد بأرض نصيبين وغيرها وقتل من الفئتين خلق عظيم»[1].

بل إن القائد سيف الدين ابن المشطوب يستنكر موقف ولده فيعنفه حين رآه مظفور الشعر كالأتراك فقال: «ما للأكراد فى شعورهم هذا الشعار؟.. فقطع ظفيرته.. وقصر وفرته»[2]. وهذا الصراع بدأ يطفو على السطح. إلى جانب إفرازات الحرب وما صاحب من تعثر الانتصارات ونضوب معين الغنائم بالنسبة للقواد المنتفعين، لذا فحين جمعهم فى القدس وحرضهم على القتال «سمع موافقتهم حتى إذا خلا الأتراك مع أنفسهم ذكر قاضيه الذى حضر المجلس «وأنكروا علينا موافقتنا الحصار»[3].

وكان مما قالوه فى الرسالة «إن أردت أن تقيم فتكون معنا أنت أو بعض أهلك، وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك والأتراك كذلك»[4] ويبدو أنها وسيلتهم للتهرب، وإلا لكان صلاح الدين أطاعهم، وخاصة إذا تعلق الأمر بحفظ القدس. ويصف قاضيه تلك الليلة الحزينة: «وكان عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال فشقت عليه هذه الرسالة»[5] ثم «لما قارب الصبح أشفقت عليه وخاطبته فى أن يستريح»[6]. فلما «جاء وقت الجمعة صليت إلى جانبه فى الأقصى، فصلى ركعتين ورأيته ساجداً وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه»[7].

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ٥٧.

(٢) العماد الكاتب: الفتح القسى ص٥٨٨.

(٣، ٤، ٥، ٦) ابن شداد: النوادر السلطانية ص٢١٣.

(٧) المصدر السابق ٢١٤.

هذا القائد والأب الذى لم يبك ولده الميت حتى « سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه »[١].

وصلاح الدين « هذا الذى هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله، أهله وأولاده ووطنه.. وقنع فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة.. هذا القائد الغيور الذى يشكو ربه بدموع سخية غيرة على مدن المسلمين، ترانا نقوى على لومه؟!

وأحسب أن طعنات أمراء جيشه جاءت أنكى وقعًا فى نفسه من غدر الأعداء، الذين لقنهم دروسًا برد طعناتهم أشد منها تارة.. وبدمائة خلقه أخرى؛ ففى سنة ٥٨٤ هـ-١١٨٩م، وقف صلاح الدين يحاصر شقيف « أرنون » حتى إذا أوشك على أخذه سارع صاحبه رينالد، وصفته المصادر بأنه من أعظم الناس دهاء ومكرًا، وكان ملمًا باللغة العربية، يصف ابن شداد: « وما أحسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان » فأكرم وفادته، وأظهر رينالد أنه مملوكه »[٢] وسيسلمه الحصن ضمن شروط سهلة. ذكر عماد الكاتب: « وكان يبتاع من سوق معسكرنا الميرة ويكثر الذخيرة وقد صدقنا كذبه »[٣]!!

ويبدو أن سلامة طوية صلاح الدين جعلته يصدقه، فاستمر رينالد بمشاغلته عبر أساليب خبيثة منها ترديده على صلاح الدين « يناظره فى دينه ونناظره فى بطلانه، كان حسن المجاورة متأدبًا فى كلامه »[٣] بيد أن زيفه لم يدم طويلاً حتى استعاد صلاح الدين الحصن!!

---

(١، ٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ٢٠، ٨٠.

(٣) المصدر السابق: ص٨٠.

## تسامح من موقع القوة:

لم يكن تسامحه يعنى التراخى وغياب البأس تجاه العدو، فكما أن تسامحه يصدر من موقع القوة، كذلك لجوؤه إلى الحزم ما دعت الضرورة!!

ففى أعقاب صلح يافا تخوف الملك ريتشارد من نقض الصلح بعد توافد أعداد غفيرة من المسيحيين كحجاج، مما جعله يسأل صلاح الدين منع الزوار «إلا بعد حضور علامة من جانبه»(١) الأمر الذى أخاف الحجاج. بيد أن صلاح الدين أكرمهم وقدم لهم الأطعمة وأجابه:

«إن قومًا قد وصلوا إلى هذا المكان الشريف فلا أستحل منعهم»(٢) كذلك «وما يقتضى كرمنا أن نرد الوفود»(٣).

وهكذا علم ملوك الغرب دروسًا فى الشهامة وكرم الضيافة واحترام الشعائر الدينية.

## والحزم عند الضرورة:

كما يتخذ موقفًا صلبًا كان من الأهمية بمكان وعدم التهاون فيه ذرة رغم ضغوط الفرنسيين وتشددهم «إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه»(٤) إلى جانب موقف الانكليز أيضًا مما اضطر ريتشارد المعروف بصلابته وعنهجيته لاستجدائه ضمن رسالة شفوية بعث بها إليه، تعلن توسله: «إلى كم أطرح نفسى على السلطان وهو لا يقبلنى» وجاء فيها «وقل له بالله عليك أجب سؤالى فى الصلح فهذا الأمر لابد له من آخر وقد هلكت بلادى وراء البحر»(٥) كما طلب من الحاجب يوسف أن يقول لصلاح الدين: «إن ملك الإنكتار يقول: إنى راغب فى مودتك وصداقتك»(٦).

(١، ٢) ابن شداد: النوادر السلطانية: ٢٣٨.

(٣) عماد الكاتب: الفتح القسى: ٦١٠.

(٤، ٥، ٦) ابن شداد: النوادر السلطانية: ٢١٤، ٢٢٧، ٢١٦.

ولو كان الأمر في غير هذا المجال لهان الأمر، لكنها القدس! . . لذا وصله الرد: «فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين»[1] وأما المدن الإسلامية «فهى أيضًا لنا فى الأصل واستيلاؤكم كان طارئًا عليها، لضعف من كان فيها من المسلمين فى ذلك الوقت، وما يقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائمًا»[2].

وفى بنود صلح الرملة تمنى أن يفسخ معاهدة الصلح لولا أن وجد من جنده ما وجده الإسكندر المقدونى الذى دوخ العالم بانتصاراته وتقدمه. فللجيش سلطان حتى مع القادة العظام درجة كان من آثارها إذعان الإسكندر لوقف زحوفه فى العالم أمام تذمر جيشه لطول الحرب وحنين العودة إلى البلاد.

ومن واقع حكمة رؤاه العسكرية اتخاذه موقفًا متشددًا فى صلح يافا كما صرح لابن شداد: «متى صالحناهم لم نؤمن غائلتهم، فإنى لو حدث لى حادث الموت، ما تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الفرنج. والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل، أو يأتينا الموت»[3]. حتى لكأن نفسه تردد بأسى محض: ليت قومى يعلمون ذلك.

على أنه أفشل الصلح بعد ذلك متحديًا الصليبيين من تحقيق مآربهم فوق التراب العربى.

**موقف آخر:**

كذلك موقفه الصلب مخيبًا آمال ريتشارد فى العودة عن شروط اتفاقية عكا، ومنها تبادل الأسرى، وتسليم صليب الصلبوت الذى استولى عليه عند فتح

---

(١، ٢) ابن شداد: النوادر السلطانية: ١٧٨.

(٣) المصدر السابق: ١٩٦.

القدس، وهو من المكانة الدينية كما وصف ابن شداد المشهد «فأحضر صليب الصلبوت وشاهدوه وعظموه ورموا نفوسهم إلى الأرض ومرغوا وجوههم على التراب وخضعوا خضوعًا عظيمًا لم ير مثله»(١) لكنه أمام غدر ووحشية ريتشارد ورجاله، وقد أحضروا أسرى المسلمين بعد تأمينهم «حملوا عليهم حملة واحدة فقتلوا فيها بأجمعهم فى سبيل الله صبرًا واليزك الإسلامى ينظر إليهم»(٢) ولا يفعل شيئًا لعجزه عن اقتحام المدينة. وأمام هذا الغدر تراجع صلاح الدين عن شروط التسليم فحرمهم صليب الصلبوت وأعاد الأسرى الصليبيين إلى دمشق، مكرمين لم ينكل بأحد منهم كما فعل ريتشارد. فكان بذلك حقًا كما وصفه الشاعر:

ملكنا فكان العدل منا سجية
فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأسارى وطالما
غدونا على الأسرى نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا
فكل إناء بالذى فيه ينضح

وموقف ثالث، يصب فى تسامحه، ففى الوقت الذى قبل شفاعة ملكات وأميرات صليبيات فى ذويهن رفض شفاعة زوجة أرناط - صاحب الكرك الذى قتله صلاح الدين بعد انتصاره فى حطين - فى ولدها المأسور حيث قال لها: «إذا

---

(١) المصدر السابق: ١٦٣.

(٢) المقريزى: السلوك: ١/١٠٥.

سلمت الكرك أطلقته»[١]، بيد أنها فوجئت برفض الصليبيين ذلك، عندها أطلقه صلاح الدين بعد ذلك منًّا ورقة لأمومتها!

وهذه شهادة أحد القادة الصليبيين فى أعقاب هدنة صلاح الدين الأخيرة سنة ٥٨٨ هـ وقبل عودته إلى دمشق، إذ قال له باليان: «ما عمل أحد فى الإسلام ما عملت، ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة، فإننا أحصينا من خرج إلينا فى البحر من المقاتلة، فكانوا ستمائة ألف رجل، ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد، بعضهم قتلتهم أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق»[٢].

وفى طبرية عمد إلى جميع الأسرى الداوية والاسبتارية المعروفين بقسوتهم، بضرب أعناقهم مفضلاً قتلهم على استرقاقهم»[٣].

إن لين السلطان القائد صلاح الدين.. وشدته، تنبعان من موقف!!!

**صور إنسانية:**

وكما صنع صلاح الدين نسيج النصر من خيوط الشجاعة والإيمان، فقد حاكها أيضًا من غزول العطف والعفو عند المقدرة ما أمكن.

لقد نكث الملك ريتشارد بعهده مراراً مع المسلمين ونكل فيهم، بيد أن ما فعله لم يثن الناصر صلاح الدين عن مساعدته خلال مرضه وساعات ضعفه وحاجته «هذا ورسل الإنكتار لا تنقطع فى طلب الفاكهة والثلج، وأوقع الله عليه فى مرضه شهوة الكمثرى والخوخ وكان السلطان يمده بذلك»[٤].

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٥٧، ١٠/٢١٨.

(٣) عماد الكاتب: الفتح القسى ص٨٦.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية ٢٣٢.

لقد أعجب بشجاعة عدوه ريتشارد الملقب « قلب الأسد » فقد كان الناصر صلاح الدين يفصل ما بين السلم والحرب خلال تعامله إزاء الأعداء . حتى لنجده يكسر حدة السأم أبان حصار عكا الطويل إذ كثيراً ما يجتمع المعسكر الإسلامى والصليبى فى جلسات سمر يتبادلان خلالها الأحاديث « وربما غنى البعض، ورقص البعض لطول المعاشرة »[1] .

أما الصبية فكانوا يتصارعون، على أن الحرب لو قامت من غدها، لكان من سميره بالأمس . . قتيله اليوم »!!

والغوص فى سيرة هذا القائد الفذ تجعلنا مبهورين بلفتاته الإنسانية ليست الجماعية فحسب بل الفردية منها تجاه الأعداء، إذ لا يمكن إغفال موقفه من تلك الأم الصليبية وقد سرق اللصوص الأعراب رضيعها فى أعقاب معركة حطين، فلم يهدأ حتى عثروا عليه مباعًا فى السوق « ولم يزل واقفًا حتى أُحضر الطفل » فدفع للمشترى ثمنًا مجزيًا ثم سلمه إلى أمه وأركبها فرسا « وشيح معها من أوصلها إلى موضعها »[2] من المعسكر الصليبى .

وفى سنة ١١٨٧م حين فتح القدس، نراه يعفو عن « باليان »، كما أرسل حرسًا لحماية زوجته الملكة ماريا . وحين شاهدها تغادر إلى صور مع أطفالها « بكى صلاح الدين عندما شاهد هؤلاء الأطفال ورثة المجد الغابر يجتازون معسكره إلى المنفى »[3] .

---

( ١ ) ابن شداد : النوادر السلطانية ٩٢ .

( ٢ ) العماد الكاتب : ٤٨ .

( ٣ ) رونسمان : تاريخ الحروب الصليبية ٢ / ٧٤٨ .

## ومع.. بطرك!

كما لم يعترض مغادرة بطرك جشع لما غادر القدس بعد فتحها ومعه الذهب والأموال الطائلة من بيعه أحجار صخرة القدس، وتذكارات من كنيسة القيامة بل «وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العسجد»[1] حتى أثار مسلكه احتجاج بعض المسلمين منهم المؤرخ عماد الكاتب: «فقلت للسلطان هذه أموال وافرة.. فلا نتركها في أيدى الفجار»[2] يعنى البطرك. على أن صلاح الدين بمبدئه الثابت أجاب: «لا أغدر به»[3].

وكان قد أمنه، ولم يأخذ منه سوى عشرة دنانير أسوة بغيره. رغم أن هذا البطرك وجد من أبناء بلدته من لا يقدر على دفع القطيعة فلم يساعدهم مما جعل الناصر يساعد «الفقراء بثلاثين ألف دينار»[4] و«بذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا بحسب حالته، والواقع أن رحمته وعطفه كانا على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين في الحملة الأولى»[5] ولا غرو أن طبيعته السمحاء سر عبقريته!. فمن السهولة على المرء أن يظفر بأعدائه وينتصر لنفسه ولغيره، ولكن من الصعب جداً أن يطلق ويعفو ويسامح.. ويتناسى أيضاً.. من موقع القوة!!!

لقد كره الانتقام بجميع أشكاله، وقتل النفس دونما حق، ولقد حاول بذر شجرة الرأفة في نفوس أبنائه الصغار. فحين استأذنوه في قتل أسير صليبي رفض بشدة. يقول ابن شداد الذى كان حاجبهم بما طلبوه: «فأجاب: لئلا يعتادوا من

---

(١، ٢) العماد الكاتب: ١٣٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٥٧.

(٤) المقريزى: السلوك ١/٩٦.

(٥) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ٢/٧٥٣.

الصغر على سفك الدماء ويهون عليهم ذلك، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر»[1].

تلك لمحة من تعامله العسكرى.

***

**ليت صناع مذابح التطهير العرقى فى عصرنا، يقفون على صورة واحدة من إنسانيته.**

## صلاح الدين.. والجانب الدينى:

ليس الدين سلوكا فرديًا يؤديه القائد فحسب، بل ينقله إلى أرض المعركة يتخذه سلاحًا فاعلاً وأداة روحية مؤثرة فى صنع النصر.

لقد مضى الناصر صلاح الدين على نهج الصحابة الكرام حتى غدا بحق فى زمرة من كانوا رهبانا فى الليل.. فرسانا فى النهار. لقد اتخذ من قراءة القرآن أنيسًا يقطع بعض ليله. كما كان يسمعه من مقرئ يشترط فيه أن يكون عالمًا بعلم القرآن متقنا لحفظه، وهى لاشك التفاتة ذكية من قائد نحو جنده لشد أسماعهم نحو آى القرآن الكريم فى محاولة تقويم لسانهم، فمعظمهم أعاجم لا يحسنون العربية. وقد رتب فى قبة الصخرة خلال فتحه القدس «إماما من أحسن القراء تلاوة.. وأنداهم صوتًا.. وأسماهم فى الديانة.. وأعرفهم بالقراءات السبع بل والعشر»[2] ليحملهم على الخشوع ويشحنهم بمعانيه الآسرة إذكاء للمعركة وسعيًا لجزاء الآخرة.

---

(1) ابن شداد: النوادر السلطانية ١٤٢، ٧.

(2) العماد الكاتب ص١٤١.

**اهتمامه بالحديث :**

شكل الحديث جانبًا هاما فى سلوكه حربًا وسلما، ورغم مشاغله نراه يعنى بدراسته من شيوخه، يذكر المقريزى «وسمع الحديث من أبى الحسن بن برى النحوى، وأبى الفتح الصابونى، وأبى الطاهر السلفى، وابن عوف وجماعة غيرهم»(١) ويؤكد ابن الأثير هذا الجانب «كان عنده علم ومعرفة، وسمع الحديث وأسمعه»(٢).

كان يعمد إلى خيمة يتخذها لنومه وتعبده ضمن أجواء روحانية يتهجد، وأحيانا يخلو بقاضى عسكره فيسمعه من كتاب «مختصر تصنيف الرازى»(٣) وغيره. وليست العبرة عند صلاح أن يقرأ كثيراً فى الحديث ويأخذه عن شيوخه الثقات، إنما ليحمله ويترجمه سلوكًا ينفع المسلمين لإثارة روح البذل والفداء.

ولاشك أن القائد قدوة لجنده يتأثرون به، لذا لا نستغرب نقله الأجواء الدينية إلى قلب المعركة حيث «قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفين وهو على ظهر فرسه»(٤).

لقد جنى ثمرته سلوكًا غربل ما يعلق فى النفس من أهواء وفتن ونزغ الشيطان. ورغم ما كان يعرف عن المنجمين من قوة تأثيرهم على العديد من الشخصيات المرموقة والمؤثرة، لكنه كان كالخليفة المعتصم يوم سفه أحلامهم باقتحامه أسوار عمورية المنيعة مطوحًا بالروم كما طوح بنبوءات المنجمين!!

---

(١) المقريزى: السلوك ١ /١١٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠ /٢٢٥.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية: ٢١.

(٤) المقريزى: السلوك ١ /١١٣.

وصلاح الدين أيضًا بحصافته وثقافته الدينية تحدى زيف وادعاء المنجمين وقد حذروه: «تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة. فقال: رضيت أن أفتحه وأعمى، فافتتحها بعد أن كانت بأيدى الفرنج أكثر من تسعين سنة»(١) وأبطل تخرصات المنجمين؛ كان يصغي فقط لنداء الله ورسوله، لذا فقد كان يتحرى الخروج فى حملاته «بعد صلاة الجمعة اغتناما لدعاء خطباء المسلمين على منابرهم»(٢).

وفى غير أوقات الحرب، رأى تقديم الدين بإطار النصح لمعالجة كل ما يخرج عن الشرع باللين والحكمة «رأى يومًا العماد الكاتب يكتب من دواة محلاة بالفضة. فأنكرها»(٣) وكشف له عن جانب حرقها برفق، فلم يعد يكتب بها.

وجعل من تعاليم القرآن والحديث منبراً للتربية الخلقية السليمة، حتى لنسمعه يلقن ابنه وصايا يمكن اعتبارها المدخل الحقيقى للسلام مع النفس.. والسلام مع الآخرين «.. وأحذرك من الدماء، والدخول فيها، والتقلد لها، فإن الدم لا ينام.. ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقى أحداً، واحذر ما بينك وبين الناس فإن الله لا يغفر إلا برضاهم»(٤).

**عدله:**

لا شك أن قائداً يمتلك هذه السجايا قمين بعقد مجلس قضاء كل اثنين وخمسين ينتدب فيه الفقهاء والقضاة والعلماء لعرض شكاوى، الأولوية فيها للطاعنين والضعفاء «وكان يفعل ذلك سفراً وحضرا»(٥). ومن خلال فطرته

---

(١) العماد الحنبلى: شذرات الذهب: جـ٢ ق٢ ص٢٧٥.

(٢) العماد الكاتب: الفتح القسى ٥٨٥.

(٣) المقريزى: السلوك ١/١١٣.

(٤، ٥) ابن شداد: النوادر السلطانية ٢٤١، ١١.

السليمة يرى أن إقامة العدالة تلزم الإنسان أيا كان بتطبيقها ومراعاة الظرف. فعندما فتح القدس ٥٨٣هـ – ١١٨٧م كاد أن يبطش بأهلها متذكرًا فواجع سنة ٤٩٢ هـ وسيوف الصليبيين التى لم ترحم حتى النسوة والأطفال وهم يلوذون بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة فرار الموت!.. لكنه صلاح الدين –إضافة إلى تهديد باليان– كان حلمه يسبق غضبه فلم يملك سوى تأمينهم. بل وأفراد للنساء وأولادهم معاملة خاصة غيرة وشهامة ورحمة. فهذه امرأة أحد الملوك وقد ترهبت وأقامت به، تستأذنه وتخرج بجيش من الجوارى والخدم والعبيد «ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم»[١].

وكذلك ملكة بيت المقدس نفسها حيث استأذنته بالإقامة مع زوجها السجين بقلعة نابلس فأذن لها. وبمثل هذا تتجلى روعة إنسانيته: «لئن أخطئ فى العفو أحب إلى من أن أصيب فى العقوبة»!!!

لكن العفو محال عندما تنتهك حرمات الله، كموقفه من أرناط.. فأرناط الذى أسره نور الدين لمدة عشر سنوات، وبعد وفاته أطلقه «كمشتكين» ليستعمله ورقة ضد صلاح الدين. لم يزد فى قول ابن شداد عن أمير أسير «بيع فى حلب»[٢] زمن نور الدين. ويكفى أن زعماء الصليبية ضاقوا به ذرعًا لنزقه. وكان أشنع أعماله محاولته العبث بمقدسات ومشاعر المسلمين حين توجه سنة ٥٧٨هـ يريد غزو المدينة المنورة،واستطاع فى طريقه –رغم الهدنة مع المسلمين– من نهب قافلة قادمة من مصر.

ثم استولى على مراكب وصلت اليمن تريد الحرمين. ومنع الناس من الماء فى

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٥٧.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية: ٤٢.

بعض تلك الجهات بمساعدة مرتزقته و« أحدثوا حوادث لم يسمع فى الإسلام بمثلها »[1] . ولما ذهبت جهود صلاح الدين فى استرجاع القافلة برجالها، أجابه أرناط بوقاحة:

« قولوا لمحمد كم أن يخلصكم »[2] !!!

وهنا « فإذا جاز للمسلمين أن يصبروا على قيام دولة من الكفار فإنهم لا يطيقون قيام دولة من اللصوص »[3] . عندها « نذر متى أظفره الله به قتله بنفسه »[4] .

وعند أسره فى معركة حطين، عرض عليه الإسلام فأبى . عندها قال له : « ها أنا أنتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام »[5] ورفع سيفه فقتله . فما كان لمثل صلاح الدين التهاون فى حد من حدود الله عز وجل .

وفى هذا الموقف تحضرنى أبيات الشاعر:

لم يكن للصليب خصمًا ولكن
حاملوه يوم الوغى خصماؤه
شهروا السيف والمسيح برئ
من سيوف يستلها أولياؤه

وهذا نموذج آخر يصب فى مجرى عدالته بعيداً عن أخذ الناس بجريرة غيرهم . ففى كمين أعده الناصر صلاح الدين فى حصاره شمال عكا، أسفر عن

---

( ١ ) المقريزى : السلوك : ١ / ٧٩ .

( ٢ ) ابن شداد : ص٦٤ .

( ٣ ) آرنست باركر: الحروب الصليبية : ص٧١ دار النهضة العربية : ( بيروت ) .

( ٥ ) ابن شداد : النوادر السلطانية : ٦٤ .

أسر جند من المعسكر الإنجليزى، وشخصيات بارزة، فسر كثيراً، ورغم وحشية ريتشارد بانتهاكه حقوق الأسرى، بيد أن القائد العادل حفظ فيهم كرامة البشر. فأطعمهم، وكان الجو قارس البرودة فأمر لكل واحد « فروة » كساء يدفئه، ثم حملهم إلى دمشق مكرمين رغم فشل مفاوضاته مع ريتشارد فى تبادل الأسرى. وأذن لهم فى أن يراسلوا صاحبهم، وأن يحضر لهم من معسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها »(١).

## ويقيم الشعائر.. خارج الحدود:

وأحسب من أعماله الرائعة حقًا نقل شعائر المسلمين حتى أرض الأعداء.. بل ضمن أعرق عواصمهم يومها « القسطنطينية ». لكم كان حكيماً فى حلفه مع امبراطورها إسحق الثانى الذى تقرب إليه برعاية المسلمين هناك وإصلاح مسجدهم، وفى فتح القدس « جاءته تهنئة من الروم »(٢).

هذه الصلة الطيبة تركت صلاح الدين يتحرك فيرسل سنة ٥٨٥هـ - ١١٨٩م بعثة لنشر الدين الإسلامى أحيطت بحفاوة الإمبراطور وفيها « المنبر وجمع من المؤذنين والقراء.. وكان يوم دخولهم يوما عظيماً من أيام الإسلام »(٣). وأقيمت الخطبة بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين الله.

وعلى التراب الإسلامى أقام السلطان الورع العديد من المشاريع الإسلامية « وعمل المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك من مصالح المسلمين ووقف عليها الوقوف »(٤).

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ١٣٧.

(٢) المقريزى: السلوك ١/٩٧.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية ١١٦.

(٤) المقريزى: السلوك ١/١٠٤.

ولكون صلاح الدين عاش في قلوب معاصريه من المسلمين. فقد شق عليهم موته، وقد وصف ابن العماد طرفًا من مشاعرهم فقال:

«وارتفعت الأصوات فى البلد بالبكاء وعظم الضجيج حتى إن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتًا واحداً»(١).

وعند ابن الأثير:

«لم يخلف فى خزائنه غير دينار واحد صورى وأربعين درهمًا ناصرية»(٢).

أما العماد الكاتب «مات بموته رجاء الرجال»(٣).

أما ابن شداد «ماتت محاسن الأخلاق بموته»(٤).

وصدق فيه رثاء الشاعر:

لا تحسبوه مات شخصًا واحداً

قد عمّ كل العالمين مماته

يا داعيا للدين حين تمكنت

منه الذئاب وأسلمته رعاته

أرضيت تحت الأرض يا من لم يزل

فوق السماء عليّة درجاته

---

(١) العماد الحنبلى: شذرات الذهب جـ٢ ق٢ ص٢٩٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٢٢٥.

(٣) العماد الكاتب ٦٢٧.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية: ١٨٨.

## ومع الأميرين بوهيموند.. وبلدوين:

برغم المرور السريع على بعض الجوانب العسكرية والدينية لدى العادل نور الدين، والناصر صلاح الدين، فإن لنا وقفة خاطفة عند هاتين المحطتين مع الأمير بوهيموند الأول، والأمير بلدوين الأول. وهما أشهر أمراء وقواد الحملة الصليبية الأولى.

## بوهيموند.. والجانب الديني:

وبوهيموند هذا الشاب الذى لفظته الحملة الصليبية الأولى خرج سنة ١٠٩٧م حتى وفاته سنة ١١١٤م كان التحاقه أصلاً بدافع مطامع ذاتية، سيما وقد رأى الفرنسيين المتحمسين للحرب يتدفقون إلى إيطاليا بتأثير وعود البابا «أوربان» نحو بلاد تنتج اللبن والعسل!! فقد كان فى مدينة «مالفى» من إيطاليا، وفى حركة ذكية «خلع بوهيموند رداءه الأحمر الثمين ومزقه قطعًا صغيرة جعل منها صلبانا لقادته، وبادر أتباعه بالانضواء تحت لوائه»[١].

وفى الحقيقة لم نعثر له على أية خدمات فى الجانب الدينى، مما ينفى تحمسه للحرب بدافع دينى. ولكن باستثناء حجه -بعد تقاعس- سنة ١٠٩٩م، ورغبته بمساعدة مواطنه البيزى الأسقف دايمبرت لبطرقية بيت المقدس لما تحققه لهما من أعراض ومكاسب مادية مغرية ثبتت عند اعتلاء دايمبرت كرسى أسقفية القدس.

لقد طوع الدين خدمة لمآربه وأطماعه الدنيوية فهو وسيلة لا غاية.. وانتسابه إلى الحملة إنما جسر عبر عليه فوق جثث الضحايا وأشلاء الأبرياء». فكان تمامًا كأبيه «روبرت جيسكارد» ذلك المحارب النورمندى الذى وصل جنوب إيطاليا

---

(١) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/٢٢٣.

شابا مغامراً محترفًا السلب والنهب مع أخويه، فاستعان به أمير سالرنو ضد عدوه. واستمر يبيع سيفه لمن يدفع الثمن حتى غدا أميراً على أترانتو سنة ١٠٤٧م ليواصل حربه ضد بيزنطة، كما أنه شارك فى طرد العرب المسلمين من صقلية.

وترسم بوهيموند خطى أبيه، فحين ملك أنطاكية فى ٢ حزيران سنة ١٠٩٨م أخذها بالسيف فذبح أهلها من المسلمين وأبادهم بشكل جماعى، حتى خشى أن يحل الوباء لكثرة الجثث التى بالغ فى ذبحها.

ذكر المؤرخ وليم الصورى، أنه فى أثناء حوادث حصار أنطاكية «أمر بوهيموند النورمانى بتعايق بعض الأسرى المسلمين كما لو كان سيشويهم. وأمر رجاله بأن يجيبوا إذا سألهم أحد عن هذا بأنهم منذ ذلك الحين فصاعداً، وبناء على أوامر قادتهم سوف يأكلون أجساد الجواسيس الذين يتم القبض عليهم. وإذا انتشرت هذه الشائعة أصيب الجواسيس الموجودون فى المعسكر بالهلع»(١).

وقد كان ممن يعذر لو خرج بروحية أصحاب «جيش المسيح» حاملين أحقادهم الصليبية، لكن الدين لديه أمر هامشى من خلال حياته، وسيرته فى الأرض المقدسة.

فهو فى سوح الحرب كما فى سوح السلام.. ذلك النورماندى سليل أسرة جيسكارد الشهيرة بغوغائيتها وافتقارها أخلاق فرسان العصور الوسطى.

ورغم خروجه تحت غطاء الدين فإن أول من اغتصب حقوق إخوان الجهاد والدين، حين طرد جميع الأمراء الذين رافقوه مستأثرا بمدينة أنطاكية ذات التاريخ العريق، على أنه لم ينج من محاصرة الأتراك له سنة ٥٨٤ هـ بعد استيلائه

---

(١) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ص١٢٧ هامش ٦ فصل الثانى.

عليها. ويكشف ابن الأثير الروح الخلقية لهذا الأمير وصحبه في معاملة الجند «وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها اثنى عشر يومًا ليس لهم ما يأكلون، وتقوى الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر»(١).

كما شهد بوهيموند رجاله يتضورون جوعًا ويتساقطون موتى تحت أسوارها. ولا نعثر في سجله التاريخي على نبل الوفاء كما عند الفرسان، فبإمكانيته بيع الصداقة نقدا.. ففي تعامله الإنساني أبى استبدال أمير سجين بآخر لإطلاقهما فقد فضل المال على حريتهما. وحين أطلق المسلمون سراحه سنة ٤٩٥ هـ لقاء فدية يؤديها، سرعان ما عمد إلى أسلوب الأفاقين لتحصيل المبلغ، فهجم على بعض مدنهم الإسلامية «يطالبهم بالأتاوة»(٢).

## بوهيموند.. التعامل العسكري:

على الصعيد العسكري بلاشك كان بوهيموند رجلها.. فهو بأصوله النورماندية ذات الإرث العريق في عالم الحروب، يمتاز بالشجاعة الفذة والصبر والجلد إضافة لكونه من طراز يحسن الزعامة وإدارة دفة الجيش إلى جانب المناورة. وقد بدا هذا واضحًا في إعمال الحيلة بذكاء لإيجاد ثغرة اقتحم من خلالها أنطاكية، وكذلك تمكنه من القائد البيزنطي لمغادرتها والاستئثار بها دون بقية الأمراء طوعًا أو كرهًا. إلى جانب خداعه الإمبراطور البيزنطي ذاته للحيلولة دون تسليمه المدينة بحسب الاتفاقية المعقودة.

شخصية ميكافيلية تحمل في طياتها كمًا هائلاً من الدهاء والمناورة الماكرة، كم تدوس بكل القيم في سبيل أطماعها بعيدة عن الأهداف التي خرجت تحت مسماها. فنراه يقف من الأمير (ريموند دي تولوز) الصنجلي، المعروف بتمسكه

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٧٣، ٩/ ٥٦.

بالقيم الدينية وأول أمير يعلن انضمامه إلى الجيش بمباركة البابا واستشارته فى بعض شئون الحملة. فى خصومة لا هوادة فيها هدفها السبق لامتلاك المدن الإسلامية.

كذلك صراعه الفاشل مع الأمير بلدوين حول عرش بيت القدس.

وفى خبثه لا يخجل من إعلان ولاء التبعية للإمبراطور البيزنطى بخضوع علّه يظفر منه بمنصب القائد الأعلى لقوات الإمبراطور فى الشرق.. ثم ليكون أول من يتنكر لعقد اتفاقية المدن التى يستولى عليها بتسليمها للامبراطور عند سقوطها. بل يتصاعد الموقف حدة ليغادر إلى أوربا فى حملة تستهدف تأليب الرأى العام ضده للإطاحة بعرشه، حتى أثمرت المحاولة بعد فترة، إرسال حملة رابعة أسقطت عاصمة بيزنطة. هذا ومن قبل ارتضى رشاوى الإمبراطور تحت مسمى (هدايا)!!!

وبوهيموند فى الوقت الذى يتحالف مع المسلمين تارة، يتحالف مع البيزنطيين أخرى، ولا يجد حرجًا من التحرك السريع لقتال هاتين الجبهتين فى آن واحد رغم موقع إمارته بينهما؛ كما لا نعثر على أيما أثر طوال فترة تواجده فى الشرق العربى يشير إلى خدمة المسيح أو الكنيسة رغم دعوى خروجه من أجل المسيح.. لكن يبدو أنه ادعى ذلك خدمة لمآربه!!!

## بلدوين.. والسلوك الدينى:

لم يدر فى خلده وقد يمم وجهه نحو الشرق الأوسط مرافقًا لأخيه الأمير (جودفرى) ضمن الحملة الصليبية الأولى ليغدو من أكثر الصليبيين تحمسًا لتقديم خدمات دينية، وفى أكثر من موقع. ومن قبل كانت الحرب فى نظره «.. لا تعدو مجرد مغامرة سياسية وحربية لغزو الشرق»[1] لذا جاءت خدماته بعد

(١) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ص١٣٧.

أن توج كوريث لأخيه على عرش القدس، بملء المدينة بالمسيحيين من شتى الملل والنحل بعد طرد المسلمين.. سكانها الأصليين!

كما عمر بيت المقدس بأيدى الأرمن وهم (المسيحيون الشرقيون) مع إخوانهم اللاتينيين وهم مسيحيو أوربا) عن طريق وحدة الترابط الدينى، فخدم الحجاج وأمن قوافلهم المتجهة إلى القدس. إضافة إلى استخدامه أدوات الحماس الدينى كوسائل نصر فى المعارك. فكان يحمل صليب الصلبوت فى مقدمة الجيش ويعترف بخطاياه، الأمر الذى كان له تأثير عاطفى كبير على الجند!! كما جعل من الخطب الحماسية ظهيراً يشد من عزائمهم ويرفع معنوياتهم، فقد ترك الأسقف أرنوف يلقى موعظته المثيرة بتذكيرهم مرسوم البابا المتعلق بالإبراء والتحلل من الخطايا بالنسبة لشهداء هذه الحروب.

ولقد حقق النصر بهذه الأغراض رغم ضآلة جيشه أمام الجيش الفاطمى الكبير؛ على أن مآثره هذه لم تنبع عن وازع دينى لم يخالطه رياء!! فلقد كان أميراً للرها ولم يقم بخدمة تذكر، بيد أن منصبه كملك لبيت المقدس ألزمه هذا السلوك. فالدين كما يتبادر قد اتخذه معبراً كيما يحقق طموحاته وأهدافه السياسية والعسكرية.

وما أسهل ما يطيح بكل قيم السماء وتعاليم المسيح إذا ما وقف الدين حائلاً دون مصالحه، وبدا هذا جليا فى إغراء رجال الدين عن طريق منحهم امتيازات ورشاوى لتطليق زوجته الأرمنية التى ارتبط بها خلال تواجده فى مدينة الرها إذ كانت ابنة أحد زعمائها، لكنه وقد غدا ملكًا للقدس وبات بحاجة إلى المزيد من المال الذى يفتقده عند هذه الزوجة، فكر فى الزواج من (أديلايد سالونا) كونتيسة صقلية الأرملة ذات الثراء الفاحش، ولم يجد غضاضة فى التخلص من زوجته الأولى إلى حد اتهامها بالزنا وإجبارها على دخول دير القديسة آن؛ ويبدو

أن أمره افتضح بعد تحقيق البابوية معه، فطلق الثانية مكرها خوفًا من اهتزاز عرشه إن أغضب البابوية.

ومثله كان يسهل عليه إحالة صحون المساجد إلى برك دم، هذا ما فعله مع أهالى قيسارية المسلمين حين ملكها سنة ١١٠١م، بل إحراق المدن كما فعل فى الفرما حيث «انتهى إلى الفرما ودخلها وأحرقها، وأحرق جامعها ومساجدها وأبواب البلد وقتل بها رجلا مقعداً وابنته فذبحها على صدره»[١]. حتى لكأن أفعاله سارعت بفضيحته ثم موته بعد فترة قصيرة إثر مرض لم يمهله.

## بلدوين.. التعامل العسكرى:

لا نجده يختلف كثيراً عن باقى أمراء الحملات الصليبية من حيث أطماعهم الشخصية، ففى بداية وصوله ثرى الشرق العربى، آثر الانسلاخ عن الحملة واتخذ وجهة مغايرة تمكنه تحقيق الأطماع المرسومة فى ذهنه.. والمصاحبة لمجيئه.

استولى على (الرها) المعروفة بأغلبية سكانها الأرمن.. وزواجه من إحدى فتياتها مكن له قيادتها من خلال خدمته لصاحبها الذى مات دون وريث، ضمن أجواء غامضة اتهم فيها!! كما أنه تحرك بسرعة لتثبيت زعامته بضم بعض المدن إلى إمارته على الرغم من موقع الرها المحصور بين إمارتين إسلاميتين واسعتين هما الموصل وحلب!!

واجه صراعات قوية من الدولة الفاطمية ما بين سنة ١١٠٢م حتى وفاته سنة ١١١٨م وخاصة معارك الرملة انتهت بتفوقه على الجيش الفاطمى. كما اتخذ فى بعض حروبه الحركة المباغتة، لكن هجومه الخاطف أبعده عن شخصية الملك الحامى لبيت المقدس إلى شخصية تحاكى قطاع الطرق إثر مهاجمته قوافل المسلمين

---

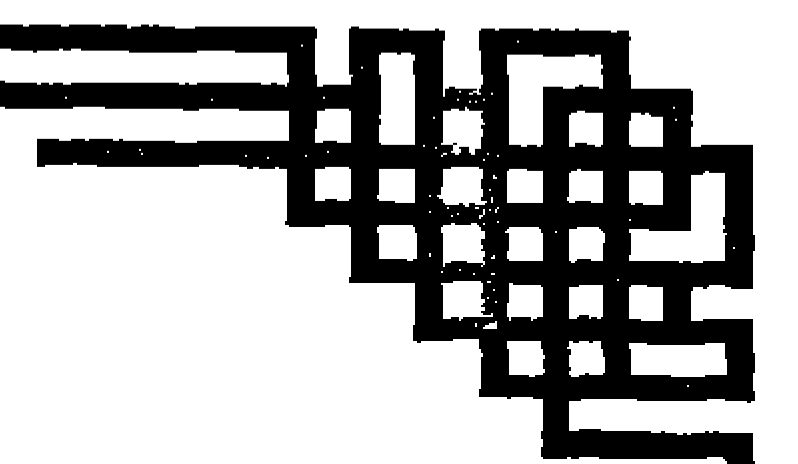
(١) انظر وليم الصورى: الحروب الصليبية جـ٢ ص٣١٨ ترجمة د. حسن حبشى، الهيئة المصرية للكتاب.

المثقلة بالأموال ونهبها وقتل رجالها وسبى نسائها، وكذلك لم يتحرج من نهب قافلة كانت تحمل كتبا جمة نفيسة للأمير العربى أسامة بن منقذ. بل يمكن القول بأن طبيعته العسكرية كانت أيضًا تحمل كما هائلاً من القسوة واللجوء إلى المذابح الدموية تؤكدها مجزرة استيلائه على قيسارية سنة ١١٠١م ليصدر أوامره إلى جنده لاستباحة البلد ونهبها كما شاء إلى درجة أخافت قادة جيشه!!!

وطبيعته المغالية فى القسوة مارسها حتى مع أتباعه الأرمن أهل الرها الذين باركوا مجيئه وقدموا له مدينتهم على طبق من ذهب، لكنهم فكروا وقد سئموا بطشه التخلص منه بتدبير ثورة. لكنه لم يتورع وقد وقف على خيوطها، من سمل عيون المشاركين فيها.. وجدع أنوفهم.. وقطع أطرافهم دونما رحمة!، بل امتدت قسوته إلى أقرب الناس، زوجته التى لم يجد مانعًا من إلصاق التهم الشنيعة بها تخلصا منها.

ولم تقف طموحاته التوسعية بإقامة مستعمرات فوق الثرى العربى عند حد. فقد أضاف شريطًا كاملاً من المدن الواقعة على شواطئ البحر الأبيض لضمان إنعاش تجارة أوربا، وتأمين توافر الحملات الصليبية بحرًا، كما نجح فى إرساء مملكة قوية واعترف له الأمراء المسيحيون، فدان له الجميع بما فيهم الأعداء والمنافسون بعد أن وحد جهودهم ونظم شئون المملكة بجدارة وحكمة.

كما استطاع بذكائه وحنكته العسكرية أن يمزق العالم الإسلامى، فحقق للصليبيين امتيازات سياسية وتجارية واسعة مكنته من قطع الطريق الموصل بين مصر والشام بامتلاك الأيلة ووادى عربة الذى يقود إلى مصر بعد تدمير مواقع البدو وإنشاء حاميات على البحر الأحمر، وبذلك هدد مصالح المسلمين التجارية وقوافل الحجاج التى طالما نهبها. فعُد بحق موحد الصف الصليبى، هذه الوحدة خدمتهم وأمدتهم بنفوذ واستقرار تواصل بعد وفاته لمدة تقارب نصف القرن.



## الفصل الرابع

# ومع.. مسيرة «جيش الرب» !!

## أحلام.. وخفايا صدور!

كان من الممكن افتراض أى باعث لخروج الصليبيين إلى المشرق العربى بحماس لم تفتر جذوته قرابة الثلاثة القرون، ضخت أوربا فيها عشرات الجيوش لتلقى بها فى أتون الحرب، إلا أن تكون بواعثها دينية!!.. فهى جاءت كما عبر الدكتور سعيد عاشور: «إن أمراء الحملة الصليبية الأولى أخذوا يقتسمون الغنيمة وهم فى طريقهم إلى الشام، أى قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلا»(١).

وإذا كان الملوك والأمراء أرباب مطامع توسعية كبيرة لامتلاك المدن والقلاع، وفتح أبواب التجارة العالمية. فإن الفقراء أولى بنسج الآمال الوردية حول تلك الأرض التى تنتج اللبن والعسل، خاصة وأوربا كانت تعيش كوارث المجاعة ما بين السنوات (٩٧٠-١٠٤٠م) وما صاحبها من فيضانات سنة ١٠٩٤م ليعقبها جفاف ومجاعة سنة ١٠٩٥م. هذا إلى جانب الأوبئة ونضوب معين الزراعة بسبب حروب المتبربرين، وغارات الشماليين إلى حد ألجأ بعضهم إلى أكل الأطفال!. على أن هؤلاء الفقراء وإن توجهوا بحماس مادى عنيف، لكنه من حيث المحصلة أقل بكثير من أحلامهم البسيطة التى اعتقدوا معها تطليق عهد النظام الإقطاعى، وتوديعهم بيوتا متداعية تصفى فيها الرياح.

وإذا ما خرجت جميع الحملات طوعًا بتأثير دنيوى لا دينى سوى القليل من رجالها كأسقف لى بويه «ادهيمر دى مونتيل» مفوض البابا، ولويس التاسع، فهناك من التحق مكرها كالإمبراطور فردريك الثانى الذى خرج مطرودًا من رحمة

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ٣٦.

البابوية والكنيسة حتى اعترف للمسلمين بأن ليس له غرض فى القدس ولا غيرها وإنما أتى حفاظًا على ماء وجهه. كذلك الأمر بالنسبة للكونتات الذين صحبوا زوجاتهم تحت تأثير ضغوط خاصة.

وهناك من خرج من ملوكهم بدافع التكفير عن ذنبه، كالملك لويس السابع «الذى أثقل ضميره ما ارتكبه جنده دون مبرر مذبحة فى منيترى سنة ١١٤٢م»[١].

لكن.. ترى أكان يدور فى خلد هذا البابا (أوربان) الذى ألهب حماس الصليبيين بخطبة لتنطلق متمنية سيادة المسيحية وكنيستها على العالم، ربما هى نفسها أودت بحياته لشدة معاناته وجهده وقلقه فى كيفية إعداد وإمداد هذه الجيوش، حتى قبل أن تومض عيناه ببريق الفرحة ونشوة النصر بسقوط بيت المقدس فى أيديهم!!

بل إن الخطاب ذاته بعد فترة زمنية - وإن بعدت - أطاح بكل هذه الجيوش عندما لقيت حتفها وتحطمت آمالها فوق الصخرة الشريفة وعلى أرض (الكفار) بزعمهم ومقدساتها التى أثبتت بحق رفضها الدخلاء حماة «وبديلاً عن أهلها المسلمين، مهما تطاولت الأيام، واختلفت ماهية الأديان.

* * *

**فاليوم ما زالت أرض المقدسات تتفجر حممًا تحت أقدام الغزاة.**

## لأجل الدين.. أم الدنيا؟!

ما إن علم أوربان الثانى أن خطابه الشهير برنينه العاطفى المؤثر، الذى ألقاه فى كليرمونت سنة ٤٨٧ هـ - كانون الأول ١٠٩٥م قد أحدث دويا هائلاً فى نفوس

---

(١) آرنست باركر: الحروب الصليبية ٧٣.

الحاضرين إلى درجة هتفوا: (هكذا يريدها الرب) حتى أخذ يتنقل بحماس الشباب بين أقاليم ومدن فرنسا إلى أواخر سنة ١٠٩٦ ليوقظ الحس الدينى ويكسب القوى العلمانية سواء عن طريق اجتماعه برجال الدين فى الأسقفيات والأديرة، أو من خلال مواجهته الجماهير ضمن رحلات مكوكية فى أوربا لإلقاء المواعظ.

ورغم خطبه ذات الأسلوب المؤثر والنغمة الحماسية الجذابة التى تحمل فكرة تخليص الأماكن المقدسة من أيدى (الكفرة) الذين يؤذون الحجاج ويدمرون الكنائس -بزعمه- عن طريق الحرب المقدسة لطردهم، فإن نواياها وأغراضها الحقيقية كانت تختفى تحت مسوح رجال الكنيسة وممثلها الأعلى البابا نفسه.

لقد ورد خطاب البابا أوربان عن طريق أربعة مؤرخين عاصروه، وادعى أحدهم أنه شهد الاجتماع «على أنه ما من أحد منهم يزعم أنه أورد الرواية اللفظية الدقيقة، وكل منهم إنما ألف تاريخه بعد مضى بضع سنوات، وصاغ روايته فى ضوء الأحداث التالية، على أننا نعلم على وجه التقريب ما قاله أوربان فعلاً»(١).

وفى ضوء فقراته(٢)، أتعرض لبعض الآثار التى ترتب عليها خروج هذه الجموع ضمن الحملات الصليبية سواء الشعبية (الغوغائية) منها، أو الرسمية (حملة الملوك والأمراء) التى ألقت بظلالها المجحفة بحق المسلمين.

## المقدسات الدينية.. بين الزيف والحقيقة!

رغم تعدد الرسالات السماوية، انفرد المسلمون باحترامها جميعًا رسلاً وأنبياءً

---

(١) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/ ١٦١.

(٢) إن جميع مقاطع خطب البابا أوربان التى أقدمها فى سياق البحث، وردت عن كتاب «الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية» تأليف دكتور قاسم عبده قاسم ط ثانية ١٩٨٨م.

وأماكن عبادة، كما لم يؤثر عن مسلم قام بهدم موضع دينى بارز كبيت لحم حيث مكان ولادة السيد المسيح . . أو فكر بتخريب كنيسة القيامة، أو حائط المبكى أو غير ذلك من المقدسات، رغم ما تعرضت له مقدسات المسلمين من نهب وتدمير وحرق وهدم على أيدى الغزاة الصليبيين، نتيجة حقد متوارث ينفخ جمراته ويؤججها رجال الدين دونما كلل.

وإن ما حصل زمن الحروب الصليبية المتأخرة من تخريب لبعض الكنائس فإنما يأتى رداً على المعاناة التى شعر بها المسلمون لتخريب مقدساتهم . . تكاد تكون فى مجموعها أقل من أن تذكر!

ولعل الفتوحات التى حققها المسلمون شرقًا وغربًا فى القرن الأول الهجرى حتى الثالث منه بدءاً من سنة ١٢هـ - ٦٣٢م هددت مصالح أرباب السلطات الدينية فى أوربا، وهزت عروش أباطرة بيزنطة فاعترضوا تقدمها بكل الوسائل كردود أفعال انتقامية، ومدخل لحروب صليبية بهجمات متكررة، وضمن فترات حكمتها طبيعة القوة، خاصة أيام ضعف الخلافة العباسية فسقوطها، ليتجزأ كيان الأمة الإسلامية أشلاء.

وقبل أن تستغل البابوية هذا الضعف الذى ينخر فى جسد المسلمين لابد من القول بأن طبيعة السلوك العسكرى لأباطرة بيزنطة وقوادها جاء مؤشراً واضحًا أو مدخلاً لحروب صليبية طويلة الأمد.

ومع بعض الفقرات الدينية المهمة التى جاءت سببًا -كما يزعمون- لاندلاع هذه الحروب . .

فبعد أن شد البابا أوربان انتباه سامعيه فى مجمع كليرمونت حول ما أصاب الكنائس الشرقية كما ورد فى خطبته فى كلير مونت:

« . . وأنهم دمروا الكنائس أو حولوها إلى مساجد »(١).

« ولتتقدموا فى جسارة كفرسان للمسيح حقًا، وتندفعوا بأقصى ما يمكنكم من سرعة الدفاع عن الكنيسة الشرقية »(٢).

ومما ورد فى خطابه فى ( الفلاندرز ) كانون الثانى سنة ١٠٩٥م:

« وإذا فكرنا بإخلاص فى هذه المصيبة وحزنا بسببها. فإنا زرنا بلاد الغال وحرّضنا السادة والرعايا محمية فى هذا الإقليم على تحرير الكنائس الشرقية »(٣).

وليس من باب المغالاة أن فى قوله زيفا وتدليسا فالمسلم لو حدثته نفسه بتدمير موضع مقدس لهم -لظلم وقع عليه- فيده لا تطاوعه لأن دينه يمنعه، وقد أوصاه بالابتعاد عن ايذاء القسيسين والرهبان وهدم الكنائس والصوامع وكل ما يذكر اسم الله فيه . .

والنصر القرآنى الكريم : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ [ الحج: ٤٠ ].

وحينما أشار أحد فرسان صلاح الدين بهدم كنيسة القيامة انتقامًا لمجازرهم الرهيبة فى القدس تذكر موقف الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فرفض عرضه وقال:

« أقرهم على هذا المكان، ولم يأمرهم بهدم البنيان . . »(٤).

لذا جاءت الفتوح الإسلامية فتوحًا عادلة لم تتلوث بأى عدوان على

---

( ١، ٢ ) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ص١٠٩.

( ٣ ) المصدر السابق ٢٣١.

( ٤ ) العماد الكاتب: الفتح القسى ١٤٦.

مقدساتهم. بل على النقيض، فالشواهد تؤكد أن المسيحيين أول من تجرأ على انتهاك حرماتنا ومقدساتنا لا سيما المساجد منها (فنقفور فوقاس) مثلاً، كان يتلذذ بتدمير المدن الإسلامية ومقدساتها فى أعالى الشام والعراق بعدما اتخذها ساحة لجولاته العسكرية الانتقامية ذات الطابع النزق سنوات طوالاً مستغلاً ضعف حكامها.

ففى سنة ٣٥١ هـ خرج القائد نقفور من العاصمة البيزنطية فى رحلة لزرع الدمار فى الأرض الإسلامية بجيش تعداده مائتا ألف جندى، فدخل حلب وأخذها بالسيف ثلاثة أيام «وأحرق المساجد»(١).

ومن غير المعقول أن البابا لم يطلع على تاريخ الصفوة من أبناء جلدته، خاصة ممن أغرموا بالنيل من الإسلام ورموزه، لا سيما الجولة التى خرج فيها وقد غدا امبراطوراً سنة ٣٥٨ هـ -٩٦٨م، نحو المدن الساحلية من الشام، وفى هذه المرة لم يكتف بحرق المساجد، بل نهب منها «ثمانية عشر منبراً»(٢). ومن يدرى.. فربما خيل له وأد الإسلام فى حرق هذه المنابر!! على أن أبشع ما نال مقدساتنا على عهده إخضاعه المصيصة سنة ٣٥٤ هـ بالسيف، ويبدو أن سرقة المنابر ما عادت ترضيه بل عمد إلى حرقها، ومع ذلك لم تشف صدره المعلول فجعل من «المسجد الجامع بطرسوس اسطبلا لدوابه»(٣).

فماذا يعنى أن يتحول المسجد إلى اسطبل.. والمسجد أحد الرموز الإسلامية؟!

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٢٧٤، ٣/ ٣١٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٢٨٧: انظر جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية: ص٢٠٥.

ومع ذلك نجد بيزنطة بعد سنوات تسارع إلى مجمع بليزانس المنعقد سنة ١٠٩٥م تعرض على البابوية إنقاذها حين تعرضت حدودها لهجوم السلاجقة فى موقعة ما نزكرت الشهيرة سنة ١٠٧١م ليعقبها استعادة المسلمين القدس سنة ١٠٧٨م، وأنطاكية سنة ١٠٨٥م ليكون إنقاذها منهم، بجانب ما يتعرض له المسيحيون من نهب كنائسهم ومضايقة حجاجهم وسلبهم -بزعمه- ذريعة يغلف بها أوربان أطماعه السياسية والدينية معًا.

وقد يحدث أن يتعرض بعض الحجاج المسيحيين للمضايقة وجشع بعض أصحاب المدن التى يمرون منها، وهو أمر مألوف يومها يصادفه الحاج المسلم أيضًا، وخاصة من الأعراب، بيد أنه لا يؤخذ مبررًا تضخ لأجله حملات عسكرية ذات جيوش منظمة!!. فالبابا أوربان يتباكى على الكنائس الشرقية، والحقائق التاريخية تدفع مزاعمه وزيغ ادعاءاته من المسيحيين أنفسهم بل الرهبان منهم.

فهذه وثيقة تاريخية على شكل رسالة بعث بها بطريك بيت المقدس فى القرن التاسع الميلادى إلى بطريك القسطنطينية. وفى هذه الرسالة يحدثه عن المعاملة الطيبة التى يلقاها النصارى من السلطات المسلمة ذاكرًا أنها «عادلة ولم تنزل بنا الضرر ولم تظهر شيئًا من العنف نحونا»(١).

كما تذكر المستشرقة المعاصرة هونكة: «إن السادة الحكام المسلمين لم يزجوا بأنفسهم فى شئون تلك الشعوب الداخلية»(٢).

الواقع أن المسلم تربى على مائدة القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ التى تؤكد حسن معاملة أصحاب الرسالات السماوية:

---

(١) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/٤٧.

(٢) المستشرقة زيغريدهونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ٣٦٤.

« من قاتل ذميا فأنا خصمه إلى يوم القيامة » . حديث شريف .

ووصية أبى بكر الصديق ( رضى الله عنه ) جيشه فى حرب الروم :

« . . وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخًا ولا امرأة ولا طفلاً . . »[1] .

كما تقول المصادر التاريخية « إن الكنائس الأرثوذكسية التى تساندها دول أجنبية احتفظت دائمًا بوضع ممتاز فى أوائل القرن العاشر الميلادى، وحينما احتدم الجدال بين إبراهام الثالث جاثليق النساطرة وبين بطريك إنطاكيا الأرثوذكسى، أشار إلى الوزير: إننا نحن النساطرة أصدقاء العرب وندعو لهم دائمًا بإحراز الانتصارات. ثم أضاف فلترع النساطرة الذين ليس لهم ملك سوى العرب »[2] .

فى حين يرتفع صوت أوربان الثانى ضمن خطابه فى الفلاندرز :

« . . والأسوأ من ذلك أنهم استولوا على مدينة الحرب المقدسة التى ازدانت بعذابه وقيامته »[3] . ولا يحمل تحريض البابا أوربان على انتهاك كنيسة القيامة وبيت المقدس أو سواهما من المقدسات المسيحية إلا دعوة صريحة لطرد المسلمين وإحلال الصليبيين مكانهم. فى وقت كان الخليفة « هارون الرشيد » يسلم الإمبراطور شارلمان مفاتيح مدينة القدس كنوع من التكريم والحفاوة ( الفخرية ) عندما وفد حاجا!! ومعروف أن الكنائس يديرها المسيحيون بأنفسهم، ويلاحظ كثرتها فى القدس، ويكفى أن نعلم « بتشييد مائتى دير فى القدس وحدها فى القرن الخامس الميلادى لاستقبال الحجاج »[4] .

---

( ١ ) الواقدى: فتوح الشام ١ / ٨ .

( ٢ ) رونسمان تاريخ الحروب الصليبية ١ / ٤٨ .

( ٣ ) قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية ٢٣١ .

( ٤ ) رونسمان : تاريخ الحروب الصليبية ١ / ٦٥ .

بل قل أن تخلو مدينة إسلامية من وجود كنيسة، فى حين حرم المسلمون من إنشاء مسجد واحد فى أوربا تلك الحقبة، باستثناء جامع القسطنطينية اليتيم الذى انشأه الأمويون.

***

**إن مساجدنا ما زالت هدفًا للانتهاكات.. فمسلسل الحفريات حول المسجد الأقصى لم ينته.**

**وهدم مسجد بابرى في الهند، وإحراق مسجد مزار شريف فى كشمير، ليس ببعيد.**

## الكعبة وحلم.. لا يتحقق!

لا شك أن للمقدسات الدينية آثارها الروحية العميقة التى تحفر فى وجدان أتباعها منذ عصر إنسان الكهوف حتى اليوم. وغالبًا ما يكون البديل عند امتهانها، سفك الدماء وحصد الأرواح، وهما مرهونان بمدى الجرم ودرجة الغيرة الدينية وتحكم العقل والعاطفة كما سبق التنويه. وفى الرسالات السماوية نجد أن «المسيحية تعتبر ديانة مانعة لا تقبل أن تعيش معها ديانة أخرى»(١).

هذا الفكر المتعصب فى الذات المسيحية يطل بوضوح كاشفًا سر بناء أبرهة كنيسة (القليس واجتهاده لتكون أثرًا رائعًا، وذكر فى سياق هدفه للنجاشي:

«.. ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حاج العرب»(٢).

هذه النظرة تلجئ عبد المطلب (سيد مكة) وهو يشاهد تقاطر جيوش وأفيال أبرهة لهدم الكعبة، ولا قدرة له على صدها سوى استجارته الوالهة لصاحب

(١) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ٣/١٩.

(٢) ابن إسحق: السيرة النبوية ٢/٤٣.

البيت العتيق يرسل نفثاته شعراً، وقد أخذ بحلقة باب الكعبة متضرعاً.

لا هم إن العبد يمنع
رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم
ومحالهم غدوا محالك[(١)]

وفى تأكيده قدسية وجلال المكان:

عمدوا حماك بكيدهم
جهلا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم
وكعبتنا فأمر ما بدا لك[(٢)]

وفى نصر الله حرمه أنشأ يقول ممتناً:

أيها الداعى لقد أسمعتنى
ثم ما بى عن نداكم من صمم
إن للبيت رباً مانعاً
ومن يرده بآثام يصطلم[(٣)]

---

(١) ابن اسحق: السيرة النبوية ٢/٥١٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١/٣٤٤.

(٣) المسعودى: مروج الذهب ٢/١٢٩.

وإذا كانت الكعبة مقصد الحجاج العرب من موحدين ودهريين ومشركين، وما إلى ذلك من شتيت الملل والنحل، فكيف الحال وقد غمر نور الإسلام جبال مكة ووديانها موحداً دينهم، جاعلاً من الكعبة بعد سنتين قبلتهم الأزلية؟!!

ولعالمية الإسلام فقد أخذ ينتشر وبسرعة لطبيعة أهدافه الخلقية الراقية التى تصل الإنسان بخالقه. ولما كانت الكعبة الرمز الروحى الذى يهفو إليه قلب المسلم فى كل موسم حج.. وقبلته عند كل صلاة، فقد ناصبتها الصليبية العداء المزمن. وما كان ليزول تطامن هذا الحقد المتأجج فى صدورهم إلا بزوالها.

وجذوة محاولاتهم لمحوها لا تهدأ أو تفتر برغم تقادم الزمن. ففى السنة الثالثة عشرة من الهجرة، وقد أوغل فرسان المسلمين فى أرض الروم يسبقهم صدى هتافهم «الله أكبر» يتصدى بطارقة الروم وجندهم معلنين للإمبراطور هرقل بحماس دينى شديد(١): «أيها الملك نردهم عن مرادهم ونصل إلى مدينتهم، ونخرب كعبتهم»(٢).

هكذا تكرر الصليبية غير المنظمة - إن جاز التعبير - فكرة إزالة الكعبة وطمس معالمها، فى الوقت الذى تكون إحدى وصايا الخليفة أبى بكر الصديق لذات الجيش الذى واجه جند هرقل بحماسهم لتخريب الكعبة:

«... ولا تهدموا صوامعهم...»(٣).

لكن.. والخلافة العباسية ضعيفة قد أغرت أباطرة بيزنطة بشن هجمات عسكرية متواترة ثأرا من المسلمين لما لحقهم سابقًا، ليظهر امبراطورهم نقفور

---

(١) انظر العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى: جوزيف نسيم يوسف: ص٣٦ طبعة دار المعارف (مصر ١٩٦٣م).

(٢، ٣) البلاذرى: فتوح الشام: ١/٩، ١/٨.

فوقاس المعروف بتطرفه وجموح عاطفته الدينية، وتحديه رجال الكنيسة، إذ لا يقنع بمواصلة هجماته العسكرية الانتقامية، وكذلك النيل من المساجد.. بل تمتد نظرته المتطرفة -بتهديد صريح- إلى هدم الكعبة حلمهم وهاجسهم المؤرق.. وإحلال المسيحية هناك، وكما عبر ضمن القصيدة الأرمينية:

وأخـــرج نحـــو مكة مـــســـرعًـــا
أجـــر جـــيـــوشًـــا كـــالليـــالى الســـواجم
فـــأملكهـــا دهرًا عـــزيزًا مـــسلمًـــا
أقـــيم بهـــا للحق كـــرسى عـــالم[1]

ويبدو أن نقفور كان متفائلاً بأطماعه حداً انتهى معه لتصبح القسطنطينية عاصمته وكرسى عرشه، عاصمة للمسلمين إلى جانب أجزاء من العالم المسيحى من أوربا -حتى قبل هذه الفتوح بقرون عديدة- فقد تنبأ بها الشاعر الفقيه ابن حزم الأندلسى عبر قصيدته الموسومة (الفريدة الإسلامية) التى رد بها على القصدة الأرمينية وعارضها.. وذلك من وحى غيرته وحسه الإيمانى الصادق والتماعات عقله ووجدانه، ومما جاء فيها:

سنفـــتح قـــسطنطينيـــة وذواتهـــا
ونجـــعلكم فـــوق النســـور القـــمـــاشم
ونملـــك أقـــصـــى أرضكـــم وبلادكـــم
ونـــلزمكـــم ذل الجـــزى أو الـغـــارم

---

(١) عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان: ١٠٣.

إلى أن ترى الإسلام قد عم حكمه

بجميع الأراضى بالجيوش الصوارم[1]

## انتهاكات الحملات المنظمة:

ما سبق كان بعض المقدمات لانتهاك المقدسات الإسلامية عبر حملات صليبية غير منظمة، ليتم تفعيلها بمحاور منظمة استهلتها الحملة الأولى بطعن المسلمين فى ( ثالث ) أعز وأعظم مقدساتهم، مفجرة بركان أحقادها المتراكمة مذابح دموية لم يشهد لها التاريخ مثيلا حتى تركت المدائن المحيطة بها فى حالة ذهول واستنفار عبر رحلة استغاثة، كان أنيسهم فيها الرعب والعذاب والأهوال بدءاً من الشام وانتهاءً فى بغداد الخلافة من شهر رمضان « فلشدة ما أصابهم أفطروا »[2].

هل يمكن أن تأتى أفعالهم الشنيعة هذه كأصداء للمعاملة الدينية والموقف الإنسانى الذى انتهجه الخليفة الفاروق مع أهالى مدينة القدس من رعاية وصيانة معالمها الدينية كنوع من العطف والحماية الشاملة خلال فتحها؟!!!

ولئن اعترضت الكثير من المعوقات أحلام أوائل الصليبيين بضرب المسلمين بأنفس ما حوته مكة والمدينة من مقدسات، فإن الفترة ما بين استباحة القدس الشريف والمحاولة الجديدة تربو على الثمانية عقود جعلت -بحسب تصوراتهم- الأجواء مهيأة من خلال الحملة الثانية وقد اتخذت الصليبية مواقع مرموقة لمستعمراتها التى غطت أجزاء واسعة من ساحة الوطن العربى، ومن إمارة الكرك التى جاء موقعها الجيد من أرض الحجاز، التحكم فى قوافل الحجاج ما بين الشام ومصر، فقد وجه أميرها أرناط سنة ٥٧٨ هـ - ١١٨٢م السفائن المغيرة فرقتين،

---

( ١ ) عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان: ١٩٩.

( ٢ ) ابن الأثير: الكامل ٩ /١٩.

إحداهما سارت فى البحر تحاصر أيلة. وأخرى نحو عيذاب، فى جولة فساد ونهب القوافل ومراكب التجار كما «كانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز مكة والمدينة -حرسهما الله تعالى- وأخذ الحاج ومنعهم عن البيت الحرام»(١).

ومن البدهى أن أرناط كان يؤمل -بطابعه الحماسى الأهوج- سبقًا دينيًا فى انتهاك الحرمين وخلال موسم الحج. وعسكريًا بإطلاق نفوذه فى البحر الأحمر. على أن آماله نحرت كنحر أتباعه بعد أن سارع بدر الدين لؤلؤ أحد قواد صلاح الدين بتعقبهم بواسطة أسطوله قتلا وأسرًا حتى «أرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ»(٢).

وإن سبق للمدينة انتهاكها من قبل الصليبيين بمحاولة العبث بمثوى الرسول الكريم، على عهد المجاهد نور الدين زنكى سنة ٥٥٦ هـ، الذى اكتشفها ونحر مرتكبيها فى ذات المدنية خلال رحلة حجه!.. ويبدو أن مغامرة أرناط التى كانت الصليبية تعول عليها كثيرًا، وجدت المتنفس والبديل الوحيد لخيبتها تجديد لعبتها السابقة فى انتهاك حرمة الجوامع لجرح مشاعر المسلمين. فقد عادت هذه الظاهرة بجلاء خلال الحملة الصليبية الثالثة على عهد الملك ريتشارد عند احتلاله عكا سنة ٥٨٧ هـ- ١١٩١م مؤثرًا اقتحامها يوم الجمعة «فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد»(٣). وإمعانا فى النيل من مشاعر المسلمين إلى جانب نكبتهم الموجعة بسلبهم عكا، وما بين جيشان أحزانهم وارتفاع عويلهم وبكائهم فى المعسكر

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١١٨.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية ١٦١.

سارع ريتشارد «فنصب علما على القلعة وعلمًا على مئذنة الجامع فى يوم الجمعة وعلما على برج القتال عوضًا عن علم الإسلام»(١).

ويبدو أن عداء الصليبية للمساجد حالة يستحمل محوها ما بقيت كلمة التوحيد حتى بات هذا العداء يستفحل وينقل عن طريق إيعازها لشعوب وثنية همجية لا تولى الأديان أيما عناية، ولا تفقه من الإسلام شيئًا حتى تشن على رموزه وأهله حربًا شعواء مدمرة بعد محوها الخلافة العباسية.

وتعود قضية هدم الكعبة تطفو على مسرح الأحداث ضمن قرصنة جديدة، فكما سبق ونبتت هذه الفكرة فى ذهن المغامر أبرهة الحبشى سنة ٥٧٠م فقد نضت ثوب سباتها العميق وغادرت مرقدها لتتخذ سنة ١٥١٠م من عقل الملكة الحبشية هيلانة سكنا. هذه الصليبية ورثت حقداً شديداً على الإسلام فانتهزت فرصة انتصار البرتغاليين على المماليك فى معركة (ديو) البحرية لتسارع بعقد صفقة تلتقى فيها المصالح المشتركة لضرب المسلمين «وقد حرصت ملكة الحبشة فى الرسالة التى أرسلتها إلى ملك البرتغال على تلقيبه «بقاهر المسلمين» وأظهرت إعجابها بما أحرزه البرتغاليون من انتصارات على المسلمين فى المحيط الهندى، كما أبدت رغبتها فى أن يمدها البرتغاليون بالسفن اللازمة لنقل جنودها الأحباش إلى الحجاز لغزو مكة وتحطيم الكعبة، فضلاً عن إغلاق البحر الأحمر من ناحيتى الطور شمالاً وباب المندب جنوبًا»(٢).

على أن كل المحاولات الغادرة لهدمها جاءت كقشة جرفتها أمواج البحر،

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ١٦١.

(٢) سعيد عاشور: حركة الحروب الصليبية ٩٥٨.

ومضت بملوكهم وجيوشهم لتبقى الكعبة شامخة البنيان تطاول الزمن والأعداء فى كنف الله ورعايته وعنايته، وكما قالها سيد مكة يومها:

«إن للبيت ربًا يحميه».

لكن لا يعتقد بأن دور العبادات المسيحية من كنائس صغيرة كانت فى منجى من غضبة المسلمين وهم يعيشون توالى إهانة مقدساتهم، ففى ظلال الحملات الصليبية وضلالها نهبت بعض كنائسهم وهدمت أخرى.. أو حولت إلى مساجد للتعبير عن غضبة امتد أوارها ما بين بلاد الشام وقلب القسطنطينية والأندلس ومصر وحتى كنيسة البابوية فى روما. على أن ما تعرضت له هذه الكنائس يكاد فى مجمله يشكل غيضا من فيض قياسًا لما لحق بالمقدسات الإسلامية.

هذه السلوكية برزت كحصاد التمادى والطغيان الدينى من الجانب الصليبى أمام الذروة فى الصبر وطول المعاناة وحبس أنفاس الغضب فى الجانب الإسلامى الذى لم يلق وبكل أسف.. تقديراً.

* * *

**وما زالت مقدساتنا تنتهك، فقد أحرق المسجد الأقصى فى ٢١ / ٨ / ١٩٦٩م، وتعرض للتفجير الفاشل سنة ١٩٨٠م**

## حماية «جيش الرب» الكنائس الشرقية!

والبابا أوربان الثانى الذى أغاظه وجود أعرق وأقدس الكنائس الشرقية فوق التراب العربى وفى ظل الحكم الإسلامى نتساءل:

- كيف تعامل الصليبيون إزاء الكنائس؟!!

وقبل التعرض للأحداث لا بأس من عودة إلى عهد الإمبراطور البيزنطى ( حنا الشمشقيق ) ٩٦٩-٩٧٥م.

هذا الإمبراطور كتب قبيل الحروب الصليبية بعقود قليلة إلى ملك أرمينية آشود الثالث رسالة يقول فيها:

« إن رغبتنا متجهة إلى استخلاص القبر المقدس من إهانات المسلمين والصلاة فيه »(١).

هذه الرسالة التى شكلت أحد الدوافع المهمة والأساسية لفتح شهية البابا أوربان الثانى بإرسال حملة عسكرية تبعتها حملات توجهت الرابعة منها نحو أعرف الكنائس الشرقية وأضخمها وأعظمها فى الدولة البيزنطية.

تلك الإمبراطورية التى حفظت المقدسات المسيحية رغم جيرانها من المسلمين ولم تقو على صيانتها من أيدى « فرسان المسيح »!!.. وكيف لحقت الإهانات الأماكن المقدسة فى مملكة الشمشقيق نفسه.

حيث استباح « جيش الرب » عاصمة بيزنطة ( القسطنطينية ) وأروع كنائسها سنة ٦٠٠ هـ، وكما وصف ابن الأثير « فثقلوا الوطأة على أهله وطلبوا منهم أموالاً عجزوا عنها، وأخذوا أموال البِيع وما فيها من ذهب ونقرة وغير ذلك حتى ما على الصلبان، وهو على صورة المسيح عليه السلام والحواريين، وما على الأناجيل من ذلك أيضًا، فعظم ذلك على الروم وذهبت توسلاتهم بالإنجيل والصليب أدراج الرياح »(٢).

---

(١) دكتور حسن حبشى: الحروب الصليبية الأولى ص١٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠ /٢٨٨- ٢٨٩.

وأبى لصوص مقدساتهم الدينية إلا إضافة بشاعة التصرف:

« فبينما كانوا يتناولون الشراب فى أوانى المذبح مبتهجين، تربعت عاهرة على كرسى البطريك وأخذت تردد أغنية فرنسية بذيئة »(١).

بهذا النحو عامل الصليبيون إخوانهم ورجال دينهم، مما ألجأ البيزنطيين للاستعانة بالمسلمين الأتراك السلاجقة.

« فأرسلوا إلى السلطان ركن الدين بن قلج أرسلان صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه »(٢). ولو أن البابا أوربان عاش هذه التصرفات.. وشهد استئجاد المسيحيين بالمسلمين لمات كربا قبل تحريضه هذا:

« ولتتقدموا فى جسارة كفرسان للمسيح حقًا، وتندفعوا بأقصى ما يمكنكم من سرعة الدفاع عن الكنيسة الشرقية »(٣).. أو حتى قبل الاسترسال فى مهاجمته الأتراك، ليعلم أن المسلمين وحدهم هم الذين حفظوا الكنائس الشرقية من عبث جيشه.

والمؤسف أن هذه الهجمات الغوغائية لم تأت من حملة الفقراء (الشعبية) بل حملة الملوك، مما أكد أن الجيوش التى خرجت باسم تخليص الكنيسة الشرقية والأماكن المقدسة تعانى فقرا فى الأخلاق وتخمة فى الأطماع!!... وعلى هذا لم يكن غريبًا منهم المسارعة إلى الجامع الوحيد فى القسطنطينية فأحرقوه « وعندما أشعل الصليبيون النار فى ذلك الجامع سنة ١٢٠٤م امتدت ألسنة اللهب إلى المناطق المجاورة، وهددت كنيسة أياصوفيا، ولم يمكن إخماد النار إلا بعد يومين »(٤).

---

(١) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ٣/٢٢٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٢٨٨.

(٣) دكتور قاسم عبده قاسم: الخليفة الأيديولوجية ١٠٩.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ص٧٣٨.

الواقع أن ما أصاب مدنية القسطنطينية وكنائسها العامرة من كوارث جاء انتقامًا إلهيًا عادلاً لأعمال جيش تيوفيل وفوقاس والشمشقيق، أرباب المدخل لحروب قاسي المسيحيون الشرقيون منها الكثير قبل المسلمين، حدا بلغ معه أن مؤرخًا حديثًا كرونسمان يصرح بأن المسيحيين كانوا أسعد حظًا فى الغالب تحت حكم جماعات المسلمين منهم تحت حكم الأباطرة الرومان، أما المستشرقة المعاصرة هونكه فتكتب عن هذه الفترة من حكم الأباطرة :

« والأديرة المسيحية فى سوريا التى كادت تنمحى فى عصر الحكم المسيحى وصلت إلى ذروة عظمتها فى الدول الإسلامية »[1].

* * *

**إن مآذننا ومساجدنا فى أوربا بات معظمها يتوسد الأرض بدل معانقة السماء. لقد قصف ٨٠٠ أثر إسلامى فى البوسنة بمدافع الصرب.**

## القدس بين جيش الفاروق.. وجيش أوربان :

فتح المسلمون القدس سنة ( ١٥ هـ - ٦٣٧م ) فى حكم الإمبراطور هرقل لتنتهى سيطرة بيزنطة.. ولتنام وتصحو على إشراقة غد كله تفاؤل وأمل واطمئنان فى ظل الحكم الإسلامى. ولكن.. كيف دخلها الفاروق عمر؟.. لن أصف معاملته من خلال مصادر المؤرخين المسلمين - وكلهم ثقة - لكن تكفى إشارة صغيرة من مؤلف مسيحى، فبعد وصف تواضع هذا الخليفة المسلم الفاتح عمر الفاروق ببساطته ودماثة خلقه وسلوكه الدينى يصف لحظة تاريخية مشهودة :

---

( ١ ) هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٦٨.

« اقترب موعد الصلاة عند المسلمين فتساءل الخليفة: أين يستطيع أن يفرش سجادة الصلاة، فتوسل ( صفرونيوس ) أن يبقى فى مكانه، غير أن عمر خرج إلى المدخل الخارجى للكنيسة لكيلا يزعم – على حد قوله – أتباعه المتحمسون لدينهم أن للإسلام حقًا فى المكان الذى أدى فيه الصلاة »(١).

على أننا لا نلمح فى هذا الملمح سوى سلام يعجز عنه طلاب الحروب من الأباطرة.. سلام لا يقدر عليه سوى الخليفة المسلم وجيشه لحفظ مدينة القدس وكنيستها.. وما توسل أسقفها إلا ترجمة للسلام الحقيقى الذى كفله الفاروق للمسيحيين ضمن الوثيقة التاريخية الشهيرة ببنودها العادلة.

وأمام نصوص القرآن الكريم وأحاديث الرسول الكريم ثم خلفائه من بعده، فهل يتصور ولو للحظة تدمير المسلمين مثل هذه الكنيسة الممثلة لأعز المقدسات المسيحية؟!

إن لدور العبادة حرماتها.. لكن الصليبية ترفض ذلك. تدعمها صرخة البابا: « وأنهم دمروا الكنائس أو حولوها إلى مساجد »(٢).

على أن هناك من رفض أباطيله من خلال الغوص فى حقائق التاريخ مؤكداً أن الكنيسة بقيت على ما كانت عليه أقدس مشاهد العالم المسيحى »(٣).. كما أن كنيسة بيت لحم التى شيدها قسطنطين ظلت سليمة لكأنها تفند ادعاءاته!! هذا وإن لم تدمر الكنائس وقد حولت المساجد إلى كنائس فى ظل السيطرة الصليبية سواء فى مشارق المدن الإسلامية أو مغاربها.

---

( ١ ) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/١٦.

( ٢ ) د. قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ١٠٩.

( ٣ ) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/١٦.

وعليه نتساءل: فماذا عن أقدس مشاهد العالم الإسلامى - القدس المشرفة - هل أبقوا عليها.. هذا ما تجيب عنه الحملة الأولى. فبعد سقوط القدس بأيديهم سنة ٤٩٢ هـ - ١٠٩٩م اتخذوا من مسجدها -القبلة الأولى ومعراج النبوة - كنيسة لاتينية «أما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحا»(١).

هذه السلوكيات الاستفزازية البشعة لمقدساتنا أثارت جموع المسلمين بما فيها قرائح الشعراء حتى قال أحدهم - كما جاء فى مرآة الزمان لابن الجوزى -:

أحل الكفر بالإسلام ضيما
يطول عليه للدين النحيب
وكم من مسجد جعلوه ديرا
على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق
وتحريق المصاحف فيه طيب

أما المساجد... فحين استعاد الناصر صلاح الدين مدينة عكا سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٧م فى يوم الجمعة المبارك «فصلوا الجمعة فى جامع كان للمسلمين قديمًا ثم جعله الفرنج بيعة، ثم جعله صلاح الدين جامعًا»(٢).

ويصف الرحالة ابن جبير الأندلسى، مشاهد الخراب الذى لحق بعكا قبل استعادتها، كما رآها بنفسه:

«فبكى لها الإسلام ملء جفونه، وكانت أحد شجونه، فعادت مساجدها

---

(١) العماد الكاتب: الفتح القسى ١٤١. انظر جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية: ٢٠٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٤٩/١٠.

كنائس، وصوامعها مضارب للنواقيس، وطهر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بأيدى المسلمين مسجداً صغيراً يجمع الغرباء منهم فيه لإقامة فريضة الصلاة»(١).

ويروى المقريزى أن الصليبيين عندما احتلوا دمياط «جعلوا جامعها كنيسة»(٢).

هذا عدا المساجد التى حولت إلى كاتدرائيات فى الأندلس، فقد تحرك أعظم مساجدها مسجد غرناطة الرائع إلى كاتدرائية.

أما السلام الذى ينشده البابا ليكون ظلا فى مدينة السلام. فقد أقامه «جيش الرب» عندما انطلق نداؤه:

«وفى ظل زعامة يسوع المسيح قائدنا يمكنكم أن تناضلوا فى سبيل قدسكم، وفى خط قتالى مسيحى أشد قوة، بل وبنجاح أكثر من نجاح أبناء يعقوب فى الزمن القديم»(٣).

هذه الدعوة المشحونة بكل أغراض التدمير وإغراءاتها نفذتها الخطوط القتالية لتجرى الدماء تحت أنصال السيوف أنهاراً فوق بطاح القدس الشريف وسهوبها!

الحقيقة أن الصليبية لم تنل من المسلمين، كما نالته بسقوط مدينة القدس فى الحملة الأولى وبكل ألم وحزن أسجل جانباً من مجازرهم..

يكشف ابن الأثير عن طرف من مأساة المذبحة الدموية: «وركب الناس السيف، ولبث الفرنج فى البلد اسبوعاً يقتلون فيه المسلمين»(٤). وحينما لاذ

---

(١) ابن جبير الأندلسى: رحلة ابن جبير ص٢٤٩.

(٢) المقريزى: السلوك ١/٢٠١.

(٣) د. قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ١١٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٩/١٩.

الشيوخ والنساء والأطفال محتمين بالمسجد الأقصى، طاردهم جيش الرب..

«وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاءوا بذلك الموضع الشريف»(١).

أما المؤرخ «يورجا» فيقول:

«ابتدأ الصليبيون سيرهم إلى بيت المقدس بأسوأ طالع، فكان فرق من الحجاج يسفكون الدماء فى القصور التى استولوا عليها، وقد أسرفوا فى القسوة، فكانوا يبقرون البطون ويبحثون عن الدنانير فى الأمعاء»(٢).

بعد هذه التصفية الجسدية يذكر المؤرخ آرنست:

«ولما أنزل الليل أستاره أقبل الصليبيون آخر الأمر إلى كنيسة القيامة، وقد بكوا من شدة الفرح، وفى الكنيسة رفعوا أيديهم المخضبة بالدماء وصاروا يجهرون بصلاتهم. وفى ذلك اليوم من شهر يوليه انتهت الحملة الصليبية الأولى»(٣).

لكأن هذه الأحداث بمأساويتها تعيد إلى الذهن قصيدة نقفور:

أعود إلى القدس التى شرفت بنا
بعز مكين ثابت الأصل قائم
وأعلو سريرى للسجود معظما
وتبقى ملوك الأرض مثل الخوادم

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩ / ١٩.

(٢) أحمد عبد العزيز الحصين: الطفلة هيلة والكنيسة ص٢٦-٢٧.

(٣) آرنست باركر: الحروب الصليبية ص٣٦.

**إن الحقد الديني مكن أعداء الإسلام من ذبح المصلين في المسجد الأقصى سنة ١٩٨٢م.. وفي ظل الصمت العالمي كرروا مجزرتهم في عيد الأضحى سنة ١٩٩٤م.**

## حملات صليبية.. ولكن!

لم تكن الحروب الصليبية وليدة إفرازات اجتماعية واقتصادية واضطرابات أمنية هددت استقرار أوربا. فلقد سبقت ذلك بمرحلة زمنية بعيدة قادها المتحمسون من أباطرة بيزنطة وقد خرجوا بأنفسهم لقيادة حملات لا تبتعد كثيراً في غاياتها عن الحملات الصليبية المنظمة.. فهي وإن خلت من التنظيم.. فقد خلت أيضًا من مباركة الكنيسة البيزنطية التي غابت عن أحداث الحرب وآثرت الابتعاد.

لقد خرجت برموز السلطة الحاكمة، وكما سبق، مستغلة ضعف الدولة الإسلامية قبيل سقوط الخلافة العباسية وبعدها، مما ترك الكثير من المدن والثغور الإسلامية مفتقدة الحماية الكاملة لصد هجمات الجيش البيزنطي. كما أن بعض الإمارات الإسلامية كانت تخضع لحكام مختلفين عرقيًا ومذهبيًا مما صعد حدة التفكك.

على أن الأتراك وهم يحكمون شمال العراق والجزيرة وبعض مدن الشام، وهي المناطق الحجازية لحدود الدولة البيزنطية.. وبما عرف تمتعهم بروح قتالية عالية – أثبتت في الغالب– كفاءتها لحماية حدودها من خلال مناوشاتها الطويلة مع الروم. وتوسع الأتراك السلاجقه في آسيا الصغرى حتى أصبح ذكرهم مراً في حلوق الصليبيين ومتوارثًا.. لذا خصهم البابا أوربان بنصيب الأسد من هجومه.

بيد أن الكثير من الإمارات الإسلامية عانت من بطش وطغيان الجيش الإمبراطورى سيما مدن الشام التابعة للخلافة الفاطمية.

وعلى سبيل هذه الغارات، نجد الإمبراطور تيوفيوس ( تيوفيل ) يقود بنفسه قوة من مائة ألف مقاتل على قول ابن الأثير، وذلك سنة ٢٢٣ هـ - ٨٣٨م زمن الخليفة المعتصم، حتى وصل زبطرة على حدود الشام « فقتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء »[١]. ثم واصل غارته على ملطية وغيرها من الحصون، فزرع الدمار « ومثل بمن صار بيده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم »[٢]. بيد أن الخليفة الشجاع رد إليه اللطمة فى عمورية أوجع منها!!

وإذا ما جاءت هذه اللطمة فى نهايات القرن التاسع الميلادى فقد حل القرن العاشر ليشهد ضعف المسلمين تماماً، حيث استرد الإمبراطور نقفور بعض ما فتحه المسلمون ابتداءً من القرن الأول وحتى الثالث الهجرى إلى جانب قائده وخلفه حنا الشمشقيق صاحب القدح المعلى فى نيله من المسلمين ومقدساتهم، وبالطريقة التى تتواءم وطبيعة أخلاق روادها الأوائل نواة الحروب الصليبية المنظمة، ضمن مخطط توسعى شمال الجزيرة وأعالى الشام لتشهد أرضه العنف والموت والدمار، ومع بعض المشاهد..

فى سنة ٣٥٠هـ - ٩٦١م وقد استولى نقفور على بعض مراكز وحصون إقليم قيليقية فى الشام، والتابع للأمير سيف الدولة الحمدانى ومنها (عين زربى ) فأمر رجّالته وهم ستون ألفاً أن يقتلوا النساء والأطفال والرجال، أما من لاذوا بالمسجد رعباً وحماية من المجازر الجماعية التى لحقت بأهلهم وذويهم « فخرجوا مزدحمين، فمات بالزحمة جماعة، ومروا على وجوههم لا يدرون إلى أين يتوجهون فماتوا

---

( ١، ٢ ) ابن الأثير: الكامل ٦/ ٣٩.

في الطرقات، وقتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار»[1].

وقبل حملهم الأسلاب، هدموا سور المدينة، وفي طريق عودتهم وجدوا حصنا وكانت طريقتهم في إعطاء الأمان لأهله أن يغادروه، وأمام ضعفهم خرجوا «فتعرض أحد السفهاء الأرمن لبعض حرم المسلمين»[2]. وللغيرة التي يفتقدها الأرمن جرد المسلمون سيوفهم، مما جعل نقفور يأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا أربعمائة، ثم أجهز على كافة النساء والأطفال ولم يترك إلا من يصلح للرق. وعاد من هذه الجولة عندما أدركته أيام الصوم!!!

ويبدو أن التعطش لدماء المسلمين وحرق مدنهم هواية نقفور المفضلة كما كشفت عنها أعماله البشعة في حقهم.

فقد أغار سنة ٣٥١ هـ على مدينة حلب وساوموا أهلها على أعراضهم لقاء تأمينهم، ولما كان هذا مطلب المتحللين أخلاقيًا، فقد أبوا بشمم، مما جعل المعتدين يشرعون بقتلهم «ولم يرفعوا السيف إلى أن ملوا وضجروا»[3] ثم أحرق نقفور البلد، وحين تركها بين دهشة أصحابه لرفضه تملكها أجاب:

«قد بلغنا ما لم يكن الملك يؤمله وغنمنا وقتلنا وخربنا وأحرقنا وبلغنا ما لم يسمع بمثله»[4]. ليعاود الغزو سنة ٣٥٨ هـ - ٩٦٨م في رحلته الأخيرة إلى الشام بعد أن أخضع شريطًا واسعًا من المدن الإسلامية لبطشه حتى أنه «أقام في الشام شهرين يقصد أي موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد»[5]!! فكانت طرابلس أولى المدن الساحلية التي تعرضت لتدميره بإحراقها.. ثم (عرقة) التي نهبها وسبى أهلها.. ثم ليتوجه بمسيرته -الشجاعة- إلى حمص فأحرقها رغم

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٢٧٢، ٧/ ٢٧٣.

(٣، ٤، ٥) المصدر السابق ٧/ ٢٧٤، ٧/ ٢٧٤، ٧/ ٣١٣.

خلوها لفرار أهلها المذعورين لكنه فشل أمام أنطاكية وحلب بعد أن أعدوا له. فعاد يجر من ورائه مائة ألف أسير وأسيرة على أمل العودة.

لم تأت جولات نقفور الاستطلاعية والمهاجمة معا لأعالى الشام والعراق من فراغ أو نزهة.. إنما قصد اتباعها بجولات لإمكانية استعادة سائر ما أصابه المسلمون خلال فتوحاتهم الأولى، وكما تترجم قصيدته:

ومسكن آبائى دمشق فإننى
سأرجع فيها ملكنا تحت خاتمى

كذلك نصيبين وموصلها إلى
جزيرة آبائى وملك الأقادم

أما القدس فلها الحظ الأوفر من طموحاته ومراميه:

وأعود إلى القدس التى شرفت بنا
بعز مكين ثابت الأصل قائم

وأعلو سريرى للسجود معظمًا
وتبقى ملوك الأرض مثل الخوادم(١)

لكنه لم يحقق شيئًا من ذلك.. فقد قبر فى نفس السنة قبل أن يطول أمد استرساله فى أحلام اليقظة وتهويمات قصيدته.

**ترى هل توقفت حملات الإبادة؟!**

---

(١) عمر كمال: مقدمات العدوان ص١٠٣.

## الكنيسة.. رسول حرب!!

يبدو أن الحروب التى شنتها بيزنطة تلك الآونة لم تكن بمستوى الطموح الذى يرضى البابوية، خاصة وقد أرسلت بيزنطة وفدها تستنجده حمايتها من الأتراك، ليجدها البابا أوربان فرصته لضرب عصفورين بحجر واحد، فإرسال الجيوش سيعنى على المدى البعيد إخضاع الكنيسة الأرثوذكسية فى بيزنطة لكنيسة القديس بطرس فى روما ذات المذهب الكاثوليكى، وحيث مقر البابوية. كما أنها ستكون طوق النجاة للتخلص من العنصر النورمانى ذى الميول الحربية وكرهه لأجواء السلم، بل وإثارته للكثير من المشاكل والقلاقل غرب أوربا وقد سبق لهم فى منتصف القرن الخامس غزو الدولة الرومانية وهددوا مقر البابوية ذاتها، إذن فليشغل البابا هذا العنصر المتبربر للتخلص من المسلمين حسب وصيته من خلال خطبته..

«اسمعوا وعوا.. أنتم يا من تتحلون بشارة الفروسية ويملؤكم الغرور والكبرياء فتهاجمون إخوانكم، وتمزقون بعضكم بعضاً. ليست هذه هى الجندية الحقيقية فى سبيل المسيح الذى يدعو إلى حماية رعاياه.. فعسى أن تكفوا أيديكم القاتلة عن تدمير إخوانكم.. ولتجعلوا من أنفسكم خصوماً للأمميين فى سبيل مصلحة إخوانكم فى الدين»[1].

وأمام التحريض البابوى انطلق الدعاة الجوالون يستنهضون الجماهير بخطبهم الحماسية الجذابة المؤثرة أمثال بطرس الناسك الذى أينما توجه انضم إليه الرجال والنساء مبهورين بمواعظه حتى إن (جيبرت نوجنت) الذى تربطه به معرفة لم يخف إعجابه بهذه الشخصية حتى قال:

---

(١) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ص١٠٩.

« كا يردده بطرس أو يعقله، يتراءى على أنه من صنع الله »[1].

على أنه لم يكن جديراً بهذه الأوصاف وافتتان الجماهير بشخصه، ففى أول جولة هرب وترك أتباعه يلاقون مصيرهم فى حصار أنطاكية، ليلقى القبض عليه سريعًا ويعاد مهانا إلى المعسكر!!

على أية حال كانت الجموع تلتف حوله أينما ذهب فى رحلة جهاده إلى الأراضى المقدسة، حتى إذا وصل بولونيا بلغ أتباعه أكثر من خمسة عشرة ألف شخص قبل أن يعبر إلى المانيا، رغم أن بطرس هذا ذو هيئة رثة وصفته المصادر التاريخية بأن وجهه شديد القرب من حماره الذى يلازمه! » بيد أنه كان خطيبًا مفوها يمتلك من أساليب الجاذبية والإقناع ما جعل الآلاف من الطبقات الشعبية وغيرها تسير بمعيته وتتبرك به.. هذا عدا من تبعه وهو يغادر الحدود الألمانية إلى جانب مريديه الذين قادوا حملات، أبرزهم والتر المفلس وجوتشالك، حتى خرجت خمسة جيوش.. غير أنها لم تلق تشجيعًا من البابا الذى كان يطمح إلى جيش مدرب وقوى يضم فرسانا من النبلاء والأمراء والأثرياء الذين بوسعهم تمويله وتحقيق النصر. حتى أسفر عن ثلاثة جيوش قوية مؤهلة..

وخرجت جميعها ما كان من الحملات الشعبية أو الرسمية، تحت راية الصليب وإشارته التى تحلى ملابسهم، ترافقها كلمات البابا المحرضة..

« .. إن من حقكم يا جنود المسيح أن تدافعوا عن بلادكم بالسلاح »[2].
هكذا انقلبت تعليمات الكنيسة الداعية إلى السلام حربًا عسكرية ذات جيوش منظمة تبررها بواعث الحرب المقدسة والحج!

---

(١) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/ ١٧٠.

(٢) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ١١١.

هذه الحملات الشعبية منها أو الرسمية كانت تشيع الدمار منذ خروجها مجتازة دول أوربا أثناء مرورها لتغدو نقمة على أبناء دينها.. قبل وصولها إلى أرض الأعداء (المسلمين) مما يكشف ابتعادها روحيًا عن الهدف الذى خرجت من أجله.

ونقف أمام بعض المحطات التى شهدت كوارث مسيرة «جيش الرب» أثناء اجتيازها دول أوربا التى انطلقت منها.. مرورا بالعاصمة البيزنطية وصولاً بالأرض.. الهدف!!

## الحملة الشعبية!

يكفى الوقوف أمام محطة واحدة للحملة الشعبية التى ضمت أفراداً مختلفى المشارب والبيئات من الفلاحين، وفقراء المدن والمغامرين واللصوص، إلى جانب الأفاقين والقتلة وحتى الزناة، كما ضمت عوائل معدمة منها أطفال ونساء وشيوخ.

كان الجوع يعض هذه الجموع.. فلا تجد لها مفراً من سرقة ما تصادفه فى طريقها حتى لو اضطرت إلى قتل الأبرياء ضاربة بالتعاليم الدينية عرض الحائط.

وبعد مسيرة أحد زعمائها «والتر» مشجعاً أعمالها الغوغائية من نهب وقتل، كان بطرس الناسك مع حماره الشهير وجيشه يسلكون ذات الطريق التى سار فيها والتر، حتى وصلوا أمام حدود المجر، فأذن لهم ملكها وأحاطهم بالعطف كما فعل مع والتر، كما حذره جنوده من النهب الذى سيلقى بسببه جزاءً رادعاً، على أن المتاعب الحقيقية بدأت تظهر ثانية فى مدينة سملين، حيث ارتاع جيش بطرس وهو يرى أدوات رفاقهم القتلى من جيش والتر معلقه فوق المدينة، الأمر الذى أدى إلى شغب تطور إلى معركة استولوا فيها على قلعة سملين ولقى أربعة آلاف مجرى مصرعهم!

وكان لابد من هرب بطرس وجيشه فى زوارق صنعوها فى بلغراد، لكن غرقت معظم سفنهم خلال مطاردة قوات المدينة لهم، مما جعلهم يشعلون النار فى المدينة بعد نهبها حتى وصلوا نيش بعد أسبوع من السير فى الغابات متخفين. وفى طريقهم إلى صوفيا عمد بعض الألمان من جيش بطرس إلى إشعال الحرائق فى الطواحين ونهب ماشية القرى التى مروا بها.

وفى أعقاب هذه المسيرة المؤسفة والمخجلة وصلت فلول جيوشهم المنهكة أرض بيزنطة، على أن تلك الكوارث بدت وكأنها حلت بأعدائهم المسلمين لا بأبناء الدين الواحد. ومع ذلك فقد استقبل الإمبراطور بطرس الناسك وشمله برعايته.

وأمام الدعاة وقد اتخذهم البابا أحد أهم وسائله الإعلامية لتحريض الجماهير واستنفارها لحرب دامية استهلتها بإخوانهم، فأثبتت بحق جدارتها لتقديم أول عروض مسرحيتها التراجيدية كان لابد أن تختم بفقرة من خطابه، بعد تأملها..

«فعسى أن تكفوا أياديكم القاتلة عن تدمير إخوانكم.. فلتجعلوا من أنفسكم خصومًا للأمميين فى سبيل مصلحة الدين»(١).

## «فرسان المسيح» فى الأرض البيزنطية:

كان لابد لجيش بطرس الناسك بعد تلك المجزرة أن يسلك طريقًا آخر متواريًا فى الأحراش، وقبل أن يصل بأسلابه مدينة نيش على الحدود البلغارية الخاضعة لبيزنطة، وقد سبقته شهرته، طلب حاكمها رهينة ضمانًا لحفظ المدينة. فدخلوا لكنهم أثاروا خلال الشراء نزاعًا مع أهلها أسفر عن إحراق طواحين المدينة وأكواخ سكانها الريفيين ليموتوا داخلها، ثم نهبوا الماشية وواصلوا مسيرتهم ولكن بعد أن أذاقهم حاكمها ما يستحقون من عقاب!

---

(١) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ١١٠.

وفى آب سنة ١٠٩٦م دقت هذه الجموع أبواب القسطنطينية، ولم تُجد نصيحة الإمبراطور لهذا الجيش الضعيف وزعيمه الذى سيمزقه الأتراك خاصة وقد سبق له تمزيق جيش بيزنطة فى موقعه ملاذكرت وغيرها. حتى إذا وطئ أرض الأعداء تصدى له الأتراك لينزلوا بهذا الجيش هزيمة أبادته!!

هكذا ترجمت هذه الجموع نداء البابا:

«ناضلوا فى سبيل هزيمة الأتراك وطردهم»(١) ولكن بأسلوب مناقض.

على أن مسيرتهم فى الطريق إلى أنطاكية لم تسلم من زرع الدمار حتى إن المؤرخة «آناكومنين» ابنة الإمبراطور حناكومنين وصفت هذه المسيرة الوحشية لجموع الغوغاء التى شقت طريقها من بيزنطة متجهة نحو الأرض الإسلامية:

«كانوا يمزقون الأطفال أو يحرقونهم على النيران».

«كما أنهم كانوا يعرضون العجائز والمسنين لكل أنواع العذاب».

حتى كتبت: «لقد كان «جنود الرب» يخوضون حربهم ضد السكان بطريقة لا يرضى عنها الرب، أو المسيح»(٢).

هذه المآسى ونظائرها السابقة جعلت بعض الأوربيين يعتبرون الحركة الصليبية على وجه الخصوص بعد سقوط بيت المقدس بأيدى المسلمين «دليلاً على أن الرب أنكر الحركة كلها ولم يتحقق حتى وقتذاك ما يبرر صداه فى كليرمونت (هكذا أرادها الله)»(٣).

وإذا أصاب الأراضى البيزنطية اعتداءات من قبل الحملة الشعبية بطابعها المعروف، فقد أصيبت العاصمة البيزنطية سنة ١٢٠٤م بما هو أفدح على يد

(١، ٢) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ص١١٠.

(٣) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/٢٠٥.

الحملة الرابعة، بقيادة ثلة من الأمراء والنبلاء على عهد البابا أنوسنت الثالث، التى باركها فى طريقها المرسوم لها التوجه نحو مصر. بيد أن ثورة داخلية نشبت فى القسطنطينية ضد إمبراطورها الكسيوس الخامس وقد لجأ ابنه إلى البابا مستنجداً.. فكانت فرصته الذهبية لابتلاع بيزنطة حينئذ تحقق حلم البابوية بسيادتها المطلقة وقد أخضعت كنيسة بيزنطة تحت لوائها!

تصف المصادر دخول ( جيش الرب ) المدينة:

« ووضعوا السيف ثلاثة أيام وفتكوا بالروم قتلاً، فأصبح الروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيئًا »(١). هكذا باتت أجمل وأغنى عاصمة مسيحية تئن من جراحها وفقرها.. و« جند المسيح » هؤلاء الذين حملوا شارة الصليب وخرجوا للدفاع عن ضريح المسيح والكنيسة الشرقية وإنقاذ إخوان الدين، لا يتورعون عن اقتحام أروع كنائس بيزنطة وأعظمها (آيا صوفيا) وتحويلها إلى مسلخ للبشر من أبناء دينهم.. فلا حرمة لرجال الدين من غير مذهبهم أو حتى لسنِّهم خاصة أمام مغريات كنور آيا صوفيا!!

« فخرج إليهم جماعة من القسيسين والأساقفة والرهبان بأيديهم الإنجيل والصليب يتوسلون بها إلى الفرنج ليبقوا عليهم، فلم يلتفتوا إليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة »(٢).

هكذا جاءت بداية الحملة الصليبية الرابعة لفرسان المسيح وحملة شارته.

## منابع البربرية.. وتحرير المسيحية!

لقد وصف البابا أوربان الثانى المسلمين « البرابرة فى هياجهم » كما ورد ضمن خطابه فى الفلاندز سنة ١٠٩٥م.

---

(١) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/٢٠٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٢٨٩.

وفيمن دعاهم بفرسان المسيح تارة وأخرى جيش الرب والشعب المقدس، وألقاب كثيرة أثبتت عدم جدارتها وجدواها، لكنها في عيونه وفكره توسم:

«قد يكونون قادرين على كبح وحشية المسلمين بسلاحهم.. وسيعيدون للمسيحيين حريتهم السابقة»(١).

ومع منابع الوحشية، وأسلوب معاملة البنادقة في تحرير المسيحيين الشرقيين، هؤلاء الذين ما إن ألقت بهم السفائن ضمن الحملة الإيطالية على شواطئ عكا سنة ١١٩٠م لإنقاذها استجابة للبابا نقولا الرابع ظاهرياً، إذ نجد واقعها يخدم مصالحهم التجارية!!

هؤلاء «الذين ما إن هبطوا في عكا حتى تناسوا الهدنة القائمة بين الصليبيين والسلطان قلاوون. وأخذوا يشغبون في شوارعها ويجاهرون بفجورهم وسكرهم وإخلالهم بأمن المدينة ورأوا إنما جاءوا لقتال الكفار فهاجموا من خلال حماستهم الصليبية جموع التجار والفلاحين الآمنين. لقد أخذ الرعاع فجأة يقطعون شوارع المدينة ليذبحوا كل من يصادفهم من المسلمين، بل كان أحد أساليب التعبير عن حمقهم وتهورهم أن اعتقدوا أن كل ذي لحية مسلم، فهلك أيضاً عدد كبير من المسيحيين المحليين»(٢).

وفي ظل هذه الموجة المحمومة من الهياج الصليبي بات «الشعب المقدس» في ظل الصراع المسلح يأكل أبناءه فوق التراب العربي الإسلامي.

---

(١) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ص٢٣٤.

(٢) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ٣/ ٦٩٢.

وبقيت كلمات البابا أوربان: «يجب أن تبادروا بتقديم المساعدة لإخوانكم القاطنين فى الشرق.. لأن الترك قد هاجموهم»[1]. تنعى حظها!!

## فوق أرض المقدسات.. واعتذار متأخر!

وسقطت القدس مهبط الرسالات السماوية بأيدى الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ - ١٥ تموز ١٠٩٩م، فماذا فعل «جيش الرب» فى مسيرتهم للحج فوق الأرض التى شهدت ولادة نبى التسامح والسلام، عيسى عليه السلام!!

يكفى القول بأن المؤرخين المسيحيين ممن عاصر الحملة، أو المعاصرين لنا قد أكثروا من وصف المذابح التى تعرضت لها المدينة وأجمعوا على بشاعتها وقسوتها. فقد كتب المؤرخ وليم الصورى:

«شهدت عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة حتى أصبح البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم»[2].

وصفها آخر عندما زاد الحرم الشريف غداة المجزرة المريعة بأنه:

«لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا بصعوبة بالغة، وأن دماء القتلى وصلت إلى ركبتيه»[3].

أما (جروسيه) فيصف تلك المجازر بأنها «لطخة» فى تاريخ الصليبية.

ويختتم آرنست باركر هذا المشهد -كما وصفه قدامى المؤرخين، والذى جاء محصلته دماء إسلامية خاضها الناس بخيولهم ولا نرى بأساً من تكرار المشهد:

«ولما أنزل الليل أستاره، أقبل الصليبيون آخر الأمر إلى كنيسة القيامة وقد

---

(١) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ص١١٠.

(٢، ٣) سعيد عاشور: حركة الحروب الصليبية ١٩٢.

بكوا من شدة الفرح. وفى الكنيسة رفعوا أيديهم المخضبة بالدماء وصاروا يجهرون بصلاتهم »(١).

وروح التعصب هذه أثمر صداها حروبًا من الجانب الإسلامى استعيد فيها ما أخذ وعلى قول رونسمان: « ولم يثر التعصب الإسلامى من جديد إلا التعصب المسيحى »(٢) وشجرة الأحقاد هذه نتيجة طبيعية من غرس البابا تنميها صرخاته:

« سيروا على طريق الضريح المقدس، وحرروا هذه الأرض من الجنس الشرير وكونوا أنتم سادتها »(٣).

« وفى ظل زعامة يسوع المسيح قائدنا يمكنكم أن تناضلوا فى سبيل قدسكم، وفى خط قتالى مسيحى أشد قوة بل وبنجاح أكثر من نجاح أبناء يعقوب فى الزمن القديم »(٤).

« لقد خضتم غمار حروب كثيرة.. وسببتم لبعضكم بعض الأذى والدماء، لا لسبب سوى الفخر والمباهاة مما جعلكم تستحقون الموت الأبدى واللعنة الأكيدة، ونحن نقدم لكم الآن حربًا فيها من ثواب الاستشهاد المجيد الذى سوف يستحق الثناء الآن وإلى أبد الآبدين »(٥).

* * *

**حين زار أسقف كنيسة كنتربرى مصر بدعوة من جامعة الأزهر الشريف، قدم اعتذارًا عما ارتكبه الصليبيون يومها..**

---

(١) آرنست باركر: الحروب الصليبية ٧٠.

(٢) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية: ١/٤٠٤.

(٣، ٤، ٥) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية: ١١٠، ١١٠، ١١١.

**والسؤال: هل يكفى حقًا الاعتذار عن مجازر ارتكبت طوال أربعة قرون؟!**

## الأسرى.. معادلة مجحفة!

إذا كانت الدولة الإسلامية على مدى عصورها لم تشن حربًا تعسفية تجاه أعداء الدين وتذل الأسرى، خاصة فى القرن الأول الهجرى، وقد بلغت الذروة من القوة والمجد. لأن محاور جهادها قائمة على أعمدة الرحمة والعدالة والنأى عن العبث ولو بقطع شجرة فى أرض العدو.. فما بالها نحو الإنسان وقد هبطت حقوقه من رب الخلائق توصى بحفظ كرامة الأسير؟!

لكن يبدو أن الدولة البيزنطية كانت تعيش نبض روما الوثنية متقمصة روح حكامها وسادتها أيام تسليتهم الكبرى فى حلباتها وملاعبها، وهم يشاهدون صراع العبيد ينتزعون حريتهم لقاء بطشهم بإخوانهم، أو صرعهم الوحوش الكاسرة التى جسدتها قصة (اندروكلس والأسد) بعبودية مقيتة.

كما حفظت الوثائق التاريخية أنماطًا من السلوك التعسفى مارسته بيزنطة مع أسرانا ومع كشف أسداف منها..

فهذه سرية إسلامية تخرج من طرسوس سنة (٣٥١هـ) تجوب النواحى تأمينا للحدود، فيطوقها الجيش البيزنطى.. وربما يرى قائدها أن أسر هؤلاء الأربعمائة عطف لا مسوغ له.. لذا أمر بإبادتهم «فقتلوا صبراً»[(١)]!!

وفى حلب الشهباء وقد أعمل الحيلة فى دخولها كاللصوص، ففتكوا بأهل المدينة التى فضلت الإبادة على أن تسلم لتاجر الرقيق (نقفور) «ثلاثة آلاف صبى وصبية، لكنه بعد هذه المجزرة وقد خلت المدينة من حماتها، قام بأسر

(١) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٣٥.

«بضعة عشر ألف صبى وصبية»[1] سيقت ذليلة مهانة لتباع إلى علوج الروم عبيداً وجوارى.

كما أسرف فى إهانة المسلمين حين بعث أهل طرسوس كتاباً إلى نقفور يسترضونه فعمد إلى رسولهم «وأحرق الكتاب على رأسه واحترقت لحيته»[2].

ويتواصل مسلسل إهانات الأسرى.. ففى إنطاكية الحصينة وقد اقتحمها سنة ٣٥٩ هـ بمساعدة نصارى حصن لوقا القريب منها ليقيموا هم فيها. فيعود نقفور بعد أن قتل جميع رجالها المسلمين وأسر شاباتها وشبانها.. ولكن ما مصير من بقى منهم؟!

لقد: «أخرجوا المشايخ والعجائز والأطفال من البلد وقالوا لهم: أخرجوا حيث شئتم»[3].

وما تقدم مؤشر خطير لما وصل إليه الحكام المسلمون من غفلة وخضوع نتيجة تفككهم. واختتم نقفور جولاته التخريبية سنة ٣٥٨ هـ فى نزهة مستعرضاً قوة جيشه، وجبروته أمام المدن الإسلامية فى الشام، وقد عاد منها بجيش ثان لكنه غض العود، بعمر الزهور من أسرى قوامهم «مائة ألف، ولكنهم من الصبيان والصبايا والشباب»[4] يساقون إلى سوق النخاسة بعدما اطمأن إلى خلو الساحة الإسلامية من نجبائها كالرشيد والمأمون والمعتصم.

## أسرى الوجه الصليبى:

رغم أن معاملة الأسرى المسلمين لم تكن جذورها قديمة العهد بالنسبة للبابا

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٢٧٤.

(٢، ٣) المصدر نفسه ٧/ ١٨٧، ٧/ ٣١٨.

(٤) المصدر نفسه ٧/ ٣١٣.

أوربان الثانى من خلال ما حوته وثائقهم من إذلالهم وعسفهم، يواصل سعار حربه تحت أحد نداءاته:

«إن المسلمين غزوا أملاك المسيحيين فى الشرق وأخذوا بعضهم أسرى.. كما قضوا على بعضهم بالتعذيب..»[1].

ولنتناول صلاح الدين كأحد أقطاب القادة المسلمين فى الحروب الصليبية، كيف كانت معاملته حيال الدخلاء الصليبيين؟.. لقد استنقذ ما يمكن إنقاذه، فالقدس حين استولوا عليها سنة ١٠٩٩م أحالوها مخاضة من الدماء، وهذا السبب وحده كاف، وقد استردها سنة ١١٧٨م ليدخلها وجيشه تحت أنصال السيوف كرد انتقامى لوحشيتهم يومها!. لكنه على النقيض «فقد أمن أهلها وخيرهم بين الإقامة أو المغادرة مع الاحتفاظ بسائر ممتلكاتهم. بل ومن فضلوا المغادرة «سير معهم من يحميهم إلى مدينة صور»[2].

وفى معركة حطين أبت رحمته وشهامته إلا تكريم الإنسان حتى الرجال من أعدائه ممن لو ظفروا به لقتلوه.. لكنه صلاح الدين، والبرد قارس لا يملك إلا تدفئة أسراه ثم سماحه من الاتصال بذويهم وتزويدهم ما يحتاجون قبل المغادرة.

ولعله بذلك يكون قد سبق كل ما وصلت إليه الأنظمة والقوانين الدولية أواخر القرن العشرين فى معاملة أسرى الحرب.. هذا.. لو طبقت!!

ومع إطلالة مستوحاة من الغزو الصليبى المدن الإسلامية ومعاملتهم أسرانا..

فالبرنس أرناط صاحب الكرك.. ذاك الأمير فى لقبه.. اللص فى سلوكه.. وعدو السلام فى مذهبه.

---

(١) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ١١٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٥٧.

وكنتيجة طبيعية لاستفزازه المسلمين وغاراته فقد شدد الناصر صلاح الدين في حصاره حتى « ذل وخضع وطلب الصلح »(١) وكانت هدنة أفادته لو استثمرها حقًا، لكن وصلاح الدين كان يعالج أمر حلب، إذ يسيل لعابه وتتيقظ لصوصيته أمام « قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال »(٢). كانت متجهة من مصر إلى الشام، ولم يكفه نهبها لكنه أسر الرجال « ونكل بهم وعذبهم وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة »(٣).

ولما ذكره الأسرى بالهدنة أجابهم الأحمق بقحة وتطاول على الذات النبوية الكريمة ليشهد هذا الانتهاك الدينى الصريح نهايته التعسة فى حطين.

ويبلغ الصليبيون أمام هاتين الوقفتين من الأسرى حداً.. ففى سنة ٥٨٧ هـ - ١١٩١م وعند المرج بين تل كيسان وتل العياضية، أحضر الصليبيون أسرى المسلمين « وكانوا زهاء الثلاثة آلاف، فى الحبال وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد، فقتلوهم صبراً ضرباً طعنا بالسيف واليزك الإسلامى يشاهدون ولا يعلمون ماذا يصنعون لبعدهم عنهم »(٤).

وإذا امتد سعار البربرية بدافع الحقد الدينى فى أرض الشام وعلى يد الحملة الصليبية الثالثة، فإن الحملة الصليبية الخامسة لم تخيب ظنون مصر تجاهها، فعلى أرض دمياط التى استبسلت وصمدت طويلاً أمام الحصار الصليبى تعرض المماليك الخمسمائة الذين أرسلهم السلطان الكامل نجدة للمدينة للأسر من قبل الصليبيين فأخذوهم وقتلوهم صبراً، ثم « وضعت رؤوسهم على الخنادق »(٥).

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ١٤٢.

(٣، ٤) ابن شداد: النوادر السلطانية ٢٧، ١٦٥.

(٥) أبو شامة: ذيل الروضتين ٢ / ١١٦.

وفى أفضل الظروف يكشف الرحالة ابن جبير، طرفًا من واقع مشاهدته أسرى المسلمين ومعاملة الصليبيين لهم: «ومن الفجائع التى يعانيها من حل بلادهم، أسرى المسلمين، يرسفون فى القيود، ويصرفون فى الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك، فى أسواقهم خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة، ولا يغنى الإشفاق عنهم شيئًا»(١).

وهذه المعاملة تبدو كريمة.. إذا استثنينا أسرهم خلال الحرب!!

ولعل هذه الوقفات -على قصرها- تغنى عن الاسترسال فى سرد قصص حول نساء انتهكت.. ودماء رجال سفحت دونما جريرة.

* * *

**إن أسرانا من المصريين والفلسطينيين الذين أجبرهم العدو الإسرائيلى على حفر قبورهم بأيديهم صيف ١٩٦٧م، وقد ظهرت جثثهم تستصرخنا شتاء ١٩٩٥م، كما أن ستة آلاف مسلم بوسنى دفنوا بمقبرة جماعية هى حصاد مذبحة (سربرنتيشا) فى تموز - يوليه سنة ١٩٩٤م.. لم تجف دماؤهم بعد.**

---

(١) ابن جبير الأندلسى: رحلة ابن جبير ٢٥٢-٢٥٣.



## الفصل الخامس

# فى عالم اللصوصية..

# ابتلاع المدن

كما أثبت واقع الأحداث زيف خروج الحملات الصليبية تحت غطاء حماية بيت المقدس وتأمين طريق الحجاج من «الكفرة المسلمين»، وغايتها الأساسية الاستيلاء على مدنهم التى تفيض باللبن والعسل، كذلك ثبت دجل دعاوى حماية إخوانهم فى الشرق من «البرابرة» الأتراك، بعد إسقاطهم بيزنطة وكنيستها.

لقد كان الشرق الأوسط مطمحًا للغزاة الطامعين من الشرق والغرب حتى تزامنت فرص الصليبية والتتار فى احتكار خيراته، وإقامة مستعمرات فوق أرضه، هذا إذا استثنينا تكالب الرومان ومن سبقهم فى العهود القديمة، ففى القرن العاشر امتهنت الدولة البيزنطية أسلوب القرصنة فى السطو على أملاك المسلمين.

على أن انتصار الأتراك فى معركة (ملاذكرد) فى القرن الحادى عشر سنة ١٠٧١م، ثم استيلاؤهم على أنطاكية سنة ١٠٨٥م أقضت مضاجع المسيحيين شرقًا وغربًا من رياح الخطر الإسلامى القادم من الشرق عن طريق «الأتراك»، جعلهم يدقون باستمرار أبواب البابوية لنجدتهم!!.. هؤلاء -المساكين- الذين استطاعوا أخيراً الظفر باستثارة حمية البابا أوربان الثانى حتى أعلن:

«يجب أن تبادروا بتقديم المساعدة إلى إخوانكم القاطنين فى الشرق.. أولئك الذين يحتاجون لمساعدتكم التى ألحوا فى طلبها كثيراً. لأن الترك.. قد هاجموهم كما يعلم الكثيرون منكم.. فإذا تركتموهم يتمادون أكثر من ذلك،

فستكون الهزيمة الكاملة من نصيب شعب الرب من المؤمنين..»[1].

وإن كان ثمة اعتداء على بعض الحجاج المسيحيين، فإنما عن طريق المصادفة من قطاع الطرق إبان الحرب الدائرة بين الأتراك والفاطميين.

ويبدو أن البابا أحب أن يذكر الأتراك المسلمين كقوم معتدين، ويتناسى لصوصية إخوانه إبان فترة ليست بعيدة اتخذت الدولة البيزنطية هجماتها المتكررة على المدن الإسلامية شكلاً مريعًا. ففي إغارة واحدة استطاع جيشها أن يثرى على حساب المسلمين التى كشفت المصادر طرفًا منها:

«.. وغنموا مالا يوصف كثرة، فلما لم يبق مع الروم ما يحملونه عليه من الغنيمة أمر الدمشتق بإحراق الباقى»[2].

بل لجوا فى أعمال الرعاع على مدن الرها والجزيرة ونصيبين وديار بكر، استباحوا فيها كل أنواع الإذلال والتدمير حداً اضطر أهلها الذهاب إلى بغداد حيث الخليفة «وقاموا فى الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين»[3].

بل وصل خطرهم إلى ابتلاع المدن الإسلامية وطرد أهلها ففى سنة ٣٥٩ هـ - ١٩٧٠م استطاع نقفور الثانى- إذا أسقطنا حساب القرى والقلاع والمراكز الصغيرة- الاستيلاء على مدن مهمة فى شمال الجزيرة والشام منها إنطاكية ومصيصة وطرسوس وملاذكرد حتى غدت مدن الشام تحت رحمته ليواصل خلفه حنا الشمشقيق الذى أعلن توجهه السياسى بإعلان هجوم كاسح على المدن الإسلامية كانت أقرب إلى الحملة الصليبية. وقد تحالف سنة ١٧٤٠م مع ملك

(١) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ص١١٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٢٧٤.

(٣) المصدر السابق ٧/ ٣٢٩.

ارمينية آشوت المتعطش للانتقام من المسلمين بعد أن أخضع المدن الإسلامية فى آسيا الصغرى، ولم تكن بلاد الشام التى تغلغل فى عمقها ليطرق أبواب بيت المقدس -بأفضل منها.

وحينما أغار على آسيا الصغرى، أخضع الرها وديار الجزيرة ثم نصيبين وديار بكر «فغنموا وسبوا، وأحرقوا وخربوا البلاد»[١] حتى إذا اتجهت أنظارهم نحو الموصل حمل صاحبها «أبو تغلب بن حمدان «مالاً كفه به»[٢].

وعن تفاصيل جولته راح منتشيًا يكتب لآشود:

«ستعرف أن الرب لا يكف عن حماية المسيحيين، وهو الذى أتاح لجلالتنا أن نخضع كل بلاد الشرق، وستعرف كذلك أننا استولينا على نصيبين مدينة المسلمين»[٣].

وفى ظنى أن سهولة هذه (النزهة) العسكرية -إذا جاز التعبير- جعل الشمشقيق يعتقد إمكانية الهجوم على بغداد وإسقاطه الخلافة كسلفه، بيد أن عمران بن شاهين، المعروف بجهاده الروم، استنفر المسلمين وأمر حاجبه بالتوجه لغزوهم، بعد أن أمر صاحب الموصل بتجهيز مؤونة الجيش القادم، وأمام هذا الدعم استبشر وعزم على غزو الروم.

وإذا كان هذا الواقع المؤسف حقًا لما بلغه المسلمون.. فهل يتصور أن تجهز الحملات الصليبية الضخمة خوفًا من توسع المسلمين؟!

إن دعوة البابا تتجاوز هدف تخليص الضريح.. فلقد كانت أوربا تعيش

---

(١، ٢) المصدر السابق ٧/٣٢٩.

(٣) عمر كمال: مقدمات العدوان ١٧٩.

الفوضى الاجتماعية والدينية والعسكرية التى أقلقت البابا فأعمل ذهنه طويلاً فى إمكانية التخلص منها، وخدمة الكنيسة فى آن واحد، وكان المتنفس توجيه نظره نحو الشرق الذى ينوء بالخيرات.. عن طريق الجيوش الغازية للاستيلاء على مدن (الأشرار) بزعمه. وهذه الأطماع البابوية ذات الغطاء الدينى كفلت له جيوشًا خرجت تحت فكرة الحرب المقدسة، ورغم دوافعها المتعددة لكنه وظف ما يخدم غاياته، وما يصادف أيضًا هوى فى قلوب فرسان غرب أوربا على الخصوص، والذى كان لبعضهم نزعات دينية خجلوا معها أمام نزاعاتهم الخاصة ليكفوا عنها وقد لامست أفئدتهم نداءات البابا كل حسب أهدافه التى خرج من أجلها:

«هذه الأرض تقطنونها، تحيط بها البحار وقمم الجبال. وهى تضيق عن استيعاب أعدادكم الكبيرة، كما أنها بلاد ليست موفورة الثراء.. إذ إنها لا تنتج إلا ما يكفى لزراعتها بالكاد. وبما أنكم تقتلون بعضكم بعضًا فلتنبذوا هذه الكراهية من بينكم.. سيروا على طريق الضريح المقدس.. وحرروا هذه الأرض من الجنس الشرير، وكونوا أنتم سادتها. فهذه الأرض التى يقول الكتاب المقدس إنها تفيض باللبن والعسل وقد منحها الرب ملكًا للمؤمنين..»(١).

والحقيقة أن هذه الدوافع كانت تعيشها أوربا منذ أمد بعيد، كما أن الأرض التى تنتج وتفيض باللبن والعسل، لم تكن جديدة، فقد وردت ضمن أحد إصحاحات العهد القديم.. فلماذا تبرز الآن.. وكيف تتجانس الأطماع والسطو على خيرات الآخرين والدين؟. على أن من الحقائق التى لا يرقى إليها الشك أن البابا اتخذ من صراع النبلاء وأمراء الإقطاع عملاً مثمرًا يهدف به شغلهم بقتال (الكفار فى الشرق مستغلاً ميول فرسان غرب أوربا للحرب ضامنا بذلك خدمة

---

(١) قاسم عبده: الخلفية الأيديولوجية ص١١٠.

الكنيسة اللاتينية أيضا، ولو أن الحرب حقًا حرب مقدسة لما أهمل شأن الفقراء الذين تحمسوا للخروج تحت راية الصليب!!

وكان لابد لخروج جيش الطامعين، من استثارتهم بوعود خلابة تدغدغ آمالهم وطموحاتهم عن طريق الاستيلاء على مدن وإقطاعيات واسعة، عبر إشارات لماحة يدعمها ذكاؤه فى إثارة مشاعرهم الدينية مع الوعود بمكاسب دنيوية.. إلى جانب التلويح بغفران ذنوبهم أيضاً:

«ناضلوا فى سبيل هزيمة الأتراك وطردهم، إنه لجميل أن تموتوا فى سبيل المسيح، وفى المدينة التى مات فيها المسيح من أجلنا، كما أن أملاك العدو ستكون لكم، وعندما تستولون على كنوزهم وتعودون إلى ذويكم منتصرين، وإذا ما خضبتكم دماؤكم فإن المجد الأبدى سيكون من نصيبكم»(١).

إذن فالدعوة الاستعمارية صريحة ومفتوحة دون قيد أو شرط فى حق انتزاع الأرض الإسلامية وتملكها. وكان لابد من إطلاق مارد الأطماع من قمقمه، فالأمير بوهيموند الأول، ابن جيسكارد، هذا المحارب النورماندى الجشع، ما إن سمع بتوجه الحملات نحو الشرق المنعم، حتى سارع بالالتحاق على رأس حملة مع ابن اخته تانكرد وآلاف المغامرين الطامعين تحت راية الصليب ليكشفوا عن نفسيتهم الشريرة، وهم يسقطون أول مدينة إسلامية حيث أعلن العامة عن هياجهم ضد الإمبراطور البيزنطى الذى استولى عليها وحرم نهبها بموجب سيادته وتملكه لكل ما يفتحون من الأرض العربية.

أما الأمراء فقد اشترى صمتهم مسبقًا بإغراقهم بالمزيد من الهدايا والقطع الذهبية والتحف، مما جعلهم يطأطئون رؤوسهم له بما فيهم الأمير الورع ريمون

(١) قاسم عبده: الخلفية الأيديولوجية ص٣٣.

السنجلى الذى خرج باعتباره ممثلاً علمانيا للبابا.

ورغم العـداء المذهبى المتـوارث.. لكنه حـملهم على انتـزاع يمين الولاء له وتسليم المدن التى يفتحونها باعتبارها كانت قديمًا تابعة لبيزنطة.

ثم تتابع سقوط المدن الإسلامية، وبشكل ارتكبت فيه الفظائع البشعة، وغدت مستعمرات لهم. بل إن حامى الكنيسة وملك بيت المقدس بلدوين الأول تحول إلى قاطع طريق يهدد قوافل الحجاج والتجار وينهبها.. بعد نهب مدنهم أيضًا!!

وإذا ما شعر المسلمون بالغربة وهم فى أرضهم، فقد ذاق طعمها أيضًا المسيحيون من قبل إخوان الدين عندما احتلوا عاصمتهم بيزنطة ليحلوا فيها إمبراطوراً لاتينيا فتوج -قبل تتويجه- حلمهم بتحويل الكنيسة الأرثوذكسية إلى كاثوليكية[1] محققة مساعى البابوية الحثيثة.

***

**فى سنة ١٩٦٧م استولى العدو الإسرائيلى على مدن عربية إسلامية أشرفها «القدس» وحولوها إلى عاصمة لهم، لتنتقل حمى سرقة المدن الإسلامية إلى دول البلقان وآسية الوسطى شرق آسية.**

## غرامات وأتاوات:

يمكن رسم صورة للإمبراطورية الإسلامية عبر ما قاله الرشيد يومًا وقد استلقى، متابعًا غيمة مثقلة تدفعها الريح بعيداً: أمطرى حيث شئت فإن خراجك إلىّ!!

---

(١) انظر جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين: ص٢٢٨ دار المعارف مصر ١٩٦٣.

هذه العبارة التى تشير إلى عظمة وترامى أطرافها أصبحت من الضعف حالة تركت بيزنطة تغير على مدنها، مشترطة على بعضها كمدينة حلب، فإلى جانب فرض الأتاوة، تمكين « الروم إذا أرادوا الغزاة لا يمكّن [ حاكمها ] قرعويه، أهل القرايا من الجلاء عنها ليبتاع الروم ما يحتاجون إليه منها »(١)!!

بل نجد بعض المدن قد سارعت -كرهًا- لضعفها أمام الإمبراطور الغازى « يبذلون له أتاوة ويطلبون منه أن ينفذ إليهم بعض أصحابه يقيم عندهم »(٢).

وفيهم من يتمسح بأذيال الإمبراطور، كما فعل الخائن ( أفتكين ) صاحب دمشق سنة ٩٧٥م حتى انتهى نهاية سيئة نتيجة خداعه.

ومع أن نظام الضرائب والمكوس متعارف عليه بين البلدان، فقد أزعجت أوربان الضرائب الإسلامية على الحجاج المسيحيين، لكنه غض الطرف عن تعسف بيزنطة حيال الحجاج وخيولهم أيضًا زمن باسيل الثانى، والإمبراطورة تيودورا، الأمر الذى أرهق حجاجهم الفقراء مما جعل البابا ليو التاسع يطلب إلغاء هذا القرار، بل تبين أن للإمبراطورة موظفين فى بيت المقدس يجمعون الضرائب إبان سيطرة الدولة الفاطمية. كان ذلك أبان القرن العاشر الميلادى.

لكن يبدو أنها ذريعته لشن الحرب:

« فكروا فيمن يقومون بالحج عبر البحر.. تأملوا ما يدفعونه من ضرائب وما يتعرضون له من عنت لأنهم مضطرون لدفع الضرائب والأتاوات، حتى يسمح لهم بالدخول من كل بوابة من بوابات المدينة »(٣).

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٣١٨-٣١٩، ٧/ ٢٨٧.

(٣) قاسم عبده: الخلفية الأيديولوجية ١١١

هل غاب عن بال البابا أن الحاج المسلم أيضًا كان يعانى من هذه الضريبة عند اجتيازه المدن الخاضعة للنفوذ الفاطمى فى ظل تلك الفترة، حتى إن الرحالة ابن جبير عانى من هذه الظاهرة، وقال:

«فالحاج معهم لا يزال فى غرامة ومؤونة إلى أن يسهل الله رجوعه إلى وطنه»[1] وما دام المسلم والمسيحى يتساويان فى الضرائب فما معنى غضب البابا!.. ربما نسى (الجد الأعظم حامى المسيحية) أن الجشع فى بابوية روما، وليس فى المسلمين، لأنها تفرض الضرائب كما تهوى، الأمر الذى جرها إلى صدام مسلح مع ملوك نافسوها اللصوصية!.

بل إن فيليب الرابع ملك فرنسا، وأدور الأول ملك انجلترا فى صراعهما «وقد شعر كلاهما بحاجته إلى المال حتى شرع بفرض ضرائب جديدة على رجال الكنيسة فى بلاده»[2] مما أهاج البابوية فأصدر البابا «بونيفيس الثامن» قرارًا سنة ١٢٩٦م بحرم فرض أية ضرائب على رجال الدين.

إن القرصنة وفرض الأتاوات التى مارستها البابوية وملوك أوربا، ذات إرث عريق حافل بالصدامات، كما حدث بين جريجورى السابع وهنرى الرابع.. والبابا أنوسنت الثالث وفردريك الثانى بقرار الحرمان، كما حصل للإمبراطور فردريك الثانى الذى وقعه عليه البابا جريجورى التاسع، حيث جاء فى البند الثالث عشر والرابع عشر: «ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه جمع ضرائب وأموالاً من الكنائس والأديرة فى مملكته مخالفًا بذلك اتفاقية الصلح..

ونوقع عليه الحرمان واللعنة لأنه فرض على رهبان ومقدمى أديرة السسترشيان

---

(١) ابن جبير الأندلسى: رحلة ابن جبير ٤٨.

(٢) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ١ ص٥١.

-وغيرها من المنظمات الديرية -ضرائب شهرية يستغل حصيلتها فى بناء قلاع وقصور جديدة »(١).

كما أن الإمبراطور قنسطنطين « ضاعف الضرائب والخدمات الجمركية وأنزل طبقة الصناع مرتبة العبودية، وجعل الحرف والأعمال وراثية حتى لا يفر أصحابها من قسوة الضرائب »(٢).

هذا طرف مما يجرى فى أوربا لفرض ضرائب مجحفة أدت إلى صراع كان سنة بين الملوك والبابوات، فلا غرابة فى انتقال هذا التكالب إلى أرض إسلامية أتى به الغزاة الصليبيون على الرغم من عدم خلوها من حاكم مسيحى كصاحب الرها، الذى اشتط فى جباية الضرائب مما شكل أحد المبررات الأساسية للإطاحة به.

وبالنسبة للصليبيين.. فعلاوة على طرق الملاحة البحرية التى سيطروا عليها.. وملأت خزانتهم، لم تسلم المدن الإسلامية الخاضعة للنفوذ الصليبى من دفع الضرائب سواء فى المشرق أو المغرب حتى مع أعظم ملوك الطوائف، كالمعتمد بن عباد، حيث كان « يؤدى إلى الأذفونش ضريبة كل سنة »(٣). حتى إذا تضاءلت هذه النسبة فى نظره طمع بأكثر منها، الأمر الذى انتهى بمعركة الزلاقة الشهيرة سنة ٤٧٩هـ - ١٠٦٨م التى انتصر فيها المسلمون على الفونسو.

أما أرناط فقد استغل شرط الهدنة الخاص بحرية التجارة بين الصليبيين وبين صلاح الدين لمآربه، ففرض الضرائب والمكوس، وإن سماها المؤرخ المعاصر آرنست بما ينطبق على هذا اللص، حيث ذكر: « .. بما فرضه من الأتاوات على القوافل الإسلامية »(٤).

---

(١، ٢) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ١/ ٥١٠، ١/ ٤٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٢٣٩.

(٤) آرنست باركر: الحروب الصليبية ١٧٧.

أما بوهيموند الأول الذى ما إن أطلق المسلمون سراحه لقاء فدية فى سنة ٤٩٥هـ - ١١٠٦م... ومن أجل الالتزام بتأديتها عاد إلى أسلوب القرصنة «فأرسل إلى أهل العواصم وقنسرين وما جاورها يطالبهم بالأتاوة»(١).

أما البابا كليمنت الثالث فقد فرض ضريبة العشور القاسية لتجهيز الحملة الصليبية الثالثة.

## لصوص المقدسات!

لم يؤثر فى التاريخ الإسلامى أن امتدت يد خليفة على امتداد عصور الخلافة، إلى نفائس المساجد والجوامع، ولم يعرف عن ملوكهم وعامتهم ذلك لأنها مقدسة. وينسحب هذا إلى غير المقدسات أيضًا فيحرم أخذها كالقناديل الذهبية حتى البسط والحصير.

أما الممتلكات الكنسية سواء المتواجد منها فى أوربا أو بلاد المشرق، فما أسهل ما تمتد أيدى رعاتها لسرقتها. ولكن نشبت صراعات مريرة لإخضاع أراضى وإقطاعيات بين البابوات وملوك أوربا. أما سرقة الكنائس فمسلسله قديم قدم البابوية. فرجلاً مسن كالبابا يونيفيس الثامن لا يتورع عن استغلال منصبه لإثراء أقاربه من أملاك الكنيسة «مما أضر بسمعته وسمعة البابوية»(٢).

كما نجد هناك من الأباطرة الرومان من تمتد يده إلى كل كريمة من كرائم الكنائس.

أما الإمبراطور فردريك الثانى الذى لم يعبأ بالبابوية، فقد لجأ البابا جريجورى

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٥٦.

(٢) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ١/ ٥١٠.

التاسع إلى إنزال عقوبة الحرمان بحقه سنة ١٢٣٩م، وكما ورد فى أحد بنود القرار: «لأنه نهب الأسقفيات والكنائس والأديرة فى مملكته وجردها من كل ما فيها من متاع»(١).

أما الملك فيليب الرابع فقد كان نموذجًا مبتكرًا فى السطو. فالمعول عليه قيامه بحملة صليبية فبدت كأنها مستودع للحصول على أموال الكنيسة ومصادرة أموال الداوية سنة ١٣١٢م، بيد أن البابوية فطنت لذلك بعد فوات الأوان. وإذا قدر لهما السطو الانفرادى فلا يمنع هذا فى حقبة زمنية استنجد فيها البابا جريجورى الثالث بالملك شارلمان ضد اللومبارديين الذين ضاق بهم ذرعًا وقد تعرضوا للكنيسة البابوية فى روما «حيث سلبوا القديس بطرس ممتلكاته»(٢).

وإذا كانت البابوية لا تتورع عن سطو ممتلكات الكنيسة، فإن تزوير الحقائق ضد المسلمين ليست ببعيدة عنهم!!

فالبابا أوربان يصرح:

«إن البرابرة فى هياجهم قد غزوا ونهبوا كنائس الرب فى الأقاليم الشرقية»(٣).

ومع بعض صور «جيش الرب» لحماية مقدساتهم وهم يجوسون شوارع القسطنطينية وقد استباحوها سنة ١٢٠٤م ضمن حملتهم الرابعة «ولم يفلت من التخريب الأديرة والكنائس والمكتبات»(٤).

---

(١، ٢) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ١/ ٧٣٠، ١/٧٠٥.

(٣) قاسم عبده: الخلفية الأيديولوجية ٢٣١.

(٤) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ٣/٢٢٢.

بل وصل الطيش ذروته عند اقتحامهم كنيسة آياصوفيا العريقة الضخمة «فقد جرت مشاهدة العساكر السكارى يمزقون الستائر الحريرية ويحطمون الأوانى الفضية الكبيرة، وداسوا بأقدامهم الكتب المقدسة والأيقونات»(١). كما «وتعرضت الراهبات للاغتصاب فى أديرتهن»(٢).

وجوسلين الثانى الذى كان عليه حماية أنطاكية والرها بعد مقتل أميرها سنة ١١٤٩م، لكنه «أخذ يوجه غاراته نحو نهب الأديرة المسيحية المتطرفة..»(٣) كما فعل سنة ١١٤٨ لنهب أديرة عند نهر الفرات.

بعد قرن ونصف القرن من نهب بيزنطة وعلى وجه التحديد سنة ١٣٦٥م كان حاكم قبرص يهاجم الإسكندرية، ثم استباحها، ومضى جنده فى هوسهم المحموم ينهبون كل ما يصادفهم انتقاما من المسلمين، حتى طالهم هذا الانتقام حيث «تعرضت الكنائس أيضًا للنهب على الرغم من أن سيدة قبطية باسلة سعت لإنقاذ شىء من كنور مذهبها الدينى على حساب تضحيتها بثروتها الخاصة»(٤).

هذه الأدلة الموثقة من قلب التاريخ تدحض اتهامات البابا أوربان.. بل على النقيض نلمس فى كلمته تلميحًا يشم منه تشجيع الصليبيين على السطو، متى عادوا إلى بلادهم بالكنوز المنهوبة، فسينالوا مباركة البابا.. والمجد الأبدى!!!

يدعم هذا إشارته اللماحة.

---

(١، ٢) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ٣/٢٢٢.

(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ٥٠٠.

(٤) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ٣/٢٢٢.

«كما أن أملاك العدو ستكون لكم.. وعندما تستولون على كنوزهم وتعودون إلى ذويكم منتصرين.. فإن المجد الأبدى سيكون من من نصيبكم»[1].

ومشروع السطو الذى امتهنوه بتشجيع البابا عرفه المسجد الأقصى عندما سقطت القدس بيد لصوص الحملة الأولى، وقد «أخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامى، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا نقرة، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا، وغنموا ما لا يقع عليه الإحصاء»[2].

هذا جانب ضئيل خلال استيلائهم على القدس. ولكن ماذا وقد غادروها بعد أن استعادها الناصر صلاح الدين؟!

وجد أن البطارقة اجتهدوا فى سرقة الصخرة حداً سبب استياء الفرنج أنفسهم، ليعيدها صلاح الدين كما تروى المصادر:

«وفرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها، فأمر بكشفها»[3].

وإذا استغربنا الفعل زال الغموض:

«إن القسيسين باعوا كثيراً منها للفرنج الوافدين إليهم من داخل البحر للزيارة، ويشترون بوزنه ذهباً»[4].

ويصف المؤرخ العماد الكاتب من وحى معايشته الأحداث كيف سرقوا كنيسة القيامة التى جاءوا كفرسان للمسيح لتخليصها:

---

(١) قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية ١١٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل: ٩ / ١٩.

(٣، ٤) المصدر السابق ١٠ / ١٥٨.

«وكنسوا كنائسهم، وأخذوا منها نفائسهم، ونقلوا منها الذهبيات والفضيات من الأوانى والقناديل والحريريات والمذهبات من الستور والمناديل»[1].

ولم يتركوا (القيامة) أقدس كنائسهم وأبهاها إلا وقد نهبت تمامًا «وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العسجد..»[2].

أما المؤرخ (فيلهارد دين) فقد كتب عن نهب عاصمة المسيحيين فى بيزنطة وكنيستها الشرقية قائلاً:

«ليس بوسع أحد أن يحصى الذهب والفضة والصحون والجواهر، ولا الثياب الحريرية الثقيلة، أو المنسوجات الحريرية، أو الثياب المصنوعة من فراء القندس، أو الفراء الرمادى أو الفضى، أو فراء السنجاب. بل لقيد خلعوا من سقوف وجدران الكنائس الفسيفساء الذى اشتهر بتصميمها الفنانان باسيل وإفرايم مع أحجارها الكريمة ليزينوا بهذه المسروقات كنائس روما!!!

كما يروى كيف تقاسم الصليبيون أثمانها حيث حصلوا على ثلثها وللبنادقة ثلثها وللإمبراطور اللاتينى الثلث الأخير».

وبهذا يسدل الستار عن بعض أعمال الحملة الصليبية الأولى بالنسبة لحماية كنائسهم من المسلمين، إلى جانب صورة من حملتهم الرابعة.

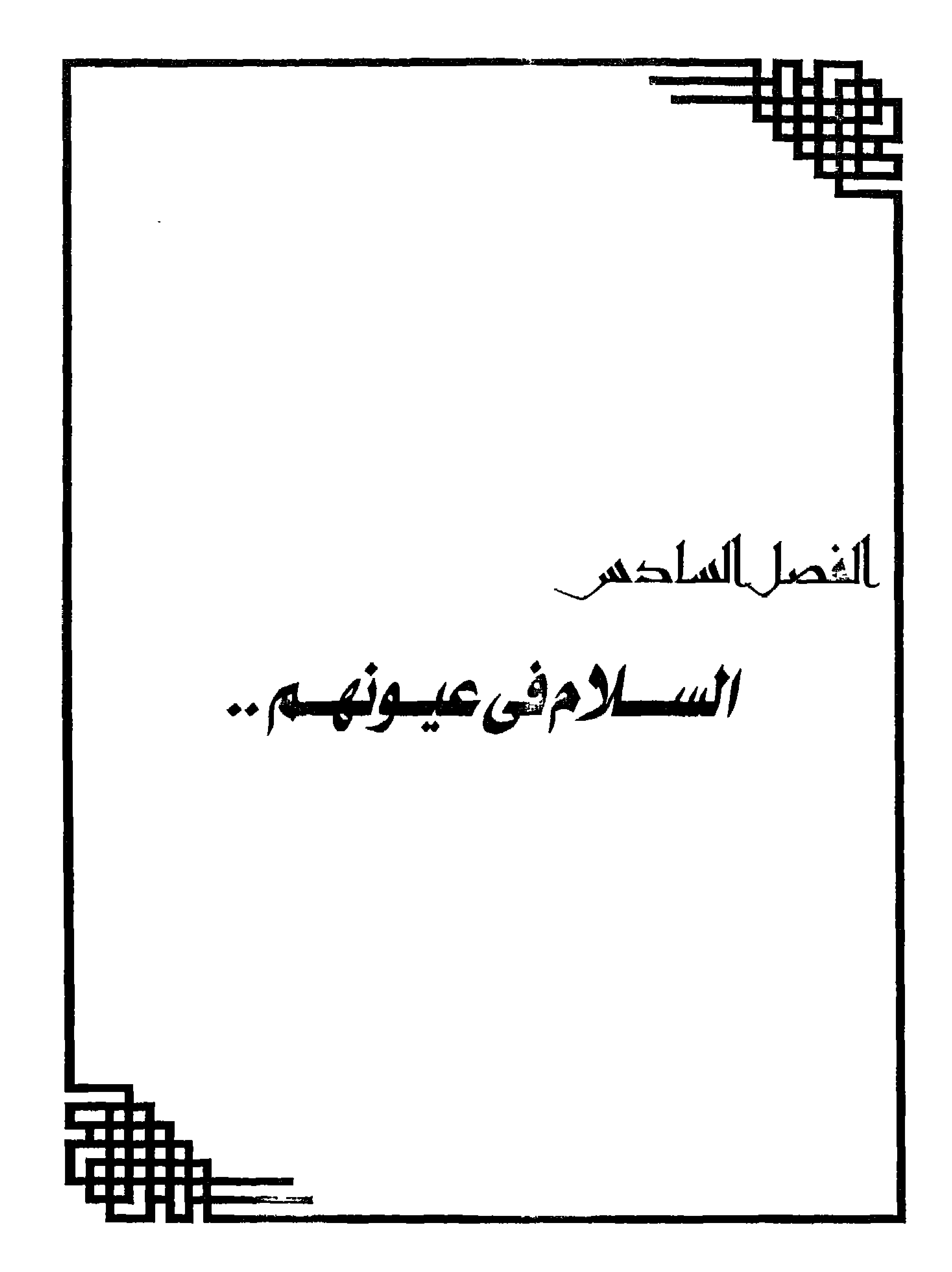
***

**فى سنة ١٩٧٩م اقتحمت قوات العدو الحرم الإبراهيمى فنهبت محتوياته ومزقت مصاحفه.**

**ولم يكن الصرب فى البوسنة أقل جرأة.**

---

(١، ٢) العماد الكاتب: الفتح القسى ١٣٥.



# الفصل السادس

# السلام في عيونهم ..

# الكنيسة بين السلام والحرب

مفهوم حياة الإنسان فوق الأرض الذى أشار إليه السيد المسيح قائم على المنهج الربانى، الذى يعتمد نشر السلام وتحقيق مبدأ الأخوة والمحبة والتسامح مع كافة البشر. . ولقد بشر بهذه المبادئ ضمن أقوال حفظها تلاميذه من الحواريين، ففى إنجيل متى ورد:

« سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر بالشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا ». متى ٥ / ٣٨ / ٣٩ وسار القسس والرهبان بهذه التعاليم سلوكًا من أجل السلام مع أنفسهم ومع الآخرين؛ ليقام حقًا فوق الأرض بين الأخوة الإنسانية. وتشكل بمجملها طبيعة الإنسان الشرقى فى أرض مهبط الرسالات السماوية الثلاث التى تحرم قتل النفس وسفك الدماء دون وجه حق. .

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ورد فى أحد بنود الوصايا العشر « لا تقتل ».

هذه التعاليم التزمتها الكنيسة الشرقية، ورأت حرمة قتل الإنسان لأخيه، وفى الحرب يعاقب الجندى القاتل. . ولو أرغم على ذلك كما حدث عند اشتراك الجندى المسيحى فى جيش روما الوثنية.

فقد « رأت الكنيسة الشرقية أن ذلك لا يجوز. فالفقيه الكنسى الكبير القديس « باسيل » على الرغم من أنه يقرر أنه يتحتم على الجندى أن يطيع

الأوامر، يصر على أن كل من يرتكب جريمة القتل فى الحرب، لابد من منعه لمدة ثلاث سنوات من ممارسة التناول تكفيراً عن خطيئته»(١) بل أن باسيل يذهب فى وقت الحرب درجة لا تمنعه التصريح بأن الموت فى سوح القتال ضد الكفار لا يمنح صاحبها الاستشهاد «فالشهيد لم يتسلح إلا بالإيمان»(٢).

ورد فى إنجيل متى: «سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تقتل ومن يقتل يكون مستوجب الحكم. وأما أنا فأقول لكم، إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم..» متى ٥/٢١-٢٢.

وهكذا يجد أن أسلحة الشهادة روحية فحسب، وعلى نقيض هذا تصرح الكنيسة الغربية ممثله بتحريض البابا أوربان الثانى.

## الحرب ضد أعدائها:

وتنطلق دعوة البابا عبر كلمته:

«إنه لأمر جميل أن تموتوا فى سبيل المسيح، وفى المدينة التى مات فيها من أجلنا .. كما أن أملاك العدو ستكون لكم عندما تستولون على كنوزهم، وتعودون إلى ذويكم منتصرين. وإذا ما خضبتكم دماؤكم فإن المجد الأبدى سيكون من نصيبكم»(٣).

إذن هو التصريح بحرب.. وسطو.. وقتل الإنسان. لكن ما سبب هذه الدعوة الدمويه المناهضة تماماً لروح السلام؟!

---

(١، ٢) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية: ١/١٢٥.

(٣) قاسم عبده: الخلفية الأيديولوجية ١١٠.

إن أول فكرة انبثقت حول إمكانية الحرب جاءت عن القديس أغسطين إذ «أقر بأن الحرب يصح أن تنشب بأمر الله»[1].

كما أن قانون الفروسية شجع هذه الفكرة، بمباركة الكنيسة وتشجيعها ما دامت صاحبة الامتياز فى جنى ثمرتها ،وما دام البابا يتمتع بحق -التفويض الإلهى-!!

ومن هذا المنطلق مضى البابوات يضيفون -بتعاقبهم- مراسيم تخدم مصالحهم.

ومن وقع فكرة الحرب الاستردادية الشرسة حربًا عادلة ومقدسة، انطلقت الجيوش تشعل أوارها شرقًا وغربًا. ومن هذا المبدأ واصل أباطرة بيزنطة شن الحروب ضد الغزاة، سواء الفرس منهم، سيما على عهد الإمبراطور هرقل. أو الجرمان فى أوربا حتى غزو إيطاليا، وهددوا أعرق وأقدس كنائس روما الخاضعة للنفوذ البيزنطى يومها، فكانت حربًا استردادية واسعة فى عهد الإمبراطور جستنيان خلال القرن السادس الميلادى. ثم مضت بيزنطة فى إشعال فتيل الحرب ضد المسلمين بقسوة رهيبة انسلخت فيها عن تعاليم المسيحية الأولى بسلامها ونقائها، ففى فخر يعلن الإمبراطور حنا الشمشقيق عبر رسالته إلى آشوت الثالث حوالى سنة ٣٦٤هـ-٩٧٤م، جاء فيها:

«ولقد قلبنا إقليم طرابلس كله رأسًا على عقب مخربين فيه تخريبًا كاملاً، الكروم وأشجار الزيتون والحدائق، وأينما مررنا كنا نشيع الدمار والحزن.

---

(١) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/١٢٦.

وتجاسر الأفريقيون [الدولة الفاطمية] المعسكرون هناك فاتجهوا نحونا، ولكننا انقضضنا توا عليهم وأبدناهم إلى آخرين»[1].

وإذا فسح المجال أمام أباطرة الكنيسة الشرقية بفضل أفكار أغسطين ينسفون تعاليم يسوع داعية السلام، بجيش يسفك الدماء ويشيع الدمار فوق أرض المسيح تحت مسمى سعادة الأرض التى فتحها المسلمون، فماذا عن الغرب؟

لا جدل أن فكرة الصراع المسلح لم تلق ترحيبًا لدى المسيحى المتمسك بأهداب الدين، بيد أنها وجدت قبولاً عند أرباب المصالح الدنيوية فتحمسوا لها وخاضوا الدماء من أجلها.

وهكذا فتحت البابوية فى الغرب ذراعيها معانقة ومباركة عندما تعرضت أوربا لموجات كبيرة من الغزاة النورمان، ذاك العنصر الوثنى ذو الطبيعة الحربية، والبيئة الاجتماعية التى تقترب من المغول، حيث غزوها واستوطنوا أراضيها.. وأقاموا فيها ممالك خاصة بهم.

ولعل من أشهر البابوات المتحمسين لفكرة حرب الاسترداد البابا جريجورى الأول ٥٩٠-٦٠٣م الذى تبنى فكرة الحرب (المقدسة) ضد النورمان. هذا البابا الذى دعم أملاك الكنيسة فى روما، فبلغت أوج اتساعها فى عصره. ووجد فى احتضانها الدفاع عن أملاكه.

كما أن هناك من لا يقل عنه حماسا فى اعتناق الفكرة المتعلقة بأملاك الكنيسة ضد أعدائهم فى أوربا عامة والمسلمين خاصة «جريجورى السابع» الذى حرض على حربهم فى أسبانيا «وليو الرابع» فى منتصف القرن التاسع، الذى رأى

---

(١) عمر كمال: مقدمات العدوان ص١٧٩.

ذبحهم!! .. لذا وجه الفرنجة لقتالهم سنة ٨٥٣ عندما استولوا على صقلية، ودخلوا روما وكنيسة القديس بطرس، ووعدهم بضمان الثواب فى الآخرة والخلود باعتبارها حربًا مقدسة!!

والحقيقة لم ترع البابوية الحرب ضد أعدائها فحسب، بل أسقطت آخر ترانيم السلام « المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وفى الناس المسرة » عندما خرج البابا « ليو التاسع » على رأس جيش إيطالى ألمانى سنة ١٠٥٣م ضد النورمان فاندحر فى معركة كيفتيانى وتم أسره ثم أعيد ليموت بعد أشهر محسوراً.

ويبدو أن البابوية ( يوحنا الثامن ) قررت أن من يموت فى الحروب المقدسة تمحى كل ذنوبه..

أما البابا ( الإسكندر الثانى ) فقد قرر أن كل من وقع عليه عقاب الكنيسة لما ارتكبه من ذنوب تغفر له، إذا حمل السلاح من أجل قتال الكفار ( أى المسلمين ) فى الأندلس وغيرها.

## وحرب ضد أتباعها :

والحقيقة التى حفلت بها الوثائق التاريخية تؤكد استمرار البابوية فى جهودها النشطة تحت تبرير حرب الاسترداد سواء من ترى فيهم أعداء الدين، أو من أبنائها المسيحيين وأصحاب المذهب الواحد، حتى دخلت فى سلسلة تاريخية طويلة تنوء بثقلها مجلدات من التحديات والمجابهات الساخنة مع الأباطرة أو الملوك، استخدمت فيها كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة حتى العسكرية منها لأجل الهيمنة وبسط النفوذ عن طريق الإرادة البابوية.. أليست هى « خليفة المسيح فى الأرض » بزعمها أن هذا الأمر أسفر عن مجموعة قرارات حرمان تهدد

بها وتوقعها على الملوك، لتأديبهم كهنرى الرابع والإمبراطور فردريك الثانى. بل أحيانًا يصدر قرار من الملك نفسه بعزل البابا كما فعل هنرى الرابع!.. بل واتخذت أحيانا طابعًا مأساويًا كما فعل الملك لويس السابع عندما أحرق كنيسة بمن فيها جراء صدامه بالبابا أنوسنت الثانى. بل لم يتردد الملوك من خطف وأسر البابوات، حتى ضربهم!

على إننا لا نغفل دور البابوية وجهودها لإقرار السلام فى ربوع أوربا بالنسبة للغزو الجرمانى. فقد أفلحت بعد تنصير هذا العنصر المحارب الشديد البأس بتوظيفه سياسيًا بطابع دينى، عندما انطلقت جيوشه بحماس فى الحرب الصليبية حين ظنت بأبناء الكنيسة المتشوقين للخروج على ما يبدو من خطابه إلى جماعة دير ( فالومبروسا ) سنة ١٠٩٦م، من خلال توجيه البابا أوربان:

«لقد سمعنا أن بعضكم يريدون الانطلاق مع الفرسان الذاهبين إلى القدس بقصد طيب لتحرير المسيحية، وهذا نوع التضحية الحقة. ولكن الخطة جاءت من أشخاص غير مناسبين. لإننا كنا نستفز أذهان الفرسان للذهاب إلى هذه الحملة. لأنهم يكونون قادرين على كبح وحشية المسلمين بسلاحهم ويعيدون للمسيحيين حريتهم السابقة، ونحن لا نريد لأولئك الذين هجروا العالم ونذروا أنفسهم للحرب الروحية أن يحملوا السلاح أو يذهبوا فى هذه الرحلة..»(١).

ومن هذا النداء نقرأ زيغ البابوية وتحايلها بصميم مبادئها، ففى الوقت الذى تربأ بالرهبان أن يحملوا السلاح، لا تتورع عن شن الهجمات الضارية ضد خصومها من المسيحيين، فمصلحتها فوق كل اعتبار رغم درايتها بويلات الحروب وآثارها.

---

(١) قاسم عبده: الخلفية الأيديولوجية ص٢٣٤.

إن الحرب كريهة بكل وجوهها ما لم تكن فى حدود التشريع الإلهى، فالإنسان السوى مجبول بطبيعته على إيثار السلام والتعلق بأهدابه.

لقد برز هذا الجانب واضحًا خلال الاتفاقيات والمعاهدات التى قامت بين المسلمين والصليبيين، يصفها المقريزى:

« وكان يوم الصلح يومًا مشهوداً عم فيه الطائفتين الفرح والسرور من طول الحرب، فاختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين، ووصل جماعة من المسلمين إلى يافا للتجارة »(١).

ومن أجواء المعايشة لهذه الحرب يصلنا رأى المؤرخة المسيحية حول الحرب: « فالأميرة آنا كومنين التى تعتبر نموذجًا خالصًا للمؤرخين البيزنطيين، شرحت فى تاريخها أنها بالرغم من شدة اهتمامها بالمسائل الحربية، وإمعانها فى تقدير ما أحرزه أبوها من انتصار فى المعركة، اعتبرت الحرب أمرًا مشينًا، وأنها ليست إلا الملاذ الأخير لا يصح الالتجاء إليها إلا عند كل فشل كل ما سواها من الوسائل. بل إنها فى ذاتها تعتبر اعترافًا بالفشل »(٢).

وفى هذا الرد إدانة لكل الحروب الصليبية التى قامت ضد المسلمين، فقد رأت آنا كومنين بعينيها طرفا من الأساليب البربرية والظلم الرهيب الذى أشاعته قوافل الحجاج المسيحيين آخذة طريقها نحو بيت المقدس، إضافة إلى أسباب خروجهم المجحف بحق المسلمين.

***

---

(١) المقريزى: السلوك ١ / ١١٠.

(٢) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١ / ١٢٦.

**هذه الحروب التى أشعلتها أوربا سنة ١٠٩٧م فوق ثرانا العربى، هل انتهت حقًا أم زالت تنقل مسارها حيثما تنفس المسلمون فوق هذه الأرض؟!**

## السلام الذى يعرفون!

لكى يشيع السلام فوق الأرض ينبغى للفاتحين أن يقدموا إلى أهل البلاد المفتوحة خبزًا مغموسًا بالحب والكرامة بعيداً عن القهر والإذلال والتهجير.

وأصحاب الرسالات السماوية لا شك أولى الناس بتقدير هذا النعت المشتق من اسم الخالق، وأدعى من يترجمه سلوكًا عمليًا.

والقدس.. هذه المدينة المقدسة الضاربة فى عمق التاريخ تروى كم من الهجمات والدمار الذى تعرضت له فى عصور ما قبل التاريخ منذ استيطان اليبوسيين فيها، فالفراعنة فالملك داود فالآشوريين والبابليين، ثم تعاقب الغزاة حتى ملكها المسلمون سنة ١٦هـ - ٦٤٢م.

هذه المدينة.. لم تنعم بالسلام والدفء الحقيقى حتى فتحها المسلمون، فتعاملوا مع أهالى البلاد بما يليق بهم من تكريم، وخاصة إذا كانت مدينة ولد فيها، أو عرج منها، أو أقام فيها الأنبياء والرسل، لتزدان بهالة قدسية. وإكرامًا لمكانتها الجليلة، وإقراراً بعدالة (الفاروق عمر) أبى قساوستها إلا تسليمه مفاتيحها دون غيره!

تلك كانت فاتحة عصر جديدة فى معاملة المدن عند الحرب، وجاءت (وثيقة العهد) لتذيق الشعوب حلاوة السلام وطمأنينة النفس إلى جانب التمتع بالحرية والعدالة حتى أنهم (أهالى القدس) لم يخفوا تصريحاتهم بانشراح صدورهم

لسيادة العرب؛ نظراً للمعاملة الطيبة التى لقوها بعد الحكم البيزنطى التعسفى حتى لنرى أحد البطاركة اليعاقبة يصرح:

« إن الله المنتقم، الواحد القهار، أثار أهل الجنوب من أبناء إسماعيل لإنقاذنا من أيدى الرومان »(١).

أما المؤرخ النسطورى المجهول فقد ذكر بأن « قلوب المسيحيين انشرحت لسيادة العرب؛ فليزد الله فى هذه القوة وليجعلها زاهرة »(٢).

إن قناعتهم هذه بالعرب لم تصدر اعتباطاً بل عن تجربة حقيقية لمسوها بعد أن عاشوا فى ظلالها.

ومع بعض ما ورد فى وثيقة العهد عكست فن التعامل مع الشعوب المغلوبة من منظور الإسلام:

« بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان؛ أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من حيزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بأيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء ان يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. ومن اقام منهم فهو آمن »(٣).

---

(١، ٢) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/٣٨، ١/٣٩.

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والممالك جـ٢ ص٤٤٩.

بمثل هذه الوصايا وغيرها مما حفلت به مضامين الحرية، عرفت الإنسانية ما لم تعرفه حتى اليوم أيما وثيقة اجتهدت نصوصها فى حفظ حقوق الإنسان.

لكن القدس.. وقد فتحها «جيش الرب» بعد المسلمين تدفقت الدماء أنهاراً وجرت لتروى قصة معاملة الغزاة لمواطنيها من المسلمين، بل ضاق بسوء معاملتهم المسيحيون الشرقيون من سكانها كالسريان واليعاقبة والأرمن لتعالى وغطرسة المسيحيين الغربيين، العنصر الدخيل، لذا جاء دورهم المساند لصلاح الدين، يفتح أبواب القدس سراً فسكان المدن وحدهم الذين يجيدون المقارنة بين الفاتحين.

كما أن الفرحة عمت خارج القدس.. فحمل إليه البريد مشاعر الغبطة والتشفى بخذلان الصليبيين، وإن كانت دوافعها الثأر بين بيزنطة والصليبيين، ويروى المقريزى:

«وجاءته تهنئة من الروم والفرس»[(١)].

ليست البطولة فى امتلاك المدن وفتحها تحقيقًا لكسب مادى «إنما البطولة الحقة امتلاك قلوب أهلها».

وإذا ما أعلن امبراطور بيزنطة فرحته بطرد الصليبيين تحت دافع الهيمنة واختلاف المذهب، فإن الإمبراطور فردريك الثانى رغم كونه كاثوليكى المذهب فقد تعامل مع المسلمين بجاذبية فيها الكثير من الحب والإعجاب والوفاء أيضًا. وهو صاحب الحملة العجيبة التى خرج على رأسها مكرها، يحمل سيف الافتتان بسحر الشرق، والإعجاب بالمسلمين ومشاهدة حضارتهم من خلال رحلته وخلفيته الثقافية الواسعة عنهم.

---

(١) المقريزى: السلوك ١/ ٩٧.

ويبدو أن لغة السلام التى حالفته بفتح القدس جلبت له المتاعب من -داعية السلام- البابا.

«لقد كان مجرد دخول القيصر فى مفاوضات مع (الكفار) وسماحه للمسلمين بالصلاة فى بيت المقدس، كافيين لوصمه بالخيانة والعار، فهو ابن الشيطان، وخارج عن المسيحية وجهنم هى مصيره»(١).

وحول افتتانه بروعة شعائر المسلمين قال وكل أمله من المبيت فى مدينة السلام: «أكبر غرضى فى المبيت فى القدس أن أسمع آذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل»(٢).

ولقد بقى هذا الإمبراطور الذى تشرب الحضارة الإسلامية، وحقق للبابوية عن طريق السلام ما لم تحققه الحروب الصليبية، مفتوناً وفيا للمسلمين لمعاملتهم الشعوب حتى آخر رمق من حياته..

«ففى بالرمو رقد فردريك رقدته الأخيرة مدثراً بثوب أحمر، وبجواره سيفه فى غمد عربى، وقد طرز العمال العرب بأحرف مذهبة ثوباً رقيقًا لفوا فيه جثة صديق المسلمين المعترف بأفضالهم، وعلى كم الثوب كتب هذا الإهداء بأحرف عربية. «هدية السلطان»(٣).

وعلى الجانب الآخر تقف الصليبية من المدن المفتوحة..

لقد وقف البابا مع مذبحة الإسكندرية حين استباح الملك بطرس لوزجنان حاكم قبرص الإسكندرية سنة ١٣٦٥م فى يوم الجمعة مستغلاً كونه يوماً يخرج

(١) هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ٢٢٩.

(٢) المقريزى: السلوك ١ / ٢٣١، وتروى المصادر الكثير من مشاجراته مع رجال الدين فى القدس.

(٣) هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ٤٦٠.

فيه جميع المسلمين نحو المساجد لذا «دخلها باطمئنان وأعمل السيف في أهلها. واستباحوا النساء، وأحرقوا القصور والأسواق. وعاثوا في المدينة يقتلون الرجال ويأخذون الأموال، ويخربون المساجد. وبلغ من وحشيتهم في تلك الحملة «أنهم كانوا يقتلون المرأة بعد أن يذبحوا ابنها على صدرها»(١).

وبعد مغادرتهم المدينة يوم السبت كاللصوص «أخذوا من الأموال ذهبًا وحريرًا وبهارًا وغير ذلك مما لا يحد ولا يوصف»(٢) وتخلصوا من بعض المنهوبات في البحر خشية غرق سفائنهم.. «وظل الغطاسون المصريون شهورًا يستخلصون التحف الثمينة من مياه خليج أبي قير الضحلة»(٣).

أما من أخذوهم قسرًا من المسلمين رجالاً ونساء بهدف أسرهم فقد «سمع للأسارى من العويل والبكاء والشكوى والجأر إلى الله، والاستغاثة به وبالمسلمين ما قطع الأكباد»(٤).

فما ارتكبوه من المذابح لا يضارعها همجية سوى اقتحامهم بيت المقدس سنة ١٠٩٩م ومجازرهم في القسطنطينية سنة ١٢٠٤م.

إن موقف لوزجنان من منهوبات الإسكندرية يذكرنا بموقف نقفور سنة ٣٥١هـ عندما نهب جيشه مدينة حلب ليتخلصوا من فائض المسروقات بحرقها وحرق المساجد وغيرها، مما أشرنا إليه في باب (ابتلاع المدن).

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ٩٦٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية: ١٤/ ٣٣٦.

(٣) رونسمان: تاريخ الحروب: ٣/ ٧٤٨.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية: ١٤/ ٣٣٦.

وكانت مكافأة البابا للوزجنان حاكم قبرص بنحر الإنسانية على مذبح استباحة الدم الإسلامى أنه «أرسل إلى بطرس لوزجنان مهنئًا، كما أرسل إلى ملوك الغرب وأمرائه يناشدهم أن يسرعوا فى تقديم المساعدة إلى ملك قبرص «الأسد الشجاع»(١)!!

لا تقتل.. لا تسرق.. لا تزن. هذه بعض الوصايا التى نادى بها كتاب العهد القديم، أحلها أصحاب (الكرسى الأقدس) من واقع غرامهم بنحر السلام!!!

## شذرات من التسامح الإسلامي:

رغم تعرض المسلمين لإبادات جماعية، وعلى ثرى بلادهم من قبل الغزاة الصليبيين وحروبهم الموسومة بطابع التعصب وسفك الدماء المجانبة تمامًا لروح المسيحية مع عدم اعترافهم بوجود ديانة أخرى غيرها، بقى المسلمون وتحت أصعب المواقف وأشقها محافظين على التعاليم الإسلامية، مؤثرين جانب التسامح عند الظفر بأعدائهم منذ أول فتوح العراق والشام، وحين دخل الإسلام مع الفاتحين فى المجتمعات الجديدة لم يحاول إذابة الأديان الأخرى!

وانطلاقا من هذه القاعدة أبقى لأهل البلاد المفتوحة حرية العبادة وأماكنها بدءاً من أصغر صومعة حتى أضخم كنيسة.

هذه المعاملة الكريمة جعلت ثيودسيوس بطرك بيت المقدس يكتب إلى زميله اجناتيوس بطرك القسطنطينية مشيداً بعدالة المسلمين وعطفهم وبأنهم قوم عادلون لا يؤذون أحداً..

إن سماحة الإسلام وسلوك أهله من الفاتحين أدت إلى انتشار الكنائس

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية: ٩٧٠.

فتواجدت بكثرة على أرض فلسطين، مما أغرى الكلونيين بتشييد دور استراحة الحجاج على الطرق بكثرة وبكل حرية.

هذه السلوكية من المسلمين وقد مارسوها مع جميع الأديان جعلت شارلمان إمبراطور فرنسا يتلمسها بنفسه خلال رحلة حجه إلى القدس، ليجد الخليفة العظيم هارون الرشيد قد منحه «تنازلاً رمزيًا عن المدينة واعتباره حاميًا لبيت المقدس ومالكًا لكنيسة القيامة حتى شيد شارلمان بالمدينة المقدسة مستشفى وكنيسة»(١).

هذا الاحتفاء من خليفة المسلمين إلى عظيم الغرب جاء من موقع القوة. ومن قبل أدَّب هارون الرشيد امبراطور الروم نقفور لتجاوزه حدود قدره برسالة أراقت ماء دمه، وهجوم كفأه على وجهه.

إن تسامح الرشيد مع شارلمان جعل الأخير يقدر هذه المعاملة الودية فيهدى إلى الرشيد ساعة نادرة. رغم ما عرف عن شارلمان بتعصبه الدينى وقيادته حملات عسكرية فى إسبانيا ضد المسلمين، ومساندته البابوية عسكريًا حتى منحته لقب امبراطور.

أما المسلم فقد جبل على التسامح حتى عند المتعصبين لدينهم كالأتراك السلاجقة الذين أوقعوا كارثة فى الجيش البيزنطى المهاجم سنة ٤٦٣ هـ - ١٠٧١م بتدميره وأسر قائده الإمبراطور ( رومانوس الرابع ) فما كان منهم إلا أن أطلقوه وأعادوه بكل حفاوة وتكريم.

وفى وقفة حول طبيعة التسامح لدى المسلمين والتى يبرز معدنها الأصيل

---

(١) باركر: الحروب الصليبية ١٤ .

خلال الحرب .. فقد سأل السلطان ( ألب أرسلان ) أرمانوس:

- ما عزمت أن تفعل بى إن أسرتنى؟. فقال: أفعل القبيح. قال له: فما تظن أننى أفعل بك؟ قال: إما أن تقتلنى، وإما أن تشهرنى فى بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة وهى العفو وقبول الأموال واصطناعى نائبًا عنك. قال:

- ما عزمت على غير هذا»(١).

وهكذا يبدو العفو أبعد ما يخامر روح المحارب البيزنطى!! بيد أن المسلمين عاشوا التسامح مع أعدائهم الدخلاء تحت أحلك الظروف، خاصة فترة الحروب الصليبية التى جرت فوق أرضهم. وهم فى استردادهم المدن كانوا يؤمنون سكانها من الصليبيين على دمائهم وأموالهم، مع حرية الإقامة فيها أو المغادرة.. هذه الحرية قادت إلى تكتلهم لينالوا من المسلمين -جزاء صنيعهم- حربًا خسرنا من جرائها الكثير كما حصل فى حصار صيدا؛ لكن مهما يكن تبقى الرحمة فى الحروب مدخلاً لتعاطف أهلها مع الفاتحين وإن كانوا على غير دينهم.

فحين استباح الصليبيون بيزنطة فى حملتهم الرابعة سنة ١٢٠٤م وأسقطوا عاصمتها ونكلوا بأهلها. ومع المناظر المرعبة التى جللت الصليبيين بعار تاريخى لا يمحى ذكره، هتف أحد أبنائها المؤرخين واسمه «نكيتاس» وهو يرمق بلوعة جثث ضحايا أبناء مدينته إثر المجازر الجماعية فى كل مكان.. ولعله تذكر تلك الفترة عدالة المسلمين لطول الاختلاط بهم نتيجة الجوار وتبادل المصالح، وقارنهم بإخوة الدين حتى هتف معترفًا بمرارة:

«إن المسلمين أكثر منهم رحمة»(٢).

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨ / ٣٨٩.

(٢) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ٣ / ٢٢٢.

ولا تكشف هذه الأمثلة عن سماحة المسلمين باعتراف خصومهم الشرقيين إنما أخذت في الغرب بعداً أشد تجاوباً وشمولية في إسبانيا (الأندلس) عندما دخلها الإسلام سنة ٩٢ هـ - ٧١١م. وقد توج في ظل الرحمة والعطف الذي أغدقه الفاتحون على أهلها اعتناق جموع كبيرة منهم الإسلام.

ولكن الغريب حقًا أن المسيحيين الأصليين في إسبانيا لم ينضووا تحت مظلة الإسلام فحسب بل تفاعلوا مع هذا الدين «حتى غدوا أكثر تعصبًا لدينهم الجديد من المسلمين الغزاة»(١).

أما من بقي منهم على دينه فاعترفوا -وهنا تبرز عظمة التسامح في الدين الإسلامي- «بأنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الفرنج أو القوط..»(٢).

**وعند الصليبيين!**

تشبع التاريخ الأوربي بإكراه الشعوب وحملها على اعتناق الدين المسيحي، سواء بالنسبة للدول التي غزتهم كالشعوب الجرمانية حتى أبادوا الكثير منهم، كما فرضوا عليهم مذهبًا معينًا، هذا الشعب الذي وظفوه لإبادة المسلمين خلال الحروب الصليبية. ولعل من مضحكات هذا التعصب أن يبعث أحد أمراء الجرمان الصليبيين «تنكرد سفارة من ستة فرسان تحمل إنذاراً إلى دقاق لاعتناق المسيحية أو ترك دمشق فوراً» ودقاق هو ملك دمشق سليل الأتراك السلاجقة، فما كان منه إلا أن طلب إشهار إسلامهم!!

أما في الأندلس فقد أخذت شكلاً مأساويًا على أيدي الإسبان في أعقاب حربهم الاستردادية سنة ٨٩٦ هـ-١٤٩٢ ليواجه المسلمون موتًا جماعيًا في

---

(١، ٢) سعيد عاشور: أوربا القرون الوسطى ١/٥٣١، ١/٢٠٩.

غرناطة آخر المعاقل العربية، راح ضحيتها الآلاف حرقًا أو غرقًا أو إعدامًا.. وفى أفضل الظروف كان الطرد!!

وتحت عنوان ( حاكم قرطبة يعتذر للمسلمين بعد خمسة قرون من سقوطها ) تابعت حديث الدكتور محمود مكى، مستعرضًا بعض جوانب مأساة المسلمين فى إسبانيا خلال الحروب الصليبية، أنقل بعض ما جاء فيه:

« وغدرت الدولة المسيحية بأهل غرناطة.. وأخذت تنظم الفرق التنصيرية لتنصير المسلمين بالقوة، حتى إنهم كانوا يقبضون على من يجدونه يغسل رجليه ويعذبونه تهمة ضبطه متلبسًا بالوضوء، وتم « تعميد » الجميع بالقوة خلال سنتى ١٥٠٠-١٥٠١م، وصدر مرسوم بتحويل جميع مساجد المسلمين إلى متاحف أثرية. كما تم إحراق الكتب الإسلامية والعربية فى ساحة الرملة بغرناطة، بمرسوم أيضًا. وصدر قرار بمنع استعمال اللغة العربية.

وعقب ذلك شكلت الدولة المسيحية محاكم التفتيش للقضاء على كل مظاهر الإسلام، والأمر بجعل بيوتهم مفتوحة بصفة مستمرة لمراقبة كل حركة فيها.

ورغم كل ألوان الاضطهاد والتعذيب من جانب الدولة المسيحية لمسلمى الأندلس إلا أنها لم تنجح فى تنصير المسلمين لثباتهم وتمسكهم بدينهم الإسلامى الحنيف. الأمر الذى جعل ملك إسبانيا يعزل المسلمين فى أحياء خاصة بهم وقتلهم جميعًا... »[1].

---

(١) جريدة الأنباء العدد ١٠٩٨. من حديث الدكتور محمود مكى أستاذ الأدب الأسبانى - جامعة القاهرة.

وعلى مستوى الوفاء فقد تنكر الطلاب المسيحيون لجامعتهم الإسلامية قرطبة وغيرها من أمهات الجامعات. والتى لم يواجهوا من يمنعهم دخولها تعصباً وتميزاً أو يبخل عليهم بالعلم، حتى غدوا أساتذة فى سلم الحضارة التى نقلوها إلى أهلهم وبلادهم فى أوربا لتضىء عصورهم المظلمة.

ولم يقف تعصبهم وتنكرهم للمسلمين عند حدود البشر بل تعداه إلى إزالة ومحو آثارهم من النفائس والمخطوطات والأبنية، كما لو كانت تحديات إسلامية تقف بشموخ تذكرهم قصة تخلفهم وتفوقنا!!

إن التعصب الدينى الذى ظهرت آثاره العنيفة ضد كل ما هو إسلامى على أرض الأندلس كان بتدبير وتحريض كرسى البابوية، أمثال جريجورى السابع وإلسكندر الثانى بشن حروب استطاعت أن تزيل المعالم الدينية كالمساجد والمدارس الدينية سواء بهدمها أو تحويلها إلى كاتدرائيات!!..

وربما ضن وأشفق بعضهم -من متذوقى الجمال- إزالة هذه الآيات الفنية والتحف المعمارية النادرة، فمآذن قصور الحمراء فى غرناطة ما تزال رغم شموخها، ترسل أنينها شدوا تحكى لكل زوار العالم حضارة المسلمين وعشقهم للإبداع.

ويبقى المسلمون رغم كل ما أصابهم أمثولة فى التسامح الدينى ورمزاً لعلو الخلق، فقد ساعدوا المسيحيين على بناء وترميم الكنائس وبإذن سلاطينهم ورؤسائهم، يقول المقريزى عن كنيسة فى مصر أيام المماليك:

«فاجتمع لعمارتها جماعة كثيرة من النصارى، وأحضر لهم الأقباط الآلات وأقاموا فى عملها عدة من المسلمين شادين ومستحثين فجاءت كأحسن المبانى»(١).

---

(١) المقريزى: السلوك ٢/١٨٢.

هذا التسامح الكبير منا كان يقابل من الصليبيين بالجحود والنكران دوامًا، الأمر الذى استفز فئة من المسلمين. فبعد مذبحة مسجد الأقصى فى القدس تلتها مذابح شبيهة بوحشيتها منها ما قام به بلدوين سنة ١١٠١م من مجزرة جعلت فناء مسجد قيسارية الذى احتمى به المسلمون خوفًا من جنده، يتحول إلى بركة من دمائهم، وفى هجمات جوسلين المتكررة حوالى سنة ١١٢٢م على أطراف حلب ضد الأراتقة قام ( بلك ) كرد انتقامى بتحويل كنائس حلب إلى مساجد.

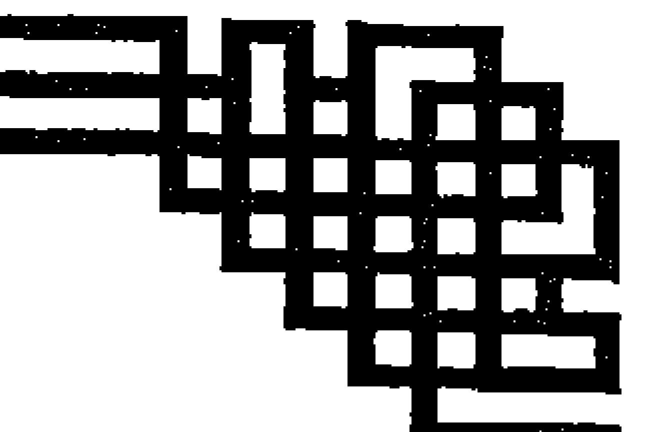
إن التعصب لا يورث سوى تعصب أشد منه. وللمرارة التى عاشها المسلمون أجيالاً متعاقبة تحت ظل الظلم الدينى، حولوا أضخم وأروع الكنائس المسيحية الشرقية «آيا صوفيا» إلى مسجد نقشت فوقه آيات القرآن الكريم.. وانطلقت صوت الأذان بدلاً من قرع النواقيس عند كل صلاة.

إن العنت والإكراه لا يورثان سوى النفور والإحساس بالقهر..

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [ البقرة: ٢٥٦ ].

***

**إن القناعة بعدالة الإسلام جعلت دول البلقان وآسية الصغرى تستميت فى الحفاظ على هويتها الإسلامية أمام قوى البغى التى تجتهد فى إبادتها.**



# الفصل السابع

# الحروب الصليبية.. والصراعات المذهبية

## المذهب.. وإسقاط خلافة!

أدى الخلاف المذهبى إلى صراع وتنافر شديدين غايته الهيمنة على المذهب الآخر، وإزالته، وإن كان فى إطار الدين الواحد.

وبدا واضحًا فى أوربا على عهد جريجورى الأول المعروف بنشاطه الواسع فى نشر المذهب الكاثوليكى، ومحاولة فرض هيمنته على كنيسة بيزنطة، الأمر الذى أدخله فى صراع مع أباطرتها، أدى بالتالى إلى القبض على بابا روما ونفيه حتى مات على عهد قسطانز الثانى.. وتوالى الصراع!!

على أن سياسة العنف والسيطرة التى انتهجتها كرسى البابوية أضاعت منها شعبًا كاملاً كالبوسنيين ومعظمهم أرثوذكس. فبعد شعورهم بالإحباط من الكاثوليك ونتيجة الإضطهاد الذى وقع عليهم من الملك والكنيسة خلال الفترة الأخيرة للمملكة تحولوا إلى اعتناق الإسلام إبان الفتح العثمانى سنة ١٤٦٣م.

والذى يعنينا هو الإفرازات الناجمة عن هذا التنافس المحموم بالنسبة للمسلمين خلال مرحلة الحروب الصليبية.

وكما نلحظ بعض وجوه الشبه فى الغرب المسيحى، كذلك فى الشرق الإسلامى كما بين البويهيين والسلاحقة، فالاختلاف المذهبى أدى إلى إسقاط ثلاث خلافات حتى قيل فى سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر زمن الشهيد نور الدين زنكى: «فهى من الفتوحات الكبار التى جعلها الله تعالى دار إسلام بعدما

كانت دار كفر ونفاق فلله الحمد والمنة»[1]. ولا شك أن هذا القول يمثل شرخًا في البناء الإسلامي. على أن السلطان نور الدين أرادها أيضًا ساحة لجهاده في صد الهجوم الصليبي لحاجته إلى جيش موحد قوي، وهذا يعني توحيد الممالك أو تكاتفها على أقل تقدير.

وربما رأت الخلافة الفاطمية بمذهبها الشيعي تقديم جيش تحت إمرة قيادة سنية سيضعفها ويطيح بها.. خاصة ولها سابقة التحالف مع الصليبيين ضد السنة حفاظًا على إماراتها.

أما نور الدين فاعتبرها عقبة كأداء تحول دون تحقيق الوحدة في جهاده في الغزاة. وفي الوقت الذي أدرك ضعف خليفتها العاضد أمر قائده صلاح الدين بقطع الخطبة الفاطمية وإقامة الخطبة العباسية، بيد أن صلاح الدين اعتذر بذريعة ميل المصريين إلى الخلافة الفاطمية.. على أن ابن الأثير يعزو تلكؤه إلى الخوف من نور الدين «أن يدخل إلى الديار المصرية ويأخذها منه»[2]. على أن رفض نور الدين مثل هذا العذر، أجبر صلاح الدين على تنفيذه.

والحق أن سقوطها سنة ٥٦٧ هـ - ١١٧١م لم يخدم نور الدين عسكريًا كما خدم صلاح الدين. فبعد وفاته ترك في خدمته خير أجناد الأرض.

### اختلاف.. وتحالف مزدوج:

لقد حول الاختلاف المذهبي مسار الحركة الصليبية في أكثر من موقع، فاستطاع نور الدين بذكاء توظيف مثل هذا الخلاف بين البيزنطيين الأرثوذكس وبين الأرمن الكاثوليك بإطار رائع ضمن أيديولوجيته العسكرية. ورأى أن تحالفه

---

(١) ابو شامة: كتاب الروضتين ٢ / ٤٤٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ٣٣.

مع الأرمن يدعم الاستقرار لحدوده الشمالية المتاخمة لهم ويحمى ظهره من الخطر الصليبى المتدفق عبر تلك الجبهات، لذا حالف ( ابن ليون ) وجعله فى خدمته. ولكون طابع الحرب الصليبية دينيا، فقد أوجس بعض أصحابه الخوف، لكنه طمأنهم: «أستعين على قتال أهل ملته، وأريح طائفة من عسكرى لتكون بإزائه لنمنعه من الإغارة على البلاد المجاورة له»(١).

وبالمقابل.. حقق هذا الحلف كسبًا كبيرًا لابن ليون، فقد استطاع أن «يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الأرمن والروم»(٢). فعن هذا التحالف انتزع أذنة والمصيصة وطرسوس من بيزنطة وضمها لأملاكه!

وجاء هذا التحالف السياسى على حساب المذهب لخدمة صلاح الدين فى مقاومته الصليبيين من خلال حلفه مع الإمبراطور اسحق الثانى(٣) ٥٨٥هـ - ١١٨٩م «وكان من آثاره عداء عواهل غرب أوربا لبيزنطة»(٤).

## وسيف.. يطيح بإمبراطورية:

شهد منتصف القرن السابع عداء سافرًا حادًا بين بابوية روما الكاثوليكية والإمبراطورية البيزنطية التى يفترض أن تكون إيطاليا مقر البابوية خاضعة لنفوذها. وبغض النظر عن الدوافع، فقد استغل الخلاف المذهبى كمعين لا ينضب أمام المنتفعين أدى إلى انهيار الإمبراطورية البيزنطية.

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٦، ١٠/٤٦.

(٣) يصف المؤرخ (وليم الصورى) أن الإمبراطور البيزنطى: «شديد الحسد على الدوام لتقدم الصليبيين الناجح» انظر كتابه: الحروب الصليبية: جـ٣ ص٢٧٦.

(٤) المقريزى: السلوك: ١/١٨٠.

كانت فترة الحروب الصليبية مسرحًا للأطماع وبؤرة للمستغلين، وكان من بين أسباب إسقاطها القوية، الأمير بوهيموند الأول ابن روبرت جيسكارد، ذلك المغامر الذى كانت له مواقف عسكرية ضد بيزنطة[1]، ليقفز ابنه القادم من إيطاليا على صفحة الأحداث التاريخية بعنف خلال الحملة الأولى، حاملاً معه أطماع وشراسة المحارب النورمندى، وبدأت خلال استيلائه على إمارة أنطاكية ضاربًا باتفاقيته مع الإمبراطور -حول المدن الإسلامية- عرض الحائط. وبعد إطلاق سراحه من الأسر سنة ٤٩٥هـ سارع لشن غاراته وتنكيله بالمسلمين. وخلال مساعدته أمير الرها للاستيلاء على حران بهدف قطع الطريق بين العراق والشام -وتلك خطوة تستحق المغامرة من بوهيموند- بيد أن تحالف صاحبى الموصل وماردين سنة ٤٩٧ هـ وقد «أرسل كل منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع معه لتلافى أمر حران، ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه»[2] أثر هزيمة ساحقة حلت ببوهيموند وحليفه ليستغلها الأرمن فى ثورة ضده بعد طول معاناتهم من سيطرة النورمان أتباع بوهيموند وتسليمهم بعض الحصون والمراكز التابعة لأنطاكية (إمارته) إلى المسلمين السلاجقة!!.

أما الإمبراطور الذى سعد بهزيمة خصمه اللدود فسارع ليضم بعض مدنه.

هذا المحارب الذى طالما اغتصب الحقوق.. وخاصم الجميع حتى زملاءه من أمراء الحملة الأولى ليستأثر بالمدن، ذاق من نفس الكأس. ولا شك أن غصص الحسرة تنهشه، ومثله لابد أن ينتقم ويعمل على استعادة مستعمراته، فهذا الأمير أول من نقل نظام الإقطاع ليتخذه فوق أرض المسلمين.

---

(١) انظر وليم الصورى: الحروب الصليبية: جـ٣ ص١٥٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩ / ٧٣.

وأعمل ذهنه الميكافيلى . . وربما هز رأسه مؤكداً أن للخلاف المذهبى له وقعه الساحر فى قلوب أتباع الكنيسة الكاثوليكية، ومن هذه الثغرة سيثأر من الإمبراطور لنفسه!

ويبدو أنه وفق فى استقطاب الرأى العام الأوربى ضد بيزنطة. وقد ادعى ممالأتها المسلمين. كان حصيلته جيشًا قويًا متحمسًا أغلبه من نورمند جنوب إيطاليا وصقلية وفرنسا، أما الإمبراطور فاستنجد بأعدى أعدائه، حيث زوده السلطان السلجوقى قلج أرسلان بقوة من جنده، والتحم الجيشان أو على الأصح الكاثوليك والأرثوذكس «وصبر الفرنج بشجاعتهم، وصبر الروم ومن معهم بكثرتهم، وقامت الحرب ثم انحسرت الوقعة عن هزيمة الفرنج»(١). وذلك فى سنة ١١٠٧م ليقف فى أثرها أشهر محاربى الحملة الأولى متذللا أمام الإمبراطور البيزنطى الذى أملى عليه شروطه كافة.

وهكذا أسفر لعبه بورقة المذهب وبالاً عليه، فانتهى ليصبح مجرد تابع للإمبراطور من حيث الأملاك والمدن والمذهب أيضًا بالنسبة لكنائس إمارته، مما جعله بعد فترة قصيرة يتوارى عن مسرح الأحداث منزويًا فى مقاطعة «أبوليا» التى مات فيها يائسًا محسوراً ومغموراً أيضًا. على أن حلمه تحقق بعد مائة وثلاث سنوات، فتنبه العالم الأوربى مع ملوك الحملة الثالثة إلى حد عرقلة بيزنطة جهود الصليبيين فى الشرق، إثر حصاده حملتهم الرابعة لتسقط جارتهم أو الإمبراطورية البيزنطية العتيدة سنة ١٢٠٤م وليسمع أهالى القسطنطينية لأول مرة فى «قبلة» كنائسهم آيا صوفيا، قرع أجراس الكنيسة الكاثوليكية!!!

وربما صاحب هذا الجيش رنين كلمات أوربان السابقة مستحثة:

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٠٤.

«بفضل رحمة الرب العظيم وصلوات الكنيسة الكاثوليكية نعفيهم من التكفير المفروض عليهم لأنهم خاطروا بأملاكهم وحياتهم فى حب... جيرانهم»(١).

**ويخترق الدين:**

أحيانا يأخذ انتقام الصدامات المذهبية منحى فرديًا وعرًا بعيدًا عن المسار الدينى.. بل نحره، إذا غاب جانب التسامح.

ولعل من سوء حظ الأرمن وهم الأقلية تواجد ممالكهم فى آسيا الصغرى وشمال الشام ومتاخمتها بيزنطة. فمن أبرز أماكن استيطان الأرمن، الرها ومصيصة وأنطاكية وطوروس وملطية، وموقعهم هذا جعلهم بين مطرقة السلاجقة وسندانة بيزنطة!.. بل حتى وهم يستقبلون الحملة الصليبية الأولى بحماس شديد مما سهل فتح أنطاكية أمام بوهيموند الأول، وكذلك الرها بالنسبة لبلدوين الأول، ليجنى ثمرتها الفاتحون بامتلاك أجود أراضيهم الزراعية واستعلائهم واضطهادهم أهلها الأصليين.

هذه العوامل جعلت حياتهم مذبذبة حتى ألجأهم شعور القهر بالانتقام وذلك فى تحالفهم مع المسلمين تارة .. أو بالثورة على الصليبيين أخرى، أو بفتح أبواب القدس للمسلمين كضرب انتقامى للصليبين كما حدث سنة ١١٨٧م. أو بموالاة بيزنطة.

وبحكم تبعيتهم لبيزنطة كانوا يتعرضون مذهبيًا للاضطهاد وخاصة من رجال الدين، فما كان من أحد ملوكهم جاجك الثانى إلا أن «قبض على مطران قيصرية

---

(١) قاسم عبده: الخلفية الأيديولوجية ١١٠.

الأرثوذكسى وحبسه فى جوال محكم ومعه كلب شرس حتى قضى نحبه. وكان أن رد البيزنطيون على ذلك بأن نصبوا كميناً للملك جاجك الثانى حتى تصيدوه وقتلوه سنة ١٠٧٩ »(١). وإن تعارض هذا السلوك ومفهوم الطبائع الإنسانية.. لكنه الظلم الذى ألحقه رجال الدين الأرثوذكس وهم فى مراكز القوة بالطوائف المسيحية من سريان ويعاقبة جعل ميخائيل السريانى يصف فى كتاباته:

«إنه لذلك يفضل سيطرة الأتراك السلاجقة على حكم البيزنطيين، لأن الأتراك ينهبون ويسلبون ولكنهم لا يتعرضون للعقيدة، فى حين أن اضطهاد البيزنطيين لحرية العقيدة أشد وأسوأ أثراً»(٢).

لمثل هذه الدواعى جاءت فرحة الأرمن غامرة بسقوط القسطنطينية وكنيستها.

إن موقف الأرمن من بيزنطة أغرى أمير أنطاكية -قبل أن يصبح أمير الكرك- (أرناط) المعروف بجموح عاطفته ونزقه وطباعه الشرسة أمام خصومه السياسيين والدينيين، قد ارتكب ما هو أفظع من ذلك.. حيث تحالف مع الأرمن لغزو جزيرة قبرص التابعة سياسياً ومذهبياً لبيزنطة، وذلك سنة ١١٥٦م فاستبيحت على أبشع وأزرى الصور.. من انتهاك للأعراض، وقتل الأبرياء ونهب الأموال وإشعال الحرائق فى كل مكان.

أما الكنائس والأديرة فلحقها مالحق سكان المدينة، ولم يكتف بذلك بل «إنه جدع أنوف رجال الكنيسة وقطع آذانهم وألسنتهم أمعاناً فى التشفى والانتقام»(٣).

---

(١، ٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ٩٦.

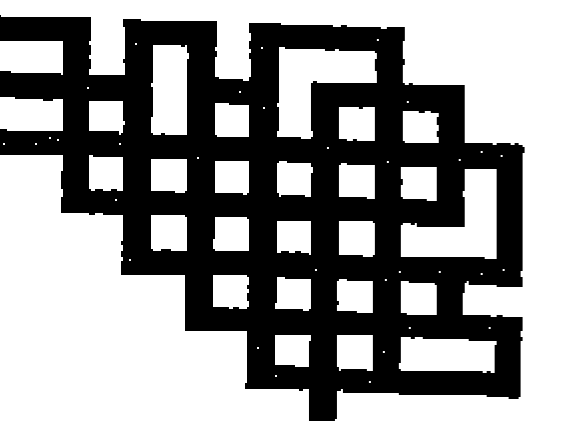
(٣) المصدر السابق: ص٥٠٧.

على أن فعلته هذه لم تمر بسلام من قبل إمبراطور بيزنطة الذى جعله يركع بقيوده أمامه ذليلاً صاغراً، وقد مرغ أنفه بالتراب أمام خصومه وأتباعه فى مشهد حافل، أعد له الإمبراطور.

لقد استفحل الصراع المذهبى والتطاحن ما بين أتباع روما وأتباع بيزنطة ليضع المسلمون الأتراك العثمانيون نهاية له توجت بإسقاطهم عاصمة بيزنطة وذلك سنة ٨٥٧هـ- ١٤٥٣م.

***

**وما زالت الصراعات المذهبية متقدة الجذوة حتى اليوم.**



## الفصل الثامن

# الصليبية والمغول.. معًا على الطريق..

## تحالف الصليبيين

لم يجد الصليبيون مانعًا من التحالف مع أية جبهة تحقق أهدافهم في القضاء على الإسلام بغض النظر عن طبيعتها أو دينها أو جنسها.

فقد تحالفوا مع المسيحيين الشرقيين لحظة وصولهم سنة ١٠٩٧م حيث سقطت أوائل المدن الإسلامية بعد «نيقية» كأنطاكية والرها وحارم. وبفضل خيانة أهلها من الأرمن والسريان. تواصلت هذه الخيانة وامتدت حتى غزو الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ- ١٣٥٩م. ولقد كان لهؤلاء اليد الطولى في مساعدة الصليبيين ذبح أهلها من المسلمين وكشف عوراتهم، والتعرف على أماكن ثروتهم وخباياهم ومراكز قوتهم حتى مرافقتهم ركاب جيش المغول الرهيب بعد ذلك!

كما تعاملوا مع فرق الباطنية ضد المسلمين، ففي بدايات حروبهم تحالف ريموند أمير أنطاكية مع زعيم الحشاشين على أبو الوفا الكردى ضد نور الدين الذى أوقع بهما هزيمة سنة ١١٤٩م ليقتلهما معًا إلى جانب حليفهما رينالد صاحب مرعش، وانتهاءً بلويس التاسع.

كما استخدموهم ضد بعضهم ضمن مؤامرات قتل فيها أمير وجرح ملك على فترتين متباعدتين وكان من هذه الفرق الخارجة على الإسلام كالحاكمية والنصيرية قد مالأت المغول والصليبيين معًا حتى أوائل القرن الثامن، فكانت لهم عيونًا، كما اشتركوا في سبى النساء وأسر الرجال وأعمال الفساد. بل لم تتورع هذه الفرق التى استخدمتها الصليبية أن جعلت من نفسها سوقًا رائجة للرقيق، باعت فيه أسرى المسلمين للصليبيين!..

ولعل من أنكى التحالفات الصليبية وأشقها على المسلمين تحالفهم مع التتار،

وقد رأى الصليبيون فيهم قوة متوحشة قادمة من الشرق، فعولوا عليها لسحق المسلمين، خاصة إذا علمنا أن في بلاط هذه الإمبراطورية العديد من المسيحيين فيهم الأمراء والوزراء ممن تزوجوا بأميرات مسيحيات نسطوريات. هذا وأكبر خانات المغول كان ينظر بالعطف نحو المسيحيين، حتى انتهى بعضهم بالتحول عن وثنيته واعتناق المسيحية فكان أشق على المسلمين من الصليبيين ذاتهم كالخان أرغون بن أبغا الذى «قتل عمه السلطان أحمد بن هولاكو»(١).

ومن هذه الأرضية باتت الأجواء مهيأة لأن يفكر الصليبيون بالتعاون معهم، فكان البابا ( أنوسنت الرابع ) أول من أرسل مبعوثًا له ( يوحنا دل كاربينى ) إلى جانب خان المغول فى قراقوم سنة ٦٤٣هـ - ١٢٤٥م وقد وصلت السفارة تعرض عليه اعتناق المسيحية، بيد أن الخان لكى يقبل العرض اشترط عليهم الانضواء تحت دائرة نفوذه. على أن الصليبيين لم ييأسوا، وتوالت السفارات تزحف لاجتذاب المغول من قبل البابا أنوسنت الرابع والملك هيثوم ملك أرمينية وأخيه، والملك لويس التاسع حتى أثمر الغرر العمل معًا لإبادة المسلمين.

بل وصل التعاون الوثيق بينهما أن أصبح المغول أمثال ( أرغون ) الذى تنصر، يرسل عدة سفارات إلى البابا بدءًا من سنة ١٢٨٥م يستحثه فيها لإرسال حملة صليبية جديدة. ثم ليعاود الكتابة وإرسال السفارات.. حتى إذا خابت مساعيه وتبددت جهوده لدى البابا فى إرسال حملة «لم يصدق أرغون أن المسيحيين فى الغرب بما اشتهروا به من التظاهر الدينى بالتعلق بالأرض المقدسة يظهرون هذا الاستخفاف بما يحيق به مصيرها من خطر»(٢).

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص١٦٠.

(٢) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ٣/ ٦٧٧.

واستمر هذا التعاون حتى سنة ٧٦٧هـ- ١٣٦٥م حين « حاصر أمير التتار يقال له مامية، واستعان بطائفة من الفرنج ففتحوها قسراً، وقتلوا من أهلها خلقا، وغنموا... »(١).

## أحوال الزعامة الإسلامية:

يمكن القول بأن أفضل ما أثر عن حال الزعامات التى جاءت سياستها العامة قدراً أوقع بالمسلمين النكبة تلو النكبة وصف المؤرخ ابن الأثير سند ٦٢٠هـ:

« .. فإن ملوك زماننا قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم وظلمهم عن سد الثغور وحفظ البلاد »(٢).

ونظرة حول واقع أمهات العواصم الإسلامية بغداد.. دمشق.. مصر، تنبئ عن آثار النتائج حول تعاون المغول والصليبية، فعند آخر خليفة عباسى « المستعصم بالله » تصف بعض مصادر التاريخ انشغاله باللهو وجمع الأموال، أما مقاليد السياسية فلم يولها الاهتمام المرجو حتى قلد الوزارة من مالأ المغول على استباحة مقر الخلافة!!

على أننا لا ننكر دور الخليفة العباسى المستنصر بالله بن الظاهر فى تنبيهه للخطر المغولى -وإن جاء للأسف بعد فوات الأوان- وكان خليقاً بالخلافة التنبه للكارثة منذ مطالع سنة ٦١٧ هـ، وحيث بداية ظهورهم على مسرح العالم الإسلامى واستيلائهم على أول مدنهم (بخارى) بالسيف، ثم ردم خندقها بالمقدسات كما يحكى التاريخ ذلك « أن الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها فى الخندق »(٣).

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٤/ ٣٣٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج١٠ص ٤٠٤.

مهما يكن.. فإن حركة الخلافة ضد المغول بدأت سنة ٦٢٩ هـ حينما استولوا على جميع المدن التى كانت بحوزة الخوارزمية -رغم وقفاتهم الشجاعة الصامدة بوجه المغول عندها اهتم الخليفة المستنصر بالله أمام الخطر المغولى الداهم، فاستنجد بالسلطان الأشرف والكامل والعربان، ونشط فى صرف الأموال دعماً لتقوية الجيش ومقاومته زحف التتار.

أما الخليفة المستعصم بالله فقد نشط فى إخماد النزاعات القائمة بين المماليك والأيوبيين أى بين حكام مصر والشام سنة ٦٥١هـ - ١٢٥٣م، فتمكن من تنفيذ الصلح بينهما حتى أقر المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام وأن تكون «غزة والقدس ونابلس والساحل كله»(١) للأيوبيين. خاصة بعدما شعر اقتراب خطر المغول منه. وهو وإن كان يفتقر إلى السياسة الحازمة وبه بلاده ولين وعدم تيقظ مهملاً للأمور الجسام وحب لجمع المال(٢). هذا الخليفة أسرع بالاستغاثة بالسلطان الكامل سنة ٦٣٥هـ - ١٢٣٧م لعلمه أن مصر غنية بطاقاتها البشرية إلا أن الكامل تسلم الأموال من رسول الخليفة واكتفى بإرسال ما يقرب من ثلاثة آلاف فارس.

والمتتبع لحركة حروبه ضد السلاجقة الروم والأيوبيين والعربان، وكذلك حكام حلب والحجاز وغيرها ما بين سنة ٦٢٦هـ حتى وفاته سنة ٦٣٥هـ يجد سوء استنزاف الموارد المادية والبشرية مع عظم حجمها الذى كان ينبغى توجيهه فى التصدى للمغول عبر زحفهم المتنامى فى العالم الإسلامى!!.. ويكفى أن يذكر عدم اهتمامه بهم كما يروى المقريزى فى أحداث سنة ٦٣٢ هـ:

---

(١) المقريزى: السلوك: جـ١ ص ٣٨٥.

(٢) انظر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٦٤.

«وفيها سار التتار إلى جهة «الموصل» فقتلوا ونهبوا وسبوا، وفيها سار الناصر داود صاحب الكرك إلى الخليفة المستنصر بالله خوفًا من عمه «الكامل» فإنه كان قد ألزمه حتى طلق ابنة الكامل فخشى أن ينتزع منه الكرك»(١).

ولم تكن المرة الأولى التى يتواجد فيها الكامل قريبًا من خطر المغول، فحين خرج سنة ٦٣٣ هـ لحرب سلاحقة الروم «نزل على دنيسر وأخرجها، فورد عليه الخبر أن التتر قد وصلوا إلى سنجار»(٢).

وهذه الخصوصية التى أفردتها للسلطان الكامل لا لشىء سوى كونه سلطان دولة وجيش، كان يعول عليها كقوة ضاربة فاعلة للحدث الجلل وهو الجهاد ضد المغول، حتى لقد أعجب بكثرة جيوشه وهو فى طريقه لغزو علاء الدين السلجوقى صاحب بلاد الروم وكما تصف المصادر:

«فعرضهم الكامل على البيرة أطلابًا بأسلحتهم، فلكثرة ما أعجب بنفسه قال: هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام»(٣)!!

والحقيقة المؤلمة أن زعماء المسلمين فضلا عن عدم استعدادهم لمنازلة المغول نتيجة خلافاتهم المستمرة، فقد شغل بعضهم بما هو أسوأ، إذ لم تكن أوضاع دمشق بأفضل من بغداد أو مصر. فقد وصف التاريخ أحوال صاحب دمشق «فظلم الناصر داود أهل دمشق وأخذ أموالهم، واشتغل باللهو، وأعرض عن مصالح الدولة»(٤).

وفى الوقت الذى كان التمزق -نتيجة الصراع والفرقة- يستشرى فى رموز القوى الإسلامية من أيوبيين وخوارزميين، كانت الصليبية تسعى جادة لخلق

---

(١، ٢) المقريزى: السلوك ١/ ٢٥٠، ١/ ٢٥١.

(٣، ٤) المصدر السابق ١/ ٢٤٨، ١/ ٢٢٥.

مناخ مناسب لجذب المغول وما أعقب ذلك من وصول حملة لويس التاسع المتجهة نحو دمياط فى محاولة إخضاع مصر سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م وجهود السلطان الصالح أيوب لصدها، ثم تلاحق الأحداث لصالح الصليبيين. إذ اعتنق أرتاق بن باطو، خان المغول المسيحية، مما حدا بالملك لويس الاستعانة به لنجدة نصارى سورية، علاوة على تدعيم صلته بالباطنية. فلويس التاسع الملقب بالقديس من أكفأ الصليبيين تعاونا مع المغول والباطنية لضرب الإسلام.

هذه لمحة موجزة للوضع السائد قبل اجتياح المغول المدن الإسلامية برفقة الصليبيين.

## سقوط بغداد الخلافة!

كان الحلم والهدف الأكبر الذى سعت إليه الصليبية طويلاً! . فرغم ضعف الخليفة بيد أنها تذكرهم بالرمز الروحى الذى يلتف حوله المسلمين فى عناق وجدانى يؤكد ترابطهم الدينى وإثبات وجودهم.

فبعد فشل جميع الحملات الصليبية للنيل من الخلافة، استطاعت أن تنجح فى محوها عن طريق تحريك المغول والانضواء تحت جيشهم الذى ضم الكثير من فرسان الكرج والأرمن والنساطرة. ويكفى أن نعلم بأن أم هولاكو مسيحية نسطورية، كذلك «كانت زوجته ظفر خاتون قد تنصرت وكانت تفضل النصارى على سائر الخلق»(١). وفى مرافقتها هولاكو لضرب المسلمين خدمت هذه النسطورية مسيحيى الشرق أعظم خدمة.

فعندما هاجموا أول ضحاياهم فى مدينة بخارى لم يرتد لها طرف رغم كونها إمرأة يفترض فيها الرقة، بيد أن هذه المغولية تشفت وهولاكو بتعليق رؤوس

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٤١٥.

فرسان مسلمي بخارى، ومن السنة نفسها ٦١٧ هـ وهم يجتاحون تبريز كانوا « يشقون بطون الحبالى ويقتلون الأجنة. وكانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونها »(١).

كما تلذذت بتدمير منابع العلوم الإسلامية حيث المغول البرابرة أتباعها « ألقوا النار فى البلد والمدارس والمساجد »(٢). هذا بعد قتل علمائها ورجالها الأفذاذ، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن هذا كان طرفًا من أفعالهم فى كل مدينة إسلامية يجتازونها حتى ذكر المؤرخ ابن الأثير:

« لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين؟ ».(٣)

ولعل وفاته سنة ٦٣٠ هـ كانت أرحم له من مشاهدته سقوط الخلافة الإسلامية، وتأريخه المزيد من الفواجع.

بهذه الروح رافقت الصليبية ظفر أو ( طقز خاتون ) جيش المغول الميمم وجهه شطر بغداد لتلتقى إرادتها مع الرافضة بشخص وزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمى « وكان رافضيا خبيثًا ردئ الطوية على الإسلام »(٤). وهو الذى « كاتب التتار وأطمعهم فى أخذ البلاد، وذلك طمعًا فى أن يزيل السنة بالكلية وأن يظهر البدعة وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين »(٥).

كما كان يوسوس للخليفة بإنقاص الجيش الذى كان « قريبًا من مائة ألف مقاتل منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر »(٦) فى القوة حتى لم يبق

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ٤١٥، ١٠ / ٣٩٩.

(٣) المصدر السابق ١٠ / ٣٩٩.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية ١٣ / ٢٤٠، ذهب ابن العماد الحنبلى، أن وزير دار الخلافة كان يتطلع إلى أن يصبح خليفة علويا. انظر شذرات الذهب: جـ٣ ق١ ص٢٧٠.

(٥، ٦) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣ / ٢٢٩.

منهم سوى «عشرة آلاف»[1] هذا الوزير الذى أعفى الجيش لدرجة ألجأت الكثير منهم إلى الاستجداء فى الأسواق وعلى أبواب المساجد، حتى رثاهم الشعراء، ثم أعطى الضوء الأخضر للمغول بضآلة عددهم وضعفهم!!

وفى مثل هذه الأجواء المهيئة تمامًا، اقتحم هولاكو بغداد فى المحرم سنة ٦٥٦هـ - شباط ١٢٥٨م بمائتى ألف مقاتل. وحين مثل الخليفة المستعصم بين يدى هولاكو -بمشورة وزيره العلقمى- «تهيب من قتله»[2] بيد أن الوزير العلقمى حسن له ذلك لينهى الخلافة العباسية من يوم الأربعاء ١٤ صفر ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م.

وما كان هذا ليشفى صدر ابن العلقمى من الغل بل سعى فى قتل أفضل الفقهاء والعلماء والشيوخ، ومنهم أستاذ دار الخلافة محيى الدين أبى الفرج بن الجوزى مع أولاده الثلاثة ثم أعيان الدولة واحداً إثر واحد مع عوائلهم!!

أما المسيحيون بقيادة زوجة هولاكو فكان همها أولاً حماية المسيحيين الذين رعتهم الكنائس فلم يتجاسر أحد على الدخول إليها، بل انضم الكثير منهم وفى مقدمتهم الكرج لينالوا من المسلمين فى عرضهم ودمائهم.. ومقدساتهم، فلقد أخذوا بالسيوف بدءاً بالرضيع حتى أسن الشيوخ.

تصف المصادر التاريخية طرفًا من هذه الفاجعة الإسلامية: «ودخل كثير من الناس الآبار وأماكن الحشوش وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ٢٩٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣ / ٢٢٨.

فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وكذلك فى المساجد والجوامع والربط ولم ينج منهم سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمى الرافضى مقابل مبالغ مغرية من المال » .(١)

وفى الطرف الثانى . .

نجد الرهبان والقسس قد نشطوا فى إقامة الكنائس وحرق المساجد، واتخاذ ما يرونهم منها كنائس متمتعين بحماية هولاكو وهمة زوجه، كما « كان لذيوع أنباء تدمير بغداد أثر عميق فى جميع أنحاء آسيا، فابتهج المسيحيون فى كل مكان بآسيا إذ كتبوا فى نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية، وهللوا لهولاكو وطقز خاتون واعتبروهما قنسطنطين وهيلينا . وأنهما ليس إلا أدوات للانتقام من أعداء المسيح »(٢) .

أما بطريك بغداد النسطورى « ماكيكا » فغمره هولاكو بالأحباس وجعل له أحد قصور الخليفة مقراً وكنيسة »(٣) .

وهناك من تحركت مسيحيته كبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل الذى يذكرنا بعبد المسيح مدبر شئون الموصل زمن صاحبها عز الدين زنكى . « فقد كان بدر الدين لؤلؤ هذا أرمنيا اشتراه رجل خياط ثم صار إلى الملك نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل »(٤) .

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣ /٢٢٨ .

(٢، ٣) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ٣ /٥٢٢ .

(٤) ابن كثير: البداية وانهاية ١٣ /٢٤٢ .

فقد سارع لتهنئة هولاكو «فسار فى خدمته طاعة له ومعه الهدايا والتحف فأكرمه واحترمه»[١] خاصة وقد علم بتعليقه «رؤوس وزراء الخليفة العباسي - التى أرسلها له هولاكو -على أسوار مدينته»[٢] ويومها كان قد بلغ من العمر قريبًا من تسعين سنة»[٣] من مرافقة جيش المغول المتجه نحو الشام لسحق المسلمين، على أن هولاكو منعه إشفاقًا لشيخوخته، فاكتفى بتموين جيشه وإرسال ابنه الصالح نيابة عنه. وعلى أية حال ما إن عاد إلى الموصل حتى قبر فيها بعد أيام قلائل.

ولم تعدم الصليبية وهى سائرة فى ركاب الجيش المغولى من أنصار وجواسيس فى كل بقعة إسلامية، فهى حرب صليبية شاملة.

وفى الوقت الذى كان المغول «إذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون فإن عادوا قتلوا، فكانوا يقاتلون كرها»[٤].

أما الصليبيون فقد جعلوا المغول يقاتلون عوضًا عنهم.. وهم يحصدون النصر!!

أما عاصمة الخلافة الغاربة «بغداد» الحضارة الإسلامية، فقد رثتها دموع القلوب المسلمة قبل دموع المقل، كما رثيت بفيض من قصائد الشعراء نلمح فى الكثير منها هدف الصليبية. ومنها أبيات قصيدة لتقى الدين أبى اليسر:

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣ / ٢٤٢.

(٢) شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٣ / ٣٧١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣ / ٢٤٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ٤١١.

لســـائل الدمع عن بغـــداد أخـــبـــار

فــمـــا وقــوفك والأحـــبــاب قـــد ســاروا

يـا زائـريـن إلـى الـزوراء لا تــفــــــــدوا

فـــمـــا بذلك الحــمـــرا والدار ديّار

عــــلا الـصـليـب علـى أعـلـى منـائرهـا

وقـــام بالأمـــر من يحـــويه زنّار(١)

وبعد تمتع الصليبيين بقتل المسلمين أربعين يومًا نودى بالأمان، ليس من باب الرحمة، بل خشية الإصابة بالوباء لكثرة الجثث التى اختلف فى عددها ما بين ثمانمائة ألف وألفى ألف نفس، كما أورد ابن كثير. وغادرها هولاكو بعدما أنتنت ليسلم بغداد إلى الأمير بهادر والوزير ابن العلقمى «ولما نودى ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى، وقد أنكر بعضهم بعضًا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه. وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى»(٢).

وإذا ما حققت الصليبية أحلامها.. فقد خسر ابن العلقمى ماء وجهه، بل حياته أيضًا، فقد أذله المغول وعاش أيامه منبوذًا محتقرًا رغم استيزاره، وحينما رأت امرأة من بغداد ذله وهوانه فى أيام المغول وقد ركب برذونا «وسائق يسوق به ويضرب فرسه»(٣) فوقفت إلى جانبه وقالت له ساخرة، ومقتصة للخلافة وأهلها:

---

(١) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب جـ٣ ق١ ص٢٧١.

(٢، ٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٢٣٠، ١٣ / ٢٤١.

« يا ابن العلقمى.. هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟!!

فوقعت كلمتها فى قلبه، وانقطع إلى داره إلى أن مات كمداً »[1].

لقد انتهى فى ذات السنة ٦٥٦هـ بعد أن سمع بأذنيه وشاهد بعينيه إهانة المسلمين والمغول له على حد سواء، إضافة إلى تندر الشعراء وهجائهم إياه، ومما قاله شمس الدين الكوفى الشاعر:

يا رفقة الإسلام نوحوا واندبوا

أسفا على ما حل بالمستعصم

دست الوزارة كان قبل زمانه

لابن الفرات فصار لابن العلقمى[2]

وهكذا أبت الصليبية وهى تنتصر لنفسها من الانتصار لغيرها، ولو كان عدواً خائناً لأهله ووطنه!! وإن حمل من الإسلام اسمه فحسب!!!

**مذبحة.. ميا فارقين:**

غادر هولاكو وجيشه بصحبة الصليبيين وقد تركوا بغداد الخلافة وفاتنة العواصم جمالاً ورقياً وحضارة، أطلالاً تنعق فيها الغربان بعد صداح العنادل واليمام فوق أيك بساتنيها وحدائق قصورها الغناء. لتأتى خطوتهم الثانية بلاد الشام.

وفى الوقت الذى خف معظم ملوك السلاجقة وبنى أيوب وهم بين خائف

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣ / ٢٤١.

(٢) انظر حضارة العراق: تأليف نخبة من الأساتذة: جـ١٣ ص١٧٦.

وجل أو خائن جبان لتهنئة هولاكو والتقرب منه بالهدايا والخضوع الكامل كاشفين عن موقف المخزى تجاه دار الخلافة، وجدنا فى الشام من لازال يملك نخوة الرجال وشجاعة الفرسان والغيرة على الدين ليرفع رأسه بشمم ويصرخ بأعلى صوته على إخوانه من الحكام يسمعونه ويقتدون به: لا.. للمغول!!

صرح بها الكامل بن الشهاب غازى بن العادل صاحب ميا فارقين حين قدم إليه أحد القسس اليعاقبة كمبعوث لهولاكو، والذى طالبه بالاستسلام، فأعدمه.

وامتنعت المدينة على المغول سنة ونصفا مما أثار حفيظة هولاكو «فأرسل إليها ولده أشموط ليفتتحها قسراً»[1] سنة ٦٥٩ هـ - ١٢٦٠م فحدثت مذبحة لم يسلم منها أحد، وكانت فرصة جيش هيثوم ملك أرمينية وصهره بوهيموند السادس، ليعبرا عن حقدهما بذبح كل المسلمين، ولم يذبح فيها أحد من المسيحيين!

أما صاحبها الشجاع الكامل فقد أرسله أشموط إلى أبيه هولاكو وكان محاصراً حلب، فقتله بين يديه بعد أن سامه عذابًا هائلاً وذلك «بأن أرغموه على أن يأكل من لحم جسده حتى مات»[2] ثم قطع جسده واجتز رأسه وطيف به البلاد حتى دمشق «فنصب على باب الفراديس»[3]. ورثاه أبو شامة بقصيدة يشبهه بالحسين فى قتله مظلوماً.

على أن الكامل عاش فى ضمير الأمة حين ترك إرثا عريضًا من نخوة الرجال

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣ /٢٤٣.

(٢) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ٣ /٥٢٣، انظر ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب: ٢٩٥/١/٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣ /٢٤٣.

والغيرة على الدين يذكرنا بشجاعة أول مجاهد «علاء الدين» خوارزم شاه، ذاك السلطان الورع المحب للعلم ومناظرة العلماء، فقد اعترض المغول وخانهم الأعظم جنكيزخان سنة ٦١٧ هـ ببسالة نادرة.

أما ميا فارقين فكانت لا تقل عن بخارى أول مدينة استبدلت هى وقلعتها وفقاؤها وعلماؤها الذين حمل أولادهم السيف، كالفقيه الإمام ركن الدين والقاضى صدر الدين «لما رأيا ما يفعل بالحرم.. من المعاصى بالمسلمات فقاتلوا حتى قتلوا»(١).

وكما أبيد مسلمو ميا فارقين، فقد نجا كل مسيحييها رغم كثرتهم، إذ إنها موطن قديم للأرمن واليعاقبة والنساطرة. ومرة أخرى أكدت الصليبية حروبها الحقود من تحت عباءة المغول.

## وحلب أيضًا:

الشهباء.. تلك المدينة التى وصفها التاريخ بأنها «بلدة قدرها عظيم خطير.. ومحلها من التقديس أثير، فكم هاجت من كفاح..»(٢).

إنها مدينة الإباء والبذل، أبت إلا أخذ موقعها بجانب أختها ميا فارقين رغم سماعها الأهوال لمن يتصدى للمغول، على أن الأحرار -كما رأت- يموتون مرة واحدة!..

فحينما طلب هولاكو خضوعها أجابه صاحبها تورانشاه بأنفة: «مالك عندنا إلا السيف»(٣)! ليترك بكلمته الشجاعة هولاكو مندهشًا، وبقيت المدينة

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٤٠٥.

(٢) ابن جبير الأندلسى: رحلة ابن جبير ٢٠٢: دار التراث (بيروت ١٩٦٨م).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٢٤٧.

محاصرة سبعة أيام «ففتحوها بالأمان وغدروا بأهلها»[1] وبدأت المذابح الرهيبة «وجرى عليهم ما جرى لأهل بغداد... وجعلوا أعزة أهلها أذلة»[2] ولم يتركوها سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٥٩م إلا وكأنها «حمار أجرب»[3] على قول أبي الفدا.

وتتابعت انتصارات الصليبيين بحليفها المغولي.. أما أسرى المسلمين من النساء والأطفال فقد قدر عددهم بمائة ألف بيعوا فى أسواق أرمينيا، ولا غرابة فهيثوم ملكها حين دخلها برفقة هولاكو وجيشه ناقماً على المسلمين، ولكونه ضخ لهولاكو قواتاً إضافية، وتعب فى ذبح المسلمين وحرق مساجدهم، وأسرهم مع صهره بوهيموند السادس.

لذا فقد كافأهما هولاكو بمواقع إسلامية منها سائر ما فتحه صلاح الدين من أقاليم فى أنطاكية واللاذقية وفاء لوعده القديم خلال سفارة هيثوم له.

أما بطرك حلب، فقد خرج يقدم عظيم شكره وامتنانه لهولاكو لذبحه المسلمين. والحقيقة.. لم يقدر لمأساة حلب أن تنتهى، فقد أغير عليها سنة ٦٦٠هـ - ١٢٦١م انتقاماً لانتصار المسلمين فى معركة عين جالوت.

وإذا ما أثبتت الأحداث أن شجاعة وصمود المدن لا يقاسان بضخامتها، بل بصلابة رجالها!.. فعاصمة كدمشق، يغادرها صاحبها مذعوراً من وصول المغول فى حين تصمد «حارم» هذه المدينة الصغيرة لتقاوم هولاكو.. ثم لتسقط بشرف، ما زال موقفها حتى اليوم يحفر فى ذاكرة التاريخ والأجيال الصاعدة. بيد أن المرء طالما تمنى لو أن مثل هذه المدن سارعت بجيوشها يوم استنجد بها الخليفة المستعصم، ومن قبله السلطان خوارزم شاه منذ بداية ظهور المغول، لتقف إلى جانب أخواتها اللائى صمدن كبخارى وقلعتها، وقزوين وطالقان وقلعتها

---

(١، ٢، ٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٢٤٧.

أيضًا، وغزفه التى قاتلت المغول وانتزعت النصر، لكان الدم الإسلامى أنأى ما يكون عن مثل هذه المجازر!!

## مسلمون.. ولكن!

فى حين نأسف على مدن إسلامية ما كان يليق أن يحكمها رجال كصاحب حماه الذى سارع بعد سقوط حلب لإنقاذ أهله ثم تركها لمصيرها، بعد أن أرسل «بمفاتيحها إلى هولاكو»[1] الذى استناب عليها رجلاً من العجم.

وصاحب حمص أيضًا الذى ارتضى أن يبيع نفسه لهولاكو..

وحاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ، ذو الاتجاه والفكر الصليبى.. والمظهر الإسلامى!.. فهو الذى تخلص من آل زنكى الغيارى حتى مجئ المغول حيث «جعل من ولده الصالح لؤلؤ ملكًا سار بركاب هولاكو مع أخيه «الملك المجاهد» صاحب جزيرة ابن عمر»[2] ليصبحا فى خدمته حليفين انتصاراً للصليبية.

أما دمشق.. حاضرة الشام وعاصمته العتيدة، فمن المخجل والمؤلم فى ذات الوقت أن ينتهى بها الأمر بهروب صاحبها الناصر يوسف بنفسه وأهله ليتركها نهبا للأعداء، مما أوقع الرعب فى أهلها الذين جعلهم يتقدمون إلى هولاكو يجرون أذيال القهر والألم ليسلموه مفاتيح المدينة مع الهدايا ليدخلها برفقة ملك أرمينيا وأمير أنطاكية بين تهليل نصارى المدينة ومساعدتهم.

أما قلعتها فاستعصت وتحدت الغزاة مما ألجأ المغول إلى نصب المناجيق لرميها «رميًا متواترًا كالمطر المتدارك فهدموا كثيراً من أعاليها وشرفاتها وتداعت للسقوط»[3] وذلك فى جمادى الأولى سنة ٦٥٨ هـ-نيسان ١٢٥٩م وقتلوا

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣ /٢٤٧.

(٢، ٣) المصدر السابق: ١٣ /٢٥٨، ١٣ /٢٤٧.

متوليها ونقيبها، وهللت النصارى حين سلموا المدينة القاهرة بتحديها إلى أمير مغولى «ابل سيان، وكان لعنه الله معظماً لدين النصارى»(١) وسرعان ما اجتمع به أساقفتهم وقسسهم فعظمهم جداً وزار كنائسهم.

## صمت المآذن !!

وعن طريق ابل سيان، خرجت الأفاعى من جحورها، حيث خرجت طائفة من النصارى بعد أن قدمت لهولاكو الهدايا، وأخذت «فرمان أمان من جهته»(١) من باب توما ومعهم صليب يحملونه ويصيحون بنداءات تنال مقدسات الإسلام والمسلمين. بل وحملوا أوانى فيها خمر رشوا به وجوه من يصادفهم من المسلمين فى الشوارع والأسواق، وأجبروهم على أن يقوموا تعظيماً للصليب، كما رشوا بالخمر أبواب الشيوخ «وكذلك على باب المسجد»(٢) الأموى. حتى إذا وصلوا سوق كنيسة مريم وقف خطيبهم يذم المسلمين ويشيد بالنصارى.

وحين شكا جماعة من الفقهاء لابل سيان غوغائية النصارى وحرقهم المساجد، أهينوا وطردوا.

كما شهد أهل دمشق الأغيار لأول مرة منذ ستة قرون صمت المآذن.. وقرع النواقيس!!!

***

**وإذلال وإبادة المسلمين ما زالت قائمة..**

**لقد واجهت البوسنة مجازر جماعية راح ضحيتها مليون شهيد.. واغتصبت خمسون ألف امرأة.. ودمر ثمانمائة مسجد.**

---

(١، ٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٢٤٧، ١٣/٢٤٨.

### عين جالوت.. بداية النهاية:

بعد اجتياح المغول لبلاد الشام أرسل هولاكو إلى سلطان مصر «المظفر قطز» يدعوه إلى الخضوع، لكن الرد وصله بقتل رسوله وتعليق رأسه على باب زويلة كإشارة تفيد التحدى الشريف والمقاومة، ثم استنفر المصريين للجهاد، وانضم إليهم الخوارزميون المقيمون فيها منذ مهاجمة المغول مدنهم. وسار قطز بجيشه على طريق السواحل الفلسطينية حتى عكا.

ورغم تواجد الصليبيين فى تلك الأنحاء إلا أنهم آثروا الحياد لما رأوا من قسوة المغول ونهبهم صيدا التابعة لهيمنتهم.. وكذلك انتظاراً لنتائج الحرب!! ثم اتخذ السلطان القائد قطز طريق الجنوب الشرقى مجتازاً الناصرة حتى توقف عند «عين جالوت» وفيها اشتبك مع الجيش المغولى بقيادة كتبغا النسطورى وحلفائه الأوفياء من الكرج والأرمن. وحين اختلت صفوف المسلمين فى المعركة انطلق القائد قطز كالسهم مدفوعاً بغيرته الدينية مخافة هروبهم أمام المغول حتى جعلته يصرخ مستحثهم «وا إسلاماه»!!

هذه الصيحة أيقظت الحس الدينى والحماس الروحى ونخوة الرجال فى جنده، ليصمدوا بعدها بشجاعة، ويقاتلوا قتال الموت من يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٩ هـ - ٣ سبتمبر ١٢٦٠م لتدور المعركة على المغول «فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة قتل فيها أميرهم كتبغا نوين»[1] بعد إرساله إلى سلطان مصر وهو يرسف فى أغلاله.

وبذلك أهدى الجيش المصرى وقائده البطل قطز والأمير بيبرس بحق الفرحة الغامرة لجميع أنحاء العالم الإسلامى، بعد طول انتظار وشوق وتعطش لها فى

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣ / ٢٤٩.

أعقاب تجرع العواصم الإسلامية غصص الذل والقهر والهوان، ولتظهر مصر كقوة ضاربة ومركز ثقل فى الدفاع عن الإسلام قرابة قرنين من الزمن.

وإذ جاء النصر عبر هذه المعركة الفاصلة الرائعة مفاجأة ولطمة شديدة الوقع على المغول، ولأول مرة فوق الثرى العربى، فقد رآها المسلمون فرصتهم للتعبير والتنفيس عما يعتمل فى صدورهم لرد بعض ما كابدوه من مرارة استفزاز مشاعرهم لمواقف المسيحيين الشرقيين.. فخرج مسلمو دمشق فور سماعهم بوصول الجيش المصرى غزة إلى دمشق، يستنقذون أسراهم.. وتذكروا انتهاك مقدساتهم «فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصارى التى خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها وأحرقوها»(١)، كما أحرقوا كنيسة اليعاقبة.

كان لابد أمام قيادة العقل الجماهيرى المتحرك على أوتار العواطف والاندفاع غير المنضبط أن تطفو على مسرح الأحداث بعض الأخطاء منها محاولة نهب أحياء اليهود، لكن هؤلاء العامة أمسكوا عن ذلك أمام تعاليم الإسلام وعدله، حيث قيل لهم بأنهم وإن عرفوا بعدائهم للإسلام لكنهم فى هذه الحوادث لم يكن لهم ضلع فيها، وليس الأمر كذلك مع النصارى(٢).

وبمعركة عين جالوت تذوق المسلمون طعم أول نصر مهم افتقدوه منذ معركة حطين، ودخول المسلمين القدس سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٧م، وبذلك أثبتوا تاريخيًا كونهم - وإن قهروا - أمة أبدا لن يبادوا!!

## مصارع الأعداء:

يمكن اعتبار النصر الساحق فى معركة عين جالوت بداية النهاية للصليبيين والمغول وسائر القوى المعادية الخائنة للإسلام وأهله.

ومع أولى هذه النهايات أو القصاص الإلهى.

(١، ٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٠.

**الصليبيون:**

فالصليبية وقد غامرت بحملاتها نحو الشرق لنهب أرضه وخيراته وإعمال السيف في أهله دونما ذنب، وقد استعانت بالمسيحيين الشرقيين والباطنية وأخيراً المغول، منذ وطئت أقدامهم هذه الأرض الطيبة بمقدساتها، سنة ٤٩١ هـ-١٠٩٧م انتهت غطرستها ووجودها على التراب العربي الإسلامي إثر تعقبهم المماليك بدءاً بعهد البطل الظاهر «بيبرس» ٦٥٨-٦٧٦ هـ/ ١٢٦٠- ١٢٧٧م حتى فقدت الصليبية معظم مستعمراتها. وحلت كارثتهم الكبرى باسترداد أنطاكية سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨م ليحمل السلطان المنصور قلاوون راية الجهاد ٦٧٨-٦٨٩ هـ/ ١٢٧٩ -١٢٩٠م منتزعاً مدناً على الشريط الساحلي حتى عكا التي توجه لاستردادها فمات، ليتابع ولده السلطان الأشرف خليل مسيرة التحرير سنة ٦٩٠ هـ- ١٢٩١م لتتداعى عكا الحصينة التي حاول المجاهد صلاح الدين إنقاذها في حصاره الصليبيين مدة سبعة وثلاثين شهراً.. ولطالما تساقط المسلمون خارج أسوارها حتى طهرها الأشرف «وبقية السواحل التي كانت بأيدي الفرنج في مدد متطاولة ولم يبق لهم فيها حجر واحد»(١).

لم تكن فرحة المسلمين باستردادهم عكا، بأقل من فرحتهم باستعادة القدس، لذا أكثر الشعراء من التغني بهذا الحدث السعيد. ومع بعض أبيات من قصيدة الشيخ شهاب الدين محمود تترجم المعاناة والبعد الديني لهذه الحروب.

الحمـــــــد لله زالت دولة الصلب

وعـز بالتـرك دين المصطفى العـربي(٢)

---

(١، ٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٣٥٥، ١٣/٣٥٩.

مـــا بعـــد عكا وقـــد هُدت قـــواعـــدها

في البـحـر والبـر مـا ينجى سـوى الهـرب

أم الحـــروب فكـم قـــد أنشـــأت فـــتنًا

شـــاب الـوليـــد بهـــا هولاً ولـم تشب

يا يوم عكا لقــد أنسـيت مــا سـبــقت

به الفـــتـــوح ومـــا قـــد خط في الكتب

أغــضـــبت عـــبّـــاد عـــيـسى إذ أبدتـهـم

لله أى رضــــــا في ذلـك الـغـــــضب

وأشـرف الهـادى المصطفى البـشـيـر على

مـــا أسلف الأشــرف السلطان من قــرب

فــقـــرّ عـــينا لهـــذا الفـــتح وابتـــهـــجت

ببـــشـــره الكعـبـــة الغـــراء في الحـــجب

وتم الجلاء عنهـا بطرد آخر صليـبى سنة ٦٩٠ هـ - ١٢٩١م بعـد حـصـار لم يتجاوز الأربعين يومًا!!

وتتـابع الانتـقـام الإلهى الذى لا يخطئ قط من الصليـبـيين، حتى إذا طهـر المماليك الأرض الإسلاميـة فى الشام من الصليـبيين وشرق الجزيرة، بل الشـرق العربى بأكمله، مضوا لاسترداد الأرض التى انتهبت منهم، فحرروا قبرص التى طالما خرج ملوكهـا من آل لوزجنان مغيرين بقوتهم الحربيـة ومـشيـعين الرعب

والفساد فى المدن الساحلية الإسلامية التى جاءت إغارتهم الشنيعة على ثغر الإسكندرية سنة ١٣٦٥م والتى لم يدعها المماليك حتى بعد ستين سنة تمر بسلام ودونما عقاب . . فبواسطة الأسطول البحرى الذى أرسله الملك الأشرف برسباى إلى قبرص استطاع المسلمون الاستيلاء على عاصمتها وتدميرها بما يليق واقتراف الصليبية مذبحة الإسكندرية ليرتفع نداء «الله أكبر» من فوق كنيستها سنة ٨٢٨هـ - ١٤٢٤م منهيًا حكم الصليبيين . . وعودة الإسلام .

ولئن قيضت العناية الإلهية القادة الأفذاذ من العرب ليكونوا أول من يحمل شرف الجهاد في سبيل الله، ونشر عقيدة التوحيد مقوضة أركان الإمبراطورية الفارسية فى العراق والروحية فى الشام، والروم والقبط فى مصر . . لينتهوا وقد عربهم الإسلام، كان من الطبيعى فى هذه المرحلة الحاسمة إدخال اللغة العربية وتعلمها لتقف هذه الشعوب بعد اعتناقها الإسلام عن قناعة، معرفة حقوقها من خلال تعلم القرآن وتدبر معانيه، والعناية بسلامة نطق مخارج حروفه بعيداً عن العجمة . وبذلك تكون قد أخذت العلوم الإسلامية من أصفى منابعها وأزكاها .

أما وقد مضى خمسة عشر قرنًا ميلاديًا فقد تمكنت العربية فى البلاد المفتوحة . . وحفظ لنا القرآن الكريم استمراريتها، فما عاد يخشى عليها من الرياح الصليبية الوافدة عبر أوربا . عندئذ تسلم شرف قيادة الأمة الإسلامية والدفاع عنها من غير العنصر العربى ما دام الإسلام للجميع، حتى كان للبربر المساهمة الفعلية فى فتح أفريقية والعبور منها إلى إسبانيا .

وتوغل الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى .

وكذلك الأكراد ومن أبرزهم المجاهد الناصر صلاح الدين الأيوبى . . ثم

المماليك ليتحملوا إلى جانب الصمود والدفاع، حرب الاسترداد. حتى قيل فى الأتراك المماليك وهم يستعيدون الأرض الإسلامية من الصليبيين.

الحـــــمـــــــد لله زالـت دولـة الـصـلـب

وعـــز بالتـــرك دين المصطفى العـــربى

ثم تسلم الأتراك العثمانيون راية الجهاد خارج حدود الوطن العربى بعد أن كانوا من أوائل المجاهدين لصد الهجوم الصليبى داخلها منذ الحملة الأولى. وبنقلهم الجهاد خارج الحدود العربية استعادوا جزيرة رودس سنة ٩٢٩هـ- ١٥٢٢م.

هذه النقلة منهم فى الجهاد هزت الصليبية فى عقر دارها لينتشر الإسلام فى أوربا نفسها بداية بإسقاطهم القسطنطينية عاصمة بيزنطة الشهيرة سنة ٨٥٧هـ- ١٤٥٣م وبذلك صدقت فراسة وإرهاصات الفقيه ابن حزم الأندلسى فى قصيدته التى رد فيها على نقفور يوم تحدى العرب المسلمين بقصيدته الأرمينية المشار إليها سابقًا..

سنفـــتح قـــسطنطينيـــة وذواتهـــا

ونجـــعلكم فـــوق النســـور القـــمـــاشم

ونملك أقـــــــصى أرضكم وبلادكم

ونـلـزمـكـم ذل الحـــــر أو الـغــــــارم

ثم توغلوا فى أوربا حيث أخضعوا الصرب سنة ٨٦٢هـ- ١٤٥٨م، فالبوسنة

سنة ١٤٦٣م، فبلغراد سنة ١٥٢١ حتى دقوا أبواب فينا سنة ١٦٨٣م فتوقفوا كيما يستريحوا حقبة من الزمن!!

***

**واليوم.. والمسلمون أكثر من مليار نسمة، يجتهدون فقط من أجل الحفاظ على ما تبقى لهم من أرض!!!**

**الباطنية:**

أما الباطنية التى طالما ساندت الصليبية، وأتعبت قادة المسلمين كنور الدين زنكى، الذى اعتبروه ألد خصومهم لمنعه توسعهم فى أطراف الشام، وتقليم أظافرهم بشنه حرباً شعواء عليهم، إلى جانب خلفه صلاح الدين الذى حاولوا مراراً اغتياله ليخرب بعدها حصونهم.

لقد سبق للباطنية غرز خناجرها المسمومة فى صدور رجال أفذاذ سعوا لإقامة جبهة إسلامية موحدة؛ بداية بصاحب حمص المجاهد جناح الدولة سنة ٤٩٥هـ-١١٠٣م حيث اغتالوه فى حلب بعد أدائه صلاة الجمعة ليلحقوا به أتابك الموصل المجاهد مودود سنة ٥٠٧ هـ، وذلك بعد صلاة الجمعة أيضًا فى الجامع الأموى بدمشق.

كذلك الشهيد آق سنقر البرسقى صاحب الموصل خلال صلاته الجمعة فى مسجدها الجامع سنة ٥٢٠ هـ- وغيرهم العديد من زعماء الجهاد الإسلامى.

كما استعملهم الصليبيون فى مؤامراتهم لإزاحة خصومهم من الصليبيين أيضًا ككونراد الذى قتلته الباطنية بتحريض من الملك ريتشارد إذ «نسب الفرنج قتله إلى وضع من ملك انكتار لينفرد بملك الساحل الشمالى»(١).

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٢١٤.

لقد استمر تعاونهم مع كل من يدفع لهم الثمن. حتى استطاع الظاهر بيبرس كسر شوكتهم، كما جعلهم يدفعون له الضرائب بعد أن كانوا يفرضونها على بعض حكام أقاليم المدن الإسلامية، ثم تعقبهم فاقتحم قلاعهم وخرب حصونهم وشتت جموعهم «ولم يترك للإسماعيلية شيئًا من الحصون»(١).

وإن استمرت جماعات منها تمالئ المغول وتصانع الصليبية، على أنها عادت في النهاية إلى الينابيع الحقيقية للإسلام وفهم منهجه على أسس سليمة سنة ٦٩٩ هـ على يد الفقيه المجاهد الإمام ابن تيمية «فبين للكثير منهم الصواب.. وحصل بذلك خير كثير وانتصار كبير على أولئك المفسدين»(٢) وجعلهم يردون ما أخذوه من أموال الجيش، وفرض عليهم ضرائب يحملونها إلى بيت المال. لينتهي مسارهم بالانضمام تحت منظومة وألوية الجيوش المجاهدة..

وبذلك خسرت الصليبية أحد أهم حلفائها الأشداء.

## المغول:

أما المغول فكان هدفهم إسقاط الخلافة بعد كسر شوكة المسلمين في الأطراف الشرقية للعالم الإسلامي منذ خروجهم سنة ٦١٧هـ.

فإلى جانب اقترانهم بأميرات مسيحيات، ذهب من خاناتهم وقادتهم لاعتناق المسيحية حتى باتوا أشد تعصبًا لها من المسيحيين أنفسهم. فحين خبا بريق وحماس أوربا في إرسال حملة سنة ١٢٨٩م بسبب ما أعقب موقف البابوية مع فرنسا من غزو الإنجويين صقلية، ثم انشغال ملوك الغرب بمشاكلهم كان (أرغون) يلح في رسائله وسفاراته للبابا والملك لويس لتجهيز حملة، حتى إذا

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٣٠٦.

(٢) المصدر السابق ١٤/ ١٤.

فشل ابتلع مرارته «ولم يصدق أن المسيحيين فى الغرب بما اشتهروا من التظاهر الدينى بالتعلق بالأرض المقدسة، يظهرون هذا الاستخفاف بما يحيق به مصيرها من خطر»(١).

ففى البداية أمدت السفارات الصليبية المغول بشحنات قوية فجرت طاقات عالية من الكره والرغبة للقضاء على المسلمين.. وجاء تحالفهم قوة مزدوجة عاتية زرعت الموت والدمار حيث حلت، حتى واجهت هذه القوة الجائرة أولى كبواتها على وجهها فى معركة عين جالوت ليتواصل اندحارها، على الرغم من التقاط أنفاسها أحيانًا لتنتقم كما حدث سنة ٦٧٧ هـ عندما سار خانهم أبغا فى أعقاب وقعة (يلستين) فى الأناضول وقد سحق الظاهر بيبرس الجيش المغولى ومزقه ثأرًا لتنكيله بالمدن الإسلامية، فما علم حتى سار بنفسه إلى «مكان المعركة ومن فيها من قتلى المغول»(٢) لينتقم ممن وجدهم هناك من المسلمين حتى قتل «مائتى ألف، وقيل: قتل منهم خمسمائة ألف من قيسارية وأرزن الروم»(٣). ولم يقتل أحد من النصارى. كما لم تنج حلب وحمص ودمشق من انتقامه وتحرشاته حتى القرن الثالث عشر الميلادى.

على أن بعضهم وإن تحول عن الوثنية إلى المسيحية لكنهم انتهوا إلى الإسلام، وإن وجد منهم -فى بداية الأمر- من لا يفهم الإسلام على حقيقته حتى إنه لم يتورع من مهاجمة المسلمين، تؤكدها وقفة الفقيه المجاهد ابن تيمية للخان «قازان» الذى غزا دمشق مرتين ١٢٩٩م فيخاطبه:

«أنت تزعم أنك مسلم، ومعك مؤذنون وقاض وإمام وشيخ على ما بلغنا

---

(١) رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية ٣/٦٧٧.

(٢، ٣) ابن كثير: البداية والنهاية: ١٣/١٠٣، ١٤/٩٧.

فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟.. وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين.. وما غزوا بلاد الإسلام، بل عاهدوا قومنا، وأنت عاهدت فغدرت.. وقلت فما وفيت»(١) -يريد دخولهم دمشق أمانا سنة ٦٥٨هـ- ١٢٦٠م-.

على أن الإمبراطورية المغولية التى دوخت وأوجعت بحروبها الضروس قلب العالم الإسلامى، انتهت بجميع فصائلها تحت راية الإسلام وشريعته فى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى، حتى باتت ترى فى الصليبيين أعداء الدين الذى ينبغى جهادهم وطردهم حيثما وجدوا!!!

## المسيحيون الشرقيون:

لما كان طابع وهدف الحروب الصليبية دينيا -فى ظاهره- كان من الطبيعى مشاركة المسيحيين الشرقيين من أرمن وسريان ويعاقبة ونساطرة من سكان الوطن العربى، للنيل من المسلمين بمساعدة الصليبيين منذ بدء وصول حملتهم الأولى، لتكون أنطاكية الحصينة من أوائل المدن التى سقطت لخيانة سكانها الأرمن بشخص مملوك لياغى سيان، وقد أظهر الإسلام وأخفى عقيدته المسيحية.

والواقع أن الأرمن استطاعوا أن يتصدروا قائمة الخيانة للأرض العربية ضمن سجل حافل بتذبذبهم.

فقد قاوموا الدولة البيزنطية، ثم حالفوا الصليبيين، وظاهروا عليهم بالمسلمين، وكما هللوا للصليبيين بالاستيلاء على بيت المقدس، عادوا ليسهموا فى فتح أبوابه للمسلمين.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية: ١٤/ ٩٧.

وكانوا معهم يداً عاملة ساعدت فى إرشاد الصليبيين على مواقع الأخشاب لتعمير القدس يدا بيد على عهد بلدوين الأول.

وعندما هاجم المغول سلاجقة الروم سنة ١٢٤٣م وأنزلوا بهم هزيمة سارع ملكهم هيثوم بتقديم ولائه ونفسه فى خدمتهم سنة ٦٥٢هـ- ١٢٥٤م ليقف أمام خان المغول وكله طاعة وخضوع. كما تحالف مع بوهيموند السادس أمير أنطاكية لمحو نزاعاتهما السابقة عن طريق المصاهرة.

ولبعض الأرمن دورهم الخطير وبعد نظرهم السياسى ضمن مخططات خبيثة وماكرة فى الوصول إلى سدة الحكم، علاوة على تنكيل بعضهم بالمسلمين تحت غطاء إسلامه السياسى... ورغم كثرة الشواهد، رأيت التوقف عند أحدهم وقد حكم الموصل، المدينة التى ابتليت بمثل هذه الشخصيات. فبدر الدين لؤلؤ الذى أسلم ظاهراً لم تكن خيانته بأقل من فيروز الذى سلم انطاكية سراً لبوهيموند فى الحملة الصليبية الأولى، على أن خيانة بدر الدين جاءت بشكل مغاير فهو «بعد أن ملك الموصل.. نحواً من خمسين سنة، وكان ذا عقل ودهاء ومكر»[١] مدة أتاحت له إفناء أجيال عديدة من آل زنكى ليصفو له الملك، ولأولاده من بعده إذ «قتل أولاد أستاذه غيلة واحداً بعد واحد إلى أن لم يبق معه أحد منهم»[٢].

ومعروف أن أتابكة الموصل وأصحابها أول من شعر بخطر الصليبيين فهبوا بشجاعة لمقاومتهم.

ويكشف أبو الفدا عن طبيعة هذا المملوك الأرمنى فى القضاء على آخر ملوكهم «ناصر الدين محمود، فقد أقامه بدر الدين (صورة) حتى تمكن أمره،

---

(١، ٢) ابن كثير: البداية والنهاية: ١٣ / ٢٤٢.

فحجر عليه، وكان لا يصل إلى أحد من الجوارى أو السرارى حتى لا يعقب »[1].

وبدا تلهفه للتخلص منه عندما « ضيق عليه فى الطعام والشراب »[2] حتى مات سنة ٦٣٠هـ، بيد أن عقاب الله كان سريعًا إذ لم ينعم ولده الصالح ليحل بديلاً عن ناصر الدين، فيحقق آمال والده الماكرة. ففى سنة ٦٦٠هـ « أوائل رمضان أخذت التتار « الموصل » بخديعة بعد حصارها أشهراً، وطمنوا الناس، وخربوا السور، ثم بذلوا السيف تسعة أيام وأبقوا صاحبها الملك الصالح إسماعيل أيامًا ثم قتلوه وقتلوا ولده علاء الدين الملك »[3]. وبذلك فجع بدر الدين بولديه جزاء ظلمه!.

وبدر الدين.. هذه الشخصية الغامضة حاولت تأجيج الفتنة بين أتباع المذاهب الإسلامية إذ كان « يبعث كل سنة إلى مشهد على قنديلاً ذهبيًا زنته ألف دينار »[4].

وعز ابن كثير ذلك « بقلة عقله وتشيعه »[5].. على أن هذا التعليل يبدو بعيداً إذا علمنا بتعصب أهل الموصل لمذهبهم السنى.. وأهل كربلاء والنجف حيث ضريح الحسين وعلى كرم الله وجهه، لمذهب الشيعة.

وعلى ذلك فلن يكون لهديته معنى سوى إشعال نار الفتنة وإذكاء روح التشاحن والعداء بين أهل المذهبين؛ سيما والأجواء فى تلك الحقبة مشحونة لاندلاع فتيل الفتن فى العراق، تؤججها ذرائع مختلفة. والتاريخ يحفل بالكثير

---

(١، ٢) ابن كثير: البداية والنهاية: ١٣/ ١٥٧.

(٣) العماد الحنبلى: شذرات الذهب: جـ٣ ق١ ص٣٠٠.

(٤، ٥) ابن كثير: البداية والنهاية: ١٣/ ١٤٢، ١٣/ ٢٤٢.

منها؛ وبهذا يكشف اللثام عن روحه الصليبية التى عاشت الفرحة لسقوط الخلافة العباسية ومسارعته بعرض خدماته وهداياه النفيسة على هولاكو منها «جوهرة يتيمة طلب أن يضعها فى أذن هولاكو»(١).

على أن مكائد الأرمن سواء فى مملكة أرمينيا أم فى غيرها من المدن الإسلامية اجتثت على يد المماليك لتسقط عاصمتها «سيس» بعدما فقدت من اعتمدت عليهم لينتهى آخر ملوكها ليو السادس أسير ذليلاً مهانا فى عصر الكنانة زمن السلطان شعبان سنة ١٣٧٤م ثم ليتوجه بعدها إلى باريس ليموت فى المنفى بعد أن سعت البابوية لافتدائه.

أما الكرج فإن عداءهم للمسلمين قديم وحافل بمعارك طاحنة، كما حدث سنة ٥٥٧ هـ، حينما اجتمع منهم نحو ثلاثين ألف مقاتل دخلوا مدينة دوين من أذربيجان وقتلوا زهاء عشرة آلاف منهم «.. وأعروا النساء.. وقادوهن. حفاة عراة، وأحرقوا الجامع والمساجد»(٢).

هذه الفعلة الشنعاء استنكرها حتى نساء الكرج أنفسهن وقلن لرجالهن:

«لقد أحوجتم المسلمين إلى أن يفعلوا بنا مثل ما فعلتم بنسائهم»(٣). وتحقق ذلك على يد «شمس الدين ايلدكز» صاحب أذربيجان من ذات السنة!!.

---

(١) شمس الدين الذهبى: سير أعلام النبلاء: جـ٢٣/٣٥٧ «كما أورد أنه كان يحتفل بعيد الشعانين وهو أحد اعياد النصارى، مما أبغضه حتى قيل فيه:

يعظم أعياد النصارى محبة ... ويزعم أن الله عيسى بن مريم

إذا نبهتـه نخـوة أريحيـة ... إلى المجد قالت أرمنيته: نم

(٢، ٣) ابن الأثير: الكامل: ٩/٤٥٨.

على أن الكرج وقد غزوا المسلمين بداية من سنة ٦١٧ هـ، هبوا لممالئتهم ونصرتهم ليتابعوا حملاتهم الصليبية بوحشية أعنف..

فقد سارعوا إلى بلاد اللان سنة ٦١٩ هـ بعد أن دمرها المغول سنة ٦١٧هـ. «وضعوا السيف فى أهلها وفعلوا من القتل والنهب ما فعل بهم التتر»[١]!!

كانت هذه الفعلة أول خطوة انتهجوها بعدما قويت شوكتهم فى أعقاب مساعدة المغول لهم حتى دخلوا بغداد مصاحبين لجيشهم حتى نهاية حربهم فى الشام ومصر، ينالون من المسلمين ومقدساتهم... على أنهم زالوا باعتناق المغول الإسلام.

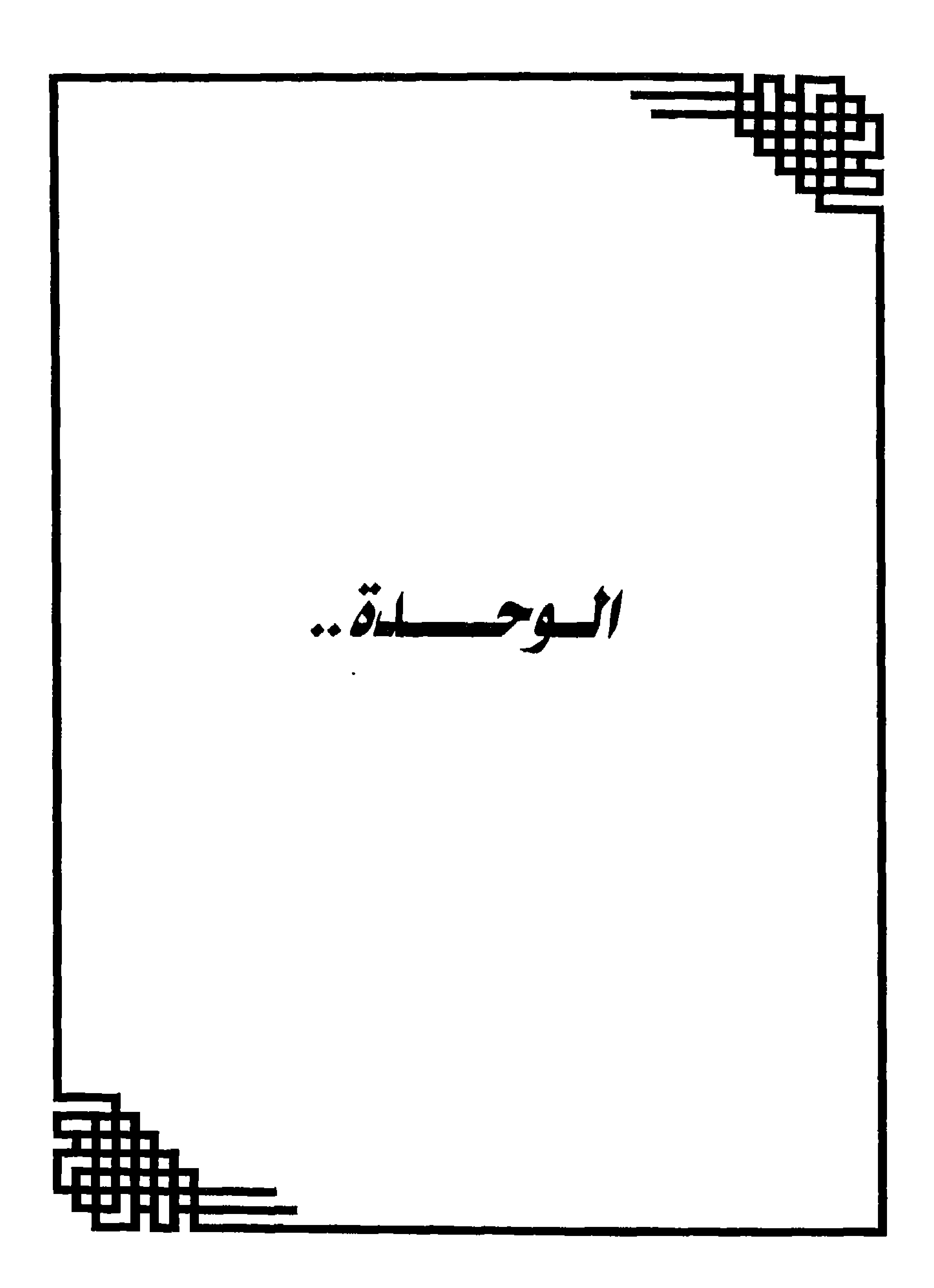
وإن شاءت العناية الإلهية أن تبتلى الأمة الإسلامية بمحنة غزو الحملات الصليبية ثم المغول.. ولتمتد هذه المحنة لأجيال عديدة أتاحت للشخصية الإسلامية بلورة قدراتها الإيمانية العالية فى التحدى والصمود والبذل والصبر لتحقيق النصر على الدخيل الغاصب.. ثم التحرير، فقد جاءت هذه الحروب أيضًا مصدر اختبار معادن الرجال، وكما لا يتساوى الذهب بالصفيح.. كذلك لا يلتقى الشجاع الوفى بالخائن الجبان!!

***

**أما آن لأمتنا أن تعي دروس تاريخها؟!**

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ١٠/ ٤٣٣.



# الـوحــــدة..

## الوحدة.. الضرورة!

ووحـد بين الناس لا البعـد مبعـد

من الساحة الكبرى ولا القرب مقرب

فليس لدى الإسلام شرق ومغرب

وليس لدى الإسلام غرب مغرب

تبقى المخاطر التى تداهم الأمة هى المحك الأكثر أهمية لتكاتفها وتآزرها وتفاعلها الوجدانى كسلاح لتصدى الأعداء.. وشل حركتهم.

لقد كانت الأمة الإسلامية فوق الثرى العربى تعيش معاناة التفكك والصراع خلال هجوم الصليبيين فى حملتهم الأولى.. هذا الغزو كان له أثره الجيد لصحوتها ولململة شعثها عن طريق تحالفات قبل أن تنتهى لوحدة شاملة وجدت فيها طوق النجاة.

ورغم ماجابه الوحدة من تحديات ومعوقات استطاعت انتزاع روح النصر وبجدارة بعد محنة قاست فيها الكثير من الجور.. وضحت بالأنفس والأموال زهاء ثلاثة قرون ليتم طرد آخر صليبى فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى.

لقد عرف المسلمون أول لقاء بين الأخوة.. أو تحالف المدن الإسلامية القريبة فى إمارة أنطاكية سنة ٤٩١هـ - ١٠٩٧م حين هرعوا لمحاولة إنقاذها من الغزو الصليبى ليبرز الجانب المضئ من خصائص هذه الأمة، بإيثار المصلحة العامة على المنافع الذاتية، جسد بدايتها (رضوان)[١] ملك حلب وياغى سيان صاحب

(١) كان رضوان صاحب حلب زعيماً شجاعاً اثبت كفاءة فى مقاومة الصليبيين حتى وصفه مؤرخهم بانه كان «تركيا قوياً وشيطانا من شياطينهم» انظر وليم الصورى: الحروب الصليبية جـ٣ ص٧٢.

أنطاكية الشجاع –على الرغم من محاولة الأخير استلاب بعض حقوق سيده رضوان في فترة ماضية –وإن لم تسجل هذه المحاولة نصراً لخيانة سكانها من الأرمن، من الداخل. إلى جانب محاولة تماثلها تقريباً بقيادة كربوقا أمير الموصل، ذلك أن الأجواء ما كانت مهيأة لإحراز نصر. إضافة إلى اعبارات جوهرية كانت تجرى على مسرح الأرض العربية الإسلامية حيث الخلافة العباسية تعيش تلك الآونة الوهن، هذا إلى جانب اختلاف الأعراق والأجناس بالنسبة للحكام المسلمين من عرب وأتراك وأكراد ومماليك وبربر فى شمال افريقية والأندلس، إضافة إلى ترجيح كفة المصالح الشخصية لدى بعضهم!.

فالنصر كان يغتال من قبل بعض الأمراء أحياناً أو من دار الخلافة نفسها كما هى الحال بالنسبة للدولة الفاطمية، وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك سنة ٤٩١ هـ: «إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام حتى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى»(١). هذا الأمر أقلقهم «فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الشام ليملكوه..»(٢).

هذا علاوة على وجود ثلاث خلافات إسلامية فى العراق ومصر والأندلس رفضت اللقاء مع بعضها سواء على الصعيد السياسى أو المذهبى!..

مثل هذه الأسباب لابد أن تخلف ظلالاً قاتمة نحو أمل ينطلق من مركز الخلافة أيا كان مصدره، يتصدى الغزاة تحت قيادة جبهة موحدة كُفئة.

**الموصل.. رائدة حركة الجهاد:**

وفى غياب هذه القوى كان على الحكام مواجهة الغزو الصليبى بالطريقة التى

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل: ٩/١٣–١٤، ٩/١٤.

تناسبهم. وإذا جاءت أنطاكية كأول مدينة انطلق من أجلها تحالف بعيداً عن توجهات الخلافة، فقد كانت الموصل أول مدينة قادت حركة الجهاد الإسلامى ضد القوى الغازية بشخص أتابكها الأمير مودود «٥٠٢-٥٠٧ هـ/ ١١٠٨- ١١١٣م» حاملاً شرف هذه الراية، بيد أن جهوده لم تحقق نصراً كبيراً، فهذا الأمير المجاهد مودود «وجد نفسه وحيداً فى حركة الجهاد ضد الصليبيين»[١]. إذ إن إمكانات دفاعاته جابهت مقاومة عنيفة بعد أن شكلوا مراكز نفوذ.

فمنذ غزوهم الأرض العربية سنة ١٠٩٧م وحدوا صفوفهم ووطدوا دعائم تواجدهم فى أمهات المدن المنيعة، كأنطاكية والرها إلى جانب قيام مملكة بيت المقدس وغيرها من المراكز والقلاع الحصينة.

وحينما أفاقت الخلافة العباسية من سباتها على أثر هياج المسلمين، وفى مقدمتهم العلماء والفقهاء نتيجة ابتلاع مدنهم وتشريدهم، وجهت حملة بزعامته. ورغم حصده انتصارات عسكرية طيبة إلا أنه فشل فى ضمه مدناً حصينة كالرها التى حاول أكثر من مرة الاستيلاء عليها لاتخاذها منفذاً يخترق خط الدفاع الصليبى ويحقق نواة للوحدة الإسلامية. ذلك أن جهوده كانت تغتال قبل أن تولد، نظراً لحالة التمزق السائدة بين أمراء العرب والأتراك فقد جرفت الأنانية والأطماع الدنيوية الكثير منهم فانسحبوا عائدين إلى إماراتهم خشية الاستيلاء عليها لتربص بعضهم ببعض.

لقد شكلت العنصرية حائلاً مهما استمر طويلاً للحد من متابعة الانتصارات، كما تعرض لها القواد العظام كصلاح الدين والملك «العادل» الذى رد على استفسار ولده المعظم حول مغادرته نابلس وإرجائه مواجهة الصليبيين، ليجيبه محتداً: [بمن أقاتل؟] أقطعت الشام مماليك، وتركت من ينفعنى من أبناء الناس

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ص٣٦٥.

لذين يرجعون إلى الأصول »[١].

ومن المخجل جداً القول: بأن بعض الأمراء خانوا مبدأ الجهاد بعقد أحلافهم الخيانية مع الصليبيين حفاظًا على إماراتهم، وتلك لعمرى طعنات وجهت من داخل الجبهة.. وهى الأشق!!. يضاف إليها هجمات الغزاة من الخارج.

لقد كان من المؤلم حقًا أن تبتر حياة هذا المجاهد باغتياله فى دمشق صائماً على يد باطنى ترصد مغادرته الجامع بعد صلاة الجمعة ويده بيد طغتكين حاكم دمشق الذى وجهت المصادر التاريخية أصابع الاتهام إليه، وقد خاف نفوذه وجهاده، فسارع لإخفاء معالم الجريمة بقتل القاتل.

فمودود الذى طالما لبى نداء طغتكين وأنقذه من غارات الصليبيين الذين لم يخفوا أسفهم لاغتيال البطولة والشهامة فى شخصه بكتاب وجهوه إلى طغتكين:

« إن أمة قتلت عميدها، فى يوم عيدها، فى بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها »[٢]!

بعد اغتيال الشهيد مودود عين السلطان السلجوقى محمد بن ملك شاه الأمير آق سنقر البرسقى أتابكا للموصل وأمره بجهاد الصليبيين. ورغم منازلته الرها وغيرها من المدن لكنه لم يحقق مقتلا فى الصليبيين، أو يخترق صفوفهم من خلال محاورهم بقدر ما يمكن اعتباره نواة لإقامة جبهة متحدة، لذا جابهته ذات المعوقات التى صادفت سلفه مودود، لقد « أبلى زنكى فى هذه المواقف كلها بلاء حسنا »[٣]. غير أن هذا الحلم تحقق على يد ولده عماد الدين زنكى الذى عينه السلطان خلفًا لأبيه لما عرف من فروسيته وشجاعته النادرتين..

---

(١) المقريزى: السلوك: ١ / ١٨٦.  (٢) ابن الأثير: الكامل: ٩ / ١٥٠.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين ١ / ٦٩.

# رجال الوحدة

## عماد الدين.. ونواة الوحدة

## ٥٢١-٥٤١هـ/ ١١٢٧-١١٤٦م

ظهر عماد الدين زنكى فى فترة كانت الأمة العربية الإسلامية متعطشة لمثله، فاضيف كقائد وزعيم إسلامى متميز إلى أتابكية «الموصل» لتحرير الأرض المغتصبة، فكان بحق واضع الأسس الأولى فى صرح الوحدة التى جهد مودود لإقامتها.

إن توحيد المدن الإسلامية فى ظل الفترة السائدة كان يتطلب قائداً يتمتع بحصافة الرأى ورجاحة التفكير إلى جانب الحزم، قبل شجاعة الروح وقوة البدن. ولقد هيأت الظروف الأمير زنكى لمثل هذه المهمة. فكان أول نشاطاته دعم الإمارة التى اتخذها قاعدة لجهاده وانطلاقة لجيشه «فأقام بالموصل يصلح أمورها ويقرر قواعدها»[1] بعد تنظيمها إدارياً لينصرف إلى فرض هيمنته على جميع أعمالها من مدن ومراكز وقلاع.

ولتوطيد مركزه من أجل توحيد المدن، بعد استيلائه عليها، كان لابد من استعمال الذكاء والخدعة لإزاحة أمرائها تحقيقاً لمشروعه الجهادى وفق خطوات مدروسة، قرر معها إرجاء أمر الاستيلاء على الرها الذى لم يره مضموناً، مستفيداً من سابقه مودود وأبيه فى بعثرة جهدهما للاستيلاء عليها. فكان أن توجه إلى نصيبين لإزاحة الأراتقة، وخدمته الأقدار فى الاستيلاء عليها من خلال طائر حط

(١) ابن الأثير: الكامل: ٩/ ٢٤٣.

أمام خيمته وقد حمل رسالة من حسام الدين الأرتقي إلى عسكره طالبًا منهم حفظ البلد حتى وصوله. لكن عماد الدين استثمرها بذكاء لصالحه فحرف محتواها ثم «جعلها في الطائر وأرسله»(١) الأمر الذى فوت على صاحبها الفرصة، فاقتحم مدينته بسهولة، وتابع الاستيلاء على شريط من المدن.. ولم يمانع في المصالحة على بعضها إلى جانب المدن التي كانت تعاني من غارات الصليبيين مثل حران «فراسلوا زنكي بالطاعة واستحثوه على الوصول ففعل»(٢) لخلوها «من حام يذب عنها وسلطان يمنعها»(٣).

وفي حنكته السياسية هادن الصليبيين مدة يسيرة ريثما يفرغ «من الاستيلاء على ما بقي من البلاد الشامية والجزرية»(٤) ليحمي ظهره من هجوم الصليبيين -ضمانًا لمشروعه- فعبر الفرات للاستيلاء على حلب كمدينة ذات موقع استراتيجي وخط دفاعي، بعدما اجتاح في طريقه الكثير من المدن الشامية كمنبج وحصن بزاغة وحماة. كانت الأجواء الداخلية مهيأة لاستقباله.. فقد كانت حلب التي تعود لوالده تعاني تناحر الأراتقة والسلاجقة على حكمها، الأمر الذى كاد يمنح الصليبيين فرصة الوثوب عليها لابتلاعها، فانتهزها زنكي واستولى عليها سنة ٥٢٣ هـ بين فرحة أهلها.. وبذلك أنقذها من أطماعهم وكما يرى ابن الأثير فيها: «فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين»(٥).

وباستيلائه على حلب الشهباء وجه إلى الصليبيين صفحة شديدة الوقع

---

(١، ٣) ابن الأثير: الكامل: ٩ / ٢٤٤.

(٢، ٤) أبو شامة: كتاب الروضتين ١ / ٧٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٩ / ٢٤٧.

لكونها أعاقت الطريق بين الرها وبين بعض المستوطنات الصليبية، الأمر الذى جعلها استهلال توحيد الممالك الإسلامية.

حتى الآن لا نلحظ مواجهة تذكر لعماد الدين مع خصومه الحقيقيين بل تمحور جهاده فى دائرة نفوذ الأمراء المسلمين كسبا لخطوط داخلية تضمن له التوغل والدفاع وإمداد الجيش بطمأنينة لمشروعه، حتى لو اضطر استخدام المكر والدهاء كسلاح لضم المدن التى يتشبث حكامها بها ، وذلك عن طريق تأمينهم واستدراجهم لمغادرتها.. ثم القبض عليهم كما حدث لصاحب مدينة حماة سنة ٥٢٣ هـ - ١١٣٠م خلال فتوحاته فى الشام.

وإذا ما اتسم الأسلوب الذى انتهجه زنكى بالشدة والقسوة أحيانًا حيال أصحابها المسلمين فله العذر!.. إذ لابد للحرية من تضحية وبذل، وقد رأى من هؤلاء الحكام نعرات انعزالية لا يهمهم معها نداء الجهاد ومقاومة الدخلاء الأجانب.. بل حتى الخيانة ما داموا يحتفظون بإماراتهم ومواطن حكمهم.

**فلنذقهم من بأسنا!**

على أية حال بات المناخ العام مهيأ أمام عماد الدين للاشتباك مع الصليبيين خاصة وقد منح نفسه وجيشه فترة كافية المراحة تؤهله إحراز النص. فانطلق من قاعدته «الموصل» نحو الشام حيث حلب.. وفى ذكاء القائد وخبرته وجد فى حصن الأثارب خصوصية كونه لا يبعد عن حلب أكثر من ثلاث فراسخ «وكان أضر شيء على حلب»(١) لجعل الصليبيين منه بؤرة للإغارة على حلب أو تهديدها ما سنحت لهم الفرص.

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين: ١ /٧٨.

ولما كان الصليبيون يدركون أهمية الحصن فقد « جمعوا فارسهم وراجلهم وعلموا أن هذه وقعة لها ما بعدها »[١]. وأمام جموعهم الكثيفة استشار الشهيد زنكي قواده، ولنقف أمام هذه اللفتة على بعض أسرار نجاحه.. فكلهم أشار عليه بأفضلية الانسحاب دفعاً للفشل، لكن لزنكي تصوراته والتماعاته الذهنية الحادة، فقال بثقة:

« إن الفرنج متى رأونا قد عدنا من أيديهم طمعوا وساروا فى أثرنا وخربوا بلادنا ولابد من لقائهم »[٢].

إن القائد الذى استولى على المدن من حكامها المسلمين تحقيقًا لمبدأ إقامة الجبهة الإسلامية الموحدة محال أن ينثنى أمام العدو الحقيقى، ودارت المعركة شديدة لتنتهى بهزيمة ساحقة للصليبيين، وليتسلم الجيش الإسلامى القلعة سنة ٥٢٤ هـ بعد قتل وأسر كل من فيها، أما الحصن فقد أخربه ومحا أثره.

وفى نشوة الفاتح المجاهد وفرحته بنصر المسلمين قال:

« هذا أول مصاف عملناه معم، فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه فى قلوبهم »[٣].

ومن استمرار الأجواء الرهيبة لما ترتبت عليه المعركة من آثار، فقد وصفها ابن الأثير بقوله: « ولقد اجتزت بتلك الأرض سنة أربع وثمانين وخمسمائة، ليلاً فقيل لى: إن كثيراً من العظام باق حتى ذلك الوقت »[٤]!!

أى بعد مضى ستين سنة على تلك المعركة.

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل: ٩/ ٢٥٤.

(٣، ٤) المصدر السابق ٩/ ٢٥٤.

## ضربة موجعة!

ما بين السنوات ٥٢٤-٥٢٩ هـ ضم القائد الشهيد زنكى بعض المدن الشامية والعراقية لتوحيد القوى على رغم إضاعة الكثير من جهوده فى المشاكل الدائرة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية.

وفى هذه السنة (٥٢٩هـ - ١١٣٥م) كاد يدخل دمشق التى طالما استعصت عليه، ليتسلمها من صاحبها إسماعيل بن تاج الملوك بورى الذى «تابع الرسل إلى زنكى يحثه على الوصول إليه»[١] بيد أن المؤامرة التى دبرتها أمه أطاحت به وبأحلام عماد الدين الذى ما إن وصلها حتى فوجئ بقيام أخيه شهاب الدين محمد بورى وقد ملكها ودافع عنها.. إلى جانب الخليفة العباسى «يأمره بصلح صاحب دمشق»[٢]. وهكذا ضاعت فرصة ذهبية من جهود توحيد الجبهة العربية الإسلامية لضم العراق والشام.

بيد أن هذه المفاجأة لم تفت من عضده، فانطلق يعوضها فى ميادين جهادية أخرى، إلى جانب نوابه الذين باغتوا الصليبيين سنة ٥٣٠ هـ - ١١٣٦م بهجوم فى اللاذقية لينالوا منهم «فسبوا وغنموا غنائم جزلة، ولم يقدر الفرنج على شىء يفعلونه مقابل هذه الحادثة، عجزاً ووهنا»[٣] نظراً لمتاعب الصليبيين الداخلية.

ورأى زنكى المتواجد فى الشام استغلال الفرصة للبحث كعادته عن مدينة يسجل استيلاءه عليها نصراً للمسلمين، وفى ذات الوقت يضعف قوة الصليبيين، ووجد تحقيق ضآلته فى قلعة بعرين التى وصفتها المصادر بأنها من أمنع الحصون

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٧٩، ٩/ ٢٨٠.

(٣) المصدر السابق ٩/ ٢٩١.

وأحصنها ، فزحف إليها سنة ٥٣١هـ - ١١٣٧م ولم يغب عن الصليبيين مدى أهميتها لذلك فـ« ساروا فى قضهم وقضيضهم وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم إلى أتابك زنكى ليرحلوه عن بعرين »(١).

والتحم الفريقان فى قتال ضار عنيف لينجلى غبار المعركة عن هزيمة الصليبيين وقد أخذتهم سيوف المسلمين مما جعل ملوكهم يحتمون بالحصن، أما من هرب فقد استنفر الصليبيين لإيمانهم « أن زنكى إن أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم فى أسرع وقت »(٢) لأنها ستقطع الطريق على الصليبيين عند نهر العاصى لموقعه المهم ما بين حماة وحلب، مما ترك زنكى يقطع الأخبار عمن احتمى بالقلعة بكل وسائلها « فراسلوه فى طلب الأمان ليسلموا ويسلموا الحصن فأبى إلا أخذهم قهراً »(٣). على أن تدفق النجدات الصليبية من الساحل ونحوها، ومن بيزنطة التى كانت على وفاق معهم تلك الفترة، جعلته يوافق على إطلاقهم مقابل تسليم الحصن مع خمسين ألف دينار، فلما فارقوا الحصن وعلموا أنباء النجدة « ندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم »(٤)!!

وخلال حصارهم لم يضيع الوقت فضم إليه المعرة وكفر طابا.

### أحد وجوه الوحدة:

وفى سبيل توحيد القوى الإسلامية، لم يكن زنكى ليقف عند وسيلة واحدة تحقق الأمل المنشود، حتى إنه تزوج « بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٩٨، ٩/ ٢٩٩.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين ١/ ٨٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٩٩.

جاولى »[1] وهى أم شهاب الدين صاحب دمشق وذلك سنة ٥٣٢ هـ – ١١٣٨م اعتقاداً منه إمكانية ضم دمشق بعد أن تسلم حمص منهم لقاء هذه الزيجة « ولكن خاب أمله ولم يحصل على شيء »[2] منها، لكن لا يمكن اعتبار هذه الخطوة –رغم فشلها– سوى تضحية من جانب زنكى الذى أجهد نفسه تحقيقاً لرجاء كان يراود كل مسلم غيور فوق الثرى العربى.

**ووجه آخر :**

حين زحف الإمبراطور حناكومنين سنة ٥٣١ هـ – ١١٣٧م على أنطاكية، أعلن أميرها الصليبى ريموند خضوعه للإمبراطور البيزنطى.. وعقد معه حلفاً لتوحيد قواهما ضد المسلمين ثم توجها نحو الشام لانتزاع مدنه وشل حركة زنكى الناشطة، وخلال زحفها تمكنا من ضم بعض المدن حتى وصلا شيزر. فراسل أميرها العربى « سلطان بن منقذ ليستنجد زنكى »[3] الذى سارع لنجدته. وأمام حشودهم الكثيفة رأى أن يشن حرباً نفسية لإيهامهم بقوة جيشه وكثافته تارة.. ومخاطبتهم بلغة الظفر أخرى « ولم يكن له بهم قوة وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه »[4] حتى أوشك الإمبراطور تصديق زنكى الذى واصل خطته حتى عرف كيف ينسف هذا الحلف القائم بين « الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى »[5] وذلك بإحياء عدائهما التقليدى عن

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ١ /٦٩.

(٢) ابن الأثير : الكامل ٤ /٣٠١.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ١ /٨١.

(٤) ابن الأثير : الكامل ٩ /٣٠٢.

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ١ /٨١.

طريق إرساله إلى الإمبراطور مرة وإلى الصليبيين أخرى يخوفهم من بعض.. وأن الطرف الآخر معه. حتى استشعر كل من صاحبه الخوف لينتهى أمرهما بالرحيل.. فلاحقهم زنكى وظفر بطائفة منهم وأخذ كل ما خلفوه، وتنفس المسلمون الصعداء. وفى هذه الخدعة تتجلى عبقرية زنكى العسكرية فى القيادة.

وفى هذا النصر مدحه الشعراء، ومع قصيدة لابن الخضر الحموى منها..

بعـــزمك أيهـــا الملك العظيم
تذل لك الصعـــاب وتستـــقيم

أمـــا ترى أن كلب الروم
لما تبين أنك الملك الرحـــيم

فـحين رميته بك فى خميس
تيـــقن أن ذلك لا يدوم

أراد بقاء مهجته فولى
وليس سوى الحِمام له حميم

يؤمل أن تجـــود بها عليه
وأنت بها وبالدنيا كريم[1]

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين ١/٨٢.

## الرها.. ذلك الفتح الكبير:

لئن بقى تهديد زنكى دمشق ومحاولة الاستيلاء عليها هاجسًا يؤرقه ويجتهد فى تحقيقه رغم العقبات «لمعاضدة أهلها الفرنج والاستنصار بهم»(١) وقبولهم دفع الجزية، وتنازلهم لقاء الخيانة، عن بعض المدن الإسلامية، حال دون أخذها، على أنه حقق بعض المكاسب بضم مدينة بعلبك وقلعتها سنة ٥٣٤ هـ- ١١٣٩م بعد أن ضيق عليها حربًا، لكنه استلمها بعد تأمين أصحابها، غير أنه نكل بشجعانها من المقاتلين حدًا أخاف أهل دمشق، وقد وجدوا فى عمله رسالة تحذير. ثم أخذ حصن بعرين لتمركز الصليبيين فيه، ولطالما منه «أخربوا ما بين حماة وحلب»(٢).

ثم أخذ الأمير زنكى يتتبع أجواء العلاقة الصليبية البيزنطية، والتى يحكم تقلباتها عامل مصالحهم، فحانت فرصته للاستفادة من الخلاف القائم بين صفوف حكام المستعمرات الصليبية الشمالية وفتور علاقتهم ببيزنطة. لذا كان يبدو على زنكى تأهيله واستعداده تمامًا من حيث ثقله العسكرى ووضعه النفسى لتوجيه طعنة رهيبة فى صفوف الغزاة، وليس أفضل من التوجه الآن لاسترداد الرها. تلك الإمارة التى طالما تمنى المسلمون استعادتها ليصبح طريق قوافلهم آمنا بين الشام والعراق والجزيرة.

ولمحاولته الجريئة هذه استعمل فنه وذكاءه المتوقد.. فهو يدرك تمامًا مدى حصانتها وأهمية موقعها بالنسبة للمسلمين والصليبيين معًا.

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين ١/١٩٥.

(٢) المصدر السابق ١/٨٨.

كما لم يغب عنه متى توجه لحصارها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه امتلاكها.. لذا لجأ إلى الحيلة ريثما يغادرها الأمير جوسلين. «وتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر»(١) وفيها الأراتقة «ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ إلى قصد بلادهم»(٢) فانطلت الحيلة على أميرها جوسلين لإيمانه أن زنكى محال أن يترك خصومه القدامى من الأراتقة ينعمون بالاستقرار لذا غادرها مطمئنا.

كان واضحًا أن القائد الشهيد سيدخل معركة حياة أو موت إزاء تعامله لاقتحام هذه المدينة.. أو المدخل الحقيقى لوحدة القوى الإسلامية وشل حركة العدو ومنع دخولهم، أو تحركهم ضمن خطوط جغرافية عريضة تمتد من الموصل حتى حلب، الأمر الذى كان يخيف الصليبيين فيجتهدون لهدم مثل هذا البناء على أن زنكى ما إن جاءته العيون بمغادرة جوسلين الرها حتى أكد إصراره قائلاً والمائدة تقدم له:

«لا يأكل معى على مائدتى هذه إلا من يطعن غداً معى بباب الرها»(٣).

وفى هجومه المباغت السريع تمكن من إحداث ثغرة فى سورها «ولجَّ فى قتاله خوفًا من اجتماع الفرنج والمسير إليه واستنقاذ البلد منه»(٤).

وسقطت البلدة الحصينة أمام إصراره وشجاعته مع قلعتها سنة ٥٣٩هـ-١١٤٤م فدخلها ظافراً بعد حصار استغرق ثمانية وعشرين يومًا فقط ليأخذ جيشه فرصته من النهب والقتل والسبى، بيد أن زنكى أعجب بجمال المدينة فلم ينلها ما نال حصن الأثارب، فتلطف بأهلها من المسيحيين الشرقيين باستثناء الصليبيين الغزاة. وعليه أمر برد كل ما غنمه الجيش من أمتعة أو مال أو أسرى..

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين ١/ ٩٤.

(٢، ٣، ٤) ابن الأثير الكامل ٩/ ٣٣١، ٩/ ٣٣١، ٩/ ٣٣٢.

فعادت المدينة كما كانت بعدما أبقى حاميته لينصرف إلى ضم كل المدن الواقعة شرق الفرات مما بأيدى الصليبيين، ما عدا البيرة فقد ترك حصارها، لقتل نائبه في الموصل (نصير الدين) انتظاراً للأخبار. وفزع أهل البيرة من الصليبيين العاقبة إن ملكها زنكى «وكانوا يخافونه خوفًا شديداً»[١]. فأرسلوا إلى صاحب ماردين وسلموها له، فملكها المسلمون أيضًا.

وبذلك لم يتبق للصليبيين أيما نفوذ شرق الفرات.

لاشك أن سقوط الرها شكل ضربة قاصمة في تاريخ الحروب الصليبية حتى ارتجت لها أوربا، ليترتب على ذلك تجهيز البابوية لحملة صليبية ثانية!!. ولا غرو فقد كانت الرها «من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلا، وهى أحد الكراسى عندهم، فأشرفها البيت المقدس ثم أنطاكية، ثم قسطنطينية والرها»[٢].

على أن الخسارة الكبرى التى لحقت بالمجاهدين جاءت في استشهاد البطل المجاهد عماد الدين زنكى «صاحب الموصل والشام»[٣] الذى دوخ الصليبيين ولقنهم دروسًا قاسية، عندما اغتاله أحد خصيانه غدراً وهو نائم، إثر توبيخه لجرأة صدرت منه، وذلك خلال محاصرة زنكى قلعة جعبر سنة ٥٤١ هـ - ١١٤٦م وبعد ثلاثة عقود قضاها غازيًا في سبيل الله.

وبذلك انطوت صفحة مشرقة من جهاد زعيم إسلامى، وصفه ابن الأثير:

«كان أشجع خلق الله»[٤] وأيضًا..

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٣٩.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين ١/ ٩٤.

(٣، ٤) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣٤٠.

«كان عظيم الهيئة لا يقوى القوى على الصغير»[1].

ووصف العماد الكاتب الجانب الخاص بهمومه لابتلاء الأمة الإسلامية بالدخلاء الصليبيين: «كان أول من فطن إلى الأمر، وهب يعمل له فى عزم وثبات أمير الموصل عماد الدين زنكى»[2].

أما المؤرخ باركر فوصفه: «إن زنكى ما كاد يستقر فى حكم الموصل سنة ١١٢٧م حتى أخذ طغيان الفرنج فى التداعى»[3].

تلك صفات غابت فى وقت كان المسلمون أحوج ما يكونون إلى دهائه وحسن زعامته وعدالته وشجاعته وتوهج ذهنه.

ولئن اقترب تحقيق حلم الوحدة الإسلامية فوق الأرض العربية كمبدأ استهله عماد الدين زنكى واقعًا، ليلقى وجه ربه قبل إتمامه.. فإن العناية الإلهية ادخرت ذلك لولده الملك العادل الشهيد «نور الدين» الذى مضى حاملاً لواءه على ذات الطريق!..

## نور الدين.. وطريق الوحدة:

إذا غادرنا عماد زنكى موحداً العراق والشام.. فقد برز نور الدين زنكى ليكون رجل الوحدة الشاملة.

لم تأته القيادة من عبث.. فقد كان مرافقًا لأبيه فى حروبه. وعندما استشهد

(١) ابن الأثير: الكامل ٩ / ٣٤٠.
(٢) العماد الكاتب: الفتح القسى ١٩.
(٣) باركر: الحروب الصليبية ٤٩.

أخذ خاتمه من يده، لعلها إشارة لمواصلة جهاده. ثم توجه إلى «حلب»[1] التى اتخذها مقراً له. فى حين استقل أخوه سيف الدين بالموصل. وبذلك اقتسم الأخوان الكبيران مملكة أبيهما عن رضا مما سهل تفرغ نور الدين للجهاد على أمل مواصلة توحيد الجبهة العربية الإسلامية.

وكان من الطبيعى جداً أن تطل الأفاعى من جحورها لتنقض -فى تصورها- على الفريسة، لذا فقد هلل الصليبيون بعد أن خلت ساحة الجهاد الإسلامى من زعيمها عماد زنكى آق سنقر، فكانت الرها أول من أعلن العصيان على الحامية الإسلامية «فراسل أهل الرها وعامتهم من الأرمن..»[2] جوسلين الثانى الذى سرعان ما لبى النداء فدخلها، بيد أن مقاومة فرسان قلعتها وإسراع نور الدين لإنقاذها حمل جوسلين على الهرب، فاقتحم نور الدين المدينة سنة ٥٤٢هـ-١١٤٦م ليعاقب أهها قتلاً وسبياً وتشريداً، هذه المدينة التى لم يرع أهلها الانتهازيون جميل والده بحفظها من الهدم والنهب يوم دخلها جيشه، ورعى سكانها من الأرمن برد السبى وكل ما غنمه جيشه من أموال. فكان لابد لنور الدين أن يلقنهم درساً قاسياً فى الوفاء، وليوصل للصليبيين رسالة حول مقدرته على حفظ المدن الإسلامية من التداعى.

ورغم أن الرها من أملاك أخيه سيف الدين الذى سارع فى إرسال جيش من الموصل، لكنه تركها لنور الدين الذى سبقه لحمايتها. وفى هذا تتجلى وحدة الأسرة الأتابكية لتساعد على توحيد الصف الإسلامى.

وفى الطرف الآخر لم يكن الطامعون والخونة من حكام المسلمين أقل تحمساً

---

(١) انظر الاصطخرى: المسالك والممالك ص٤٦، ياقوت الحموى: معجم البلدان: المجلد الثانى ص٣٠٤ حول أهمية حلب من الناحية الجغرافية حيث استراتيجيتها التى تربطها بالموصل، وسائر مدن الشام.

(٢) ابن الأثير: الكامل: ٣٤٢.

لاستعادة ما منحه عماد زنكى، فكان أول من تحرك صاحب دمشق ليسترد بعلبك وقلعتها سنة ٥٤١ هـ من نائب زنكى الذى خاف ألا تصله نجده عاجلة من أبناء زنكى «فصالحه وسلم القلعة إليه»(١).

## جهود الأشقاء فى إرساء قواعد الوحدة:

أما الملك سيف الدين زنكى صاحب الموصل فاستعد لاسترجاع ما أخذه الأراتقة بعد موت والده عماد زنكى، ولم ينس هو الآخر أن يلقنهم درساً قاسياً، حتى صاح حسام الدين الأرتقى صاحب ماردين:

«كنا نشكو من أتابك الشهيد. وأين أيامه؟.. لقد كانت أعياداً»(٢).

ويبدو أن شجاعة سيف الدين ملكت إعجاب الأمير الأرتقى فلم يملك إلا أن يزوجه ابنته، وهكذا قدر للأخوين الوقوف فى خندق واحد تعزيزاً لوحدة الممالك الإسلامية.

وحين تعرضت دمشق لهجوم الصليبيين سنة ٥٤٣هـ - ١١٤٨م من قبل ملوك الحملة الصليبية الثانية، أسرع حاكمها مجير الدين أنر مستنجداً بسيف الدين صاحب الموصل الذى خف مع أخيه نور الدين، على الرغم من موقف «أنر» السيئ تجاههما بعد موت والدهما. لكن فى سبيل وحدة المدن تهون التضحية ونكران الذات!.. فخرجا ليخلق اسم نور الدين جوا من الذعر والتخاذل فى صفوف الصليبيين الذى استغله معين الدين لمصلحته السياسية بتهديد الصليبيين قائلاً: «إن ملك المشرق قد حضر فإن رحلتم وإلا سلمت البلد إليه

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ٩/٣٤٥، ٩/٣٤٩، وفى هذا المعنى ذكر ابن الأثير فى كتابه: التاريخ الباهر ص٩١ هذا البيت:

رب يوم بكيت منه فلما ... صرت فى غيره بكيت عليه

وحينئذ تندمون»[1]. ويصف أبو شامة طرفًا من وحدة الأخوة الأتابكية الزنكية التى أعانت على وحدة الأمة العربية نتلمسها من قول سيف الدين لأخيه نور الدين:

«... وإنما غرضى أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه»[2]! وما أسرع ما يتلاشى الخلاف أمام السعى لوحدة العائلة. فقد عالج نور الدين خلافه مع أخيه قطب الدين بعد موت أخيهما سيف الدين، ليسلمه مدينة سنجار التى هى من أعمال الموصل ويأخذ بدلها حمص الواقعة ضمن أملاكه بالشام كى يفوت الفرصة على الكثير من الحكام المسلمين والصليبيين معًا، الذين تربصوا تقويض أركان هذه العائلة العريقة فى جهادها كيما تخلو الأجواء لمطامعهم الشخصية!

* * *

**إن الأحقاد والأطماع تنتهى إذا حسنت النية، وصدقت النفوس الجهاد من أجل وحدة الأمة.**

## زنكى.. ومهاجمته الصليبيين:

بعد أن استهل نور الدين جهاده باستعادة الرها، واصل الجهاد ضد الصليبيين بمهاجمتهم وانتزاع بعض حصونهم وقلاعهم التابعة لأنطاكية «وكان الفرنج بعد مقتل والده قد طمعوا وظنوا أنهم يستردون ما أخذه». بيد أن فألهم خاب. لذا كان عليهم أن يتوقعوا أن ما سيأتى أشد وأنكى مما مضى!! ليستمر نور الدين فى الاستيلاء على المدن الشامية معززاً وجوده فيها.. فهو مطمئن من جهة الشرق

(١) ابن الأثير: الكامل ٩ / ٣٥٤.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين ١ / ١٢٢.

حيث الموصل وأتابكتها لأخيه، كى يتفرغ للمستعمرات الصليبية المنتشرة فى الشام والتى يحاول أمراؤها التوسع على حساب الأرض العربية الإسلامية.

## موقف حاسم:

كانت إمارة أنطاكية أكثر عرضة لهجومه لقربها منه، حيث كثف عملياته. بيد أن الصليبيين لم يقفوا موقف المتفرج وهم يتابعون استيلاءه على المدن. فعندما قصد حصن حارم التابع لها سنة ٥٤٤ هـ - ١١٤٩م خربه ليتوجه إلى حصن انب محاصراً له، برز «ريموند» أمير أنطاكية.. لكن وقد ركبه الغرور لم يقدر قوة نور الدين العسكرية، فاشتبك معه «وانجلت المعركة عن هزيمة الفرنج»(١) وإبادة جيشه إلى جانب «رينو» صاحب مرعش.

هذه البشارة أهداها نور الدين إلى العالم الإسلامى، فتغنى الشعراء بنصره. ومما قاله القيسرانى الكاتب فى قصيدته الشهيرة:

هذى العزائم لا ما تدعى القضب

وذى المكارم لا ما قالت الكتب

صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها

براحة للمساعى دونها تعب

ما زال جدك يبنى كل شاهقة

حتى بنى قبة أوتادها الشهب

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين جـ١ / ص١٤٥.

أغــرت ســيــوفك بالإفــرنج راجــفــة

فــؤاد روحــيــة الكبــرى لهــا يجب

ضــربت كــبــشــهم منهــا بقــاصــمــة

أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب[1]

## رجل المهمات الصعبة :

وتبع هذه الجولة المظفرة أسره للأمير جوسلين صاحب أنطاكية أثناء خروجه لصيد سنة ٥٤٦ هـ « وكان أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطانًا عاتيًا شديداً على المسلمين قاسى القلب وأصيبت النصرانية كافة بأسره »[2].

ولم يضع نور الدين فرصة كهذه تفلت منه، فسارع لضم كل قلاعه وحصونه ولم يترك الصليبيين يلتقطون أنفاسهم فى هذه الإمارة التى أوشكت أن تتجرد من معظم المدن التابعة لها بعدما أخذ تل باشر وعين تاب وإعزاز وتل خالد ودقورس والراوند وبرج الرصاص وحصن البارة وكفر سود وكفر لاثا ودلوك ومرعش ونهر الجوز محققًا بذلك شريطًا طويلاً.

على أن ( نور الدين ) القائد الذكى المتحسب للمفاجآت لم يترك هذه المدن نهبًا للظروف فقد كان يؤمن حمايتها قبل مغادرته إياها بحامية قوية مجهزة بالمؤونة الكافية إلى جانب الأسلحة والعتاد « خوفًا من نكئة تلحق بالمسلمين من الفرنج »[3].

وأمام هذه النكبات المتوالية حشد الصليبيون وتوجهوا نحوه عند دلوك سنة ٥٤٧هـ بعد أن « اقتتلوا أشد قتال رآه الناس، وصبر الفريقان ثم انهزم الفرنج »[4].

---

( ١، ٢ ) ابن الأثير: الكامل: ٩ / ٣٦٣.

( ٣، ٤ ) ابن الأثير: الكامل: ٩ / ٣٧٠، ٩ / ٣٧٥.

بعد أن أوقع بالكثير من فرسانهم الأسر والقتل!..

وفيها أكثر الشعراء من مدحه لإعادة الوجه المشرق الشجاع للمسلمين. ومن أطرف القصائد.. تلك التى جمع ناظمها جديد المدن التى استولى عليها، ومنها:

أعــــدت بعــــصــــرك هذا الأنيق
فــتــــوح النبى وإعــــصــــارها
وكــــان مــــهــــاجــــرها تابعــــيك
وأنــصــــار رأيك أنــصــــارها
ومــــا يــوم إنب إلا كــــتــــيــ
ك، بل طال بالنوع أشــبــــارها
ولما هبــــبت ببــصــــرى ســــمكت
بأهبــــاء خــــيلك أبصــــارها
ويوم على الجــون جــون الســــرا
ة فــســــعطهــــا عــــارها
صــدمت عــزيمتــهــا صــدمــة
أذابت مع الماء أحــــجــــارها
وفى كل باشــــر باشــــرتهم
بزحف تســــور أســــوارها

وإن دالكتهم دلوك فقد
شددت فصدقت أخبارها
مشاهد مشهورة نمنمت
على صفحة الدهر أسطارها(١)

والحق أن لحصن «الغريمة» خصوصية الموقع فباستيلاء نور الدين عليه تحكم في الطريق الممتد من طرابلس حتى أنطرسوس، وكذلك فى الطريق الذى يتجه من طرابلس إلى داخل البلاد حيث البقيعة.

وباستيلائه على الرها ومعظم أنطاكية فقدت الصليبية أفضل خطوط هجومها ودفاعاتها، وباتت أجزاؤها مقسمة بين القوى الإسلامية من آل زنكى والأراتقة إلى جانب سلاجقة الروم.

## دمشق.. مفتاح الوحدة:

لم يكن بوسع القائد نور الدين الذى عرف بطموحه العظيم من أجل الجهاد فى سبيل الله.. وميوله لتوحيد الجبهة الإسلامية ليترك دمشق العاصمة ذات الموقع الاستراتيجى والثقل التاريخى والسياسى الأثيل توشك أن تترنح ثم تسقط فريسة للصليبيين بعدما غدت فى ظل حاكم ضعيف (مجير الدين أنر) الذى أغرى الصليبيين ضعفه عند تنازله الأول لهم عن عسقلان التى كانت تعترض طريق نور الدين إليها، إلى جانب قطيعة سنوية لقاء انصرافهم عنها، لإبعاد خطر نور الدين فى ضمها!!

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين ١/١٩٣.

والواقع أن الصليبيين باستيلائهم على عسقلان «طمعوا فى دمشق»[1] وباتوا يدخلونها وكأنهم سادتها، حتى رأى نور الدين بعبقريته العسكرية أن الوقت قد حان لوضع خطة جديدة يستعمل فيها العقل كسلاح مقاومة عوضًا عن السيف. فهجومه العسكرى لاشك يجعلهم يستنجدون بالصليبيين، لذلك استمال صاحبها «وواصله بالهدايا، وأظهر له المودة حتى وثق إليه»[2]. ثم شككه فى إخلاص رجاله حتى جعله يتخلص منهم -كما أن الشعب راسله سرًا بعدما ضاق بدفع الجزية وبخيانة حاكمها المستمرة ضد إخوانه المسلمين، مما سهل الطريق أمامه ليدخلها سنة ٥٤٩هـ وسط فرحة أهلها الغامرة.

وفى الوقت الذى اكتشف صاحبها الحيلة الذكية واستنجد بالصليبيين كعادته، واعدًا إياهم بتنازله عن بعلبك هذه المرة وزحفوا لإنقاذه، كان نور الدين قد أرسى قواعده فيها. ومما ساعده ابتعاد «الأجناد والرعية عن الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله»[3] فكان «أن نقل عاصمة ملكه إليها»[4].

وأمام نخوة أهلها وشجاعتهم استعمل نور الدين معهم سياسة كريمة تليق بأصالة هذا الشعب العربى الأبى العريق والصادق العقيدة، والمؤمن بضرورة توحيد الجبهة ضد القوى الأجنبية الدخيلة التى غادرت كعادتها أمام قائد الأمة، تجر أذيال الفشل. وألغى نور الدين الضرائب المجحفة بحق الشعب.. وأغرق أسواق دمشق بالمواد الغذائية.

* * *

**من الثوابت التاريخية أن الوحدة الحقيقية لا تصنعها أهواء زعماء وقادة بل رغبة الأمة.. وإيمانها بهذا الحق.**

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل: ٩/ ٣٩٨.

(٣) القلانسى: ذيل تاريخ دمشق: ٣٢٧.

(٤) العماد الكاتب: الفتح القسى: ٢٠.

## هو الفحل.. لا يقرع أنفه:

واستمر نور الدين يعد لملحمة الوحدة.. ويعزف على وترها بالعقل والسيف، لا بقلم وخطرات شاعر. فبعد أن فتح دمشق بلغ السلطان نور الدين رجل الوحدة من مظاهر القوة والهيبة والبأس ما أنزل الرعب فى قلوب الصليبيين حتى إنهم لم يتحرجوا بتنازلهم له عن قلعة تل باشر سنة ٥٤٩ هـ رغم قربها من إقليم حلب «فراسله من بهذه القلعة من الفرنج وبذلوا له تسليمها»(١).

أما حارم التى وصفت بأنها «قلعة منيعة فى نحور المسلمين»(٢) فقد حاصرها نور الدين سنة ٥٥١ هـ مضيقًا عليها فأرسلوا إليه «وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم»(٣). أما بعلبك فقد تسلمها سنة ٥٥٢ هـ من صاحبها ضحاك البقاعى بالدهاء والتلطف خشية استنجاده بالصليبيين إن أخذها نور الدين حربًا وذلك «لقربه من الفرنج»(٤). لكن القائد المحنك الذى عرف كيف يحقق النصر، وتؤلمه الهزيمة بعدما ذاق مرارتها فى وقعة البقيعة وذلك حين حاصر حصن الأكراد سنة ٥٥٨هـ معتزمًا التوجه بعدها نحو طرابلس أخذه الصليبيون المتحالفون على حين غرة، لدرجة لم يستطع معها الفرار بنفسه إلا بصعوبة، بعد قتل وأسر الكثير من فرسانه ليتخذ موقعه قريبًا من أرض المعركة، الأمر الذى جعل بعض قواده يحذرونه، غير أنه وبخ من أخافه تكرار هجوم الصليبيين قائلاً: «إذا كان معى ألف فارس لقيتهم ولا أبالى بهم، ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأرى وثأر الإسلام»(٥).

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ٩/٣٩٩، ٩/٤٠٦.

(٣، ٤) المصدر السابق ٩/٤٠٦، ٩/٤١٩.

(٥) المصدر السابق ٩/٤٦٣.

وتجسيداً لمفهوم الوحدة استنفر أصحابه بدءاً بأخيه وأصهاره من سلاجقة الروم وكل الأطراف الإسلامية استعداداً للجهاد والأخذ بثأره والجد في قتالهم على أرض الشام ليصرفهم عن مصر بعد أن سمع «بمسير بعض الفرنج مع ملكهم إلى مصر»[1].

وفي هذه الجولة نستمد كل معاني الترابط والتوحد والحب بين قائد المسيرة الإسلامية وبين الأمة حيث كتب للزهاد والعباد «يستمد منهم الدعاء، ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزاة»[2] وبدأت المعركة..

كانت الخطة استدراج الصليبيين لتطوقهم بعدها الجيوش الإسلامية وذلك سنة ٥٥٩هـ، وبلغ بهم القتل حداً طلب نور الدين أسرهم، فكان فيهم بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية وريموند الثالث صاحب طرابلس الذى وصف بأنه «شيطان الفرنج وأشدهم على المسلمين»[3]. وأما قتلاهم فقد بلغ زهاء عشرة آلاف!..

ومع كل روعة النصر الذى أحرزه وشفى به غليل المسلمين وغليله أبى دخول أنطاكية بعد استيلائه على بانياس تلافيًا منه إثارة الإمبراطور البيزنطى الذى ينظر إليها كأنها تابعة لبيزنطة بشكل أو بآخر.

وهذا جزء من حصافة القائد وخططه الحكيمة لإحراز النص والمضى فى توحيد الجبهة.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٦٧.

(٢، ٣) المصدر السابق ٩/ ٤٦٨، ٩/ ٤٦٩.

## مصر .. وتتويج الوحدة:

عاشت الخلافة الفاطمية حالة من الضعف والمؤامرات والاضطرابات الداخلية درجة كبيرة خلال حكم آخر خلفائها العاضد بالله. إلى جانب تطاحن الوزراء على السلطة لا يشغلهم سوى ظلم الشعب والإثراء على حسابه خلال سنة ٥٥٨هـ مما كان يسهل دخولها فى حظيرة أى قوة طامعة.

هذه الأحداث جعلت الصليبيين يفكرون جديًا بالاستيلاء عليها كثمرة ناضجة، وإن انصرفت الأنظار نحوها منذ عهد بلدوين الأول حتى باتت الأحلام تترجم تدريجيًا إلى واقع أخاف نور الدين وأقض مضجعه من حادث يتجدد يضعف الإسلام.

على أن مخاوف زنكى لم تطل.. إذ انتعشت آماله عندما سعى إليه وزيرها «شاور» مستجيرًا به سنة ٥٥٩هـ - ١١٦٢م لمساعدته فى إنقاذها من أطماع الصليبيين وغريمه الوزير ضرغام، وذلك لقاء «ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر»(١).

كان العرض مغريًا حقًا.. فمصر لها وزنها المعروف من حيث الطاقات البشرية والمادية. وهى لاشك تؤلف خطوة أولى لامتلاكها واتخاذها قاعدة لقبر الصليبيين.. غير أن «الطمع فى ثروة مصر أو الخوف من أن يستفيد منها الصليبيون عسكريًا وماديًا لم يكن الدافع الوحيد لاهتمامه بأمر مصر. وإنما كان هناك -بالإضافة لما سبق- دافع مذهبى له أهميته فى توحيد الجبهة الإسلامية، ذلك أن الخلافة الفاطمية فى مصر كانت فى نظره مصدرًا من مصادر الفرقة فى

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/٥٥٥.

العالم الإسلامى»[1]. لذلك -بعد أن استخار الله- جهز للوزير شاور قوة مع أحد قادته الأكفاء (أسد الدين) الذى أنجز المهمة بجدارة. على أن المفاجأة غير المتوقعة «فغدر شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين»[2]. والأشق من ذلك أن هذا الوزير الغادر، من أجل التخلص من قائد زنكى طلب من الصليبيين إخراجه، وفى ذات الوقت تخويفهم من نور الدين إن استولى على مصرا..

وأمام استنجاده بهم «جاءهم فرج لم يتوقعوه. على أن أسد الدين اعتصم ببلبيس فنازله الصليبيون ثلاثة أشهر دون طائل أثبت فيها شجاعة نادرة جعلتهم يغادرون مصر قافلين إلى مستعمراتهم بعدما وصلتهم أنباء هزيمة جيوشهم أمام نور الدين فى حارم وبانياس.

ولم يمر غدر شاور لنور الدين بسهولة، فقد أعاد سنة ٥٦٢ هـ قائده أسد الدين إلى مصر ثانية وبصحبته ابن اخته صلاح الدين، الأمر الذى جعل شاور يجدد الطلب «إلى الفرنج يستنجدهم، فأتوه على الصعب والذلول»[3] على حد تعبير ابن الأثير، ليسفر الأمر عن مواجهة بين الصليبيين الذين عبروا النيل إلى الجانب الغربى بصحبة الجيش المصرى من ناحية، وبين القائد أسد الدين وجيشه من ناحية أخرى فى منطقة تعرف بالبابين وأمام قلة عدد جيشه وكثافة الجيش الصليبى والمصرى، استشار قواده، فكلهم رأى العودة إلى الشام، بيد أن أحد مماليك نور الدين«برغش» وكان شجاعًا فقال:

«من يخاف القتال فلا يخدم الملوك، بل يكون فى بيته مع امرأته، والله لئن

---

(١) عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ٥٣٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/٤٦٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/٣.

عدنا إلى نور الدين من غير غلبة، ولا بلاء لعذر فيه، ليأخذن مالنا من إقطاع وجامكية وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا، ويقول: تأخذون أموال المسلمين، وتفرون من عدوهم وتسلمون مثل مصر إلى الكفار؟ - والحق بيده.

فقال أسد الدين: هذا الرأى، وبه أعمل. وقال لابن أخيه صلاح الدين مثله. وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة»[1].

إن جيشًا فيه أمثال برغش وصلاح الدين وأمثالهما، نفوس موارة بالعزم والإيمان، والإخلاص لأميرها نور الدين رغم غيابه، لابد ويكون النصر حليفها.

ودارت رحى المعركة لتحسم نتيجتها لصالح جيش نور الدين ضد الصليبيين وقد «رأوا عسكرهم مهزومًا، والأرض قفرًا منهم»[2]. بل «وكان هذا من أعجب ما يؤرخ، أن الفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل»[3]!!.. على أن الإيمان يشحذ همم الرجال نحو النصر وينسج خيوط الوحدة.

هذه المعركة الرائعة جاءت لتشكل البداية الحقيقية فى تثبيت ملك نور الدين وخطته الشاملة نحو جبهة إسلامية موحدة. ولم تحن سنة ٥٦٤ هـ حتى دانت له مصر وزال المذهب الفاطمى، لحسن قيادة وكفاءة قادته من بنى أيوب وسواهم.

وتحل النهاية المحتومة سنة ٥٦٩هـ - ١١٧٤م بعد جهاد استمر ثمانٍ وعشرين سنة ونيفا، دون توقف، لقد فقدت ساحات الوغى والجهاد الملك المجاهد نور الدين محمود بن عماد الدين آق سنقر رحمه الله، بعدما ترك الراية الإسلامية خفاقة مرفرفة بشمم على جبهة موحدة لبلاد مترامية الأطراف ضمن أربع عواصم هى الموصل، حلب، دمشق، فمصر.

---

(١، ٢، ٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/٤.

## صلاح الدين الأيوبى.. وامتداد الوحدة:

أكان يدرك هذا الكردى الشجاع الغض العود، أن يبرز فيكون جديراً باستلام راية الجهاد الإسلامى بعد الشهيد الملك العادل نور الدين؟!

هذا الفارس المقدام الذى قال لعمه يومًا فى صباه المبكر، معتذراً عن مرافقته إلى مصر لمقاومة الصليبيين فى الإسكندرية: «والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت فى الإسكندرية مالا أنساه أبداً»[1] ليحب مصر حبًا جعله يتلكأ فى مغادرتها حين طلبه سيده نور الدين!!![2].

لقد كان على وريث القائد والزعيم الراحل، مواجهة مصادر القلاقل والفتن التى غدت تشكل مصدر خطر بمحاولتها الانسلاخ عن الجبهة العربية والإسلامية. فقمع سنة ٥٦٩ هـ حركة أنصار الخلافة الفاطمية بإفشال مخطط المتآمرين لاغتياله، والذى تم فيه الاتفاق مع الصليبيين باستدعائهم من الشام وصقلية نظير أموال طائلة «فإن خرج صلاح الدين إليهم بنفسه ثاروا وهم فى القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية»[3].

بيد أن صلاح الدين وقف على دقائق المؤامرة الضخمة بدءاً برؤوس الحكومة المنتظرة، عن طريق الواعظ القاضى زين الدين أبو النجا، الذى أوهمهم بوقوفه معهم. فقبض صلاح الدين عليهم وقبل اكتمال خيوط الشبكة «أخذ الجماعة وقررهم فاقروا فأمر بصلبهم».

وحفاظًا على تماسك الوحدة حرص ألا يتعرض للجنود الذين وافقوهم

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠ /١٧.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل: ١٠ / ٥٤.

فاستمالهم، ويلاحظ أن هذه السياسة شكلت الخطوط العامة لطبيعة صلاح الدين ضمن جهاده وتوحيد مملكته بتغليب وترجيح كفة السلاسة والمرونة ما دامت لا تؤثر فى تقويض بناء الجبهة الإسلامية، كما أخمد كل القلاقل فى الصعيد فأمن توطيد مركزه فى مصر.

## العمل على صيانة الوحدة:

بعد استتباب الأمن فى مصر، كان عليه أن يواجه الميراث الضخم الذى تركه نور الدين، بحلوه ومره على أكثر من محور بضم آل زنكى إلى جانب مقاومة الصليبيين، والسعى لاستعادة مراكز خارجة عن خطوط الجبهة الموحدة.

لا شك كان الموقف حرجًا بالنسبة لسيطرة صلاح الدين الذى يؤمن أن صولجان الزعامة والقيادة من حقه ما دام ابن نور الدين الذى لا يتجاوز الحادية عشرة فى ظل أوضاع تتكالب عليها قوى أجنبية غازية لانتزاع وضم ملك أمة إسلامية عريض، ومثله أبعد ما يقوى على التصدى لها.

أليس هو القائد الذى اعتمده نور الدين فى مصر؟!.. لذا رأى أن يكتب إليهم يعلنهم رغبته فى التوجه إليهم خدمة لولده الملك الصالح. وكان فى نية صلاح الدين التوجه نحو دمشق، وقد أحس تحرك الصليبيين لاستعادة بانياس.. ولا شك أنها خطوة أولى تتبعها خطوات لابتلاع أرض إسلامية طالما جهد سلفه فى الحفاظ عليها سلفه نور الدين.

إذن كان على صلاح الدين قبل المضى فى جهاده، التصدى لخطر جبهات ثلاث وقفت موقفًا واحداً أكثر من مرة هدفها التخلص منه وهم الزنكيون فى الشام والعراق، والباطنية، والصليبية.

## صلاح الدين وآل زنكى:

كان لابد لهذا القائد وقد نهج ذات الطريق التى سلكها نور الدين، من وقفة لإعادة جدولة العمل. فطرد الصليبيين من البلاد لا يتم إلا بأيدى أصحابها من المسلمين، ولما كان الزنكيون يسيطرون على مراكز القوى كالموصل ومعظم بلاد الشام والجزيرة رافضين وجوده رغم إشعارهم بصفة مجيئه خدمة ابن سيده الذى لو كان حيًا «لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيره»[١].

بيد أن حاكم حلب «كمشتكين» الذى تخلص من منافسيه فى حلب ودمشق بخبث ودهاء من أجل الاستئثار برعاية وتدبير مملكة الوريث الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وإعادة أملاكه من ابن عمه سيف الدين، بعد استقدامه من دمشق إلى حلب، ليضفى -من خلاله- شرعية التحكم فى مملكة نور الدين.. أمر أهاج أمراء دمشق فأرسلوا إلى سيف الدين زنكى صاحب الموصل لتسلمها لكنه تردد تحت الخوف من مكيدة اعتقدها هو، عندئذ أرسلوا إلى صلاح الدين الذى ملكها برضاهم؛ وبعد استيلائه على حمص وحماة أيضًا، توجه نحو حلب لكن صاحبها كمشتكين استعان بالإسماعيلية (الباطنية) والصليبيين كورقة رابحة لطرده.

على أن صلاح الدين الذى نذر نفسه من أجل الحفاظ على جبهة إسلامية موحدة ومتماسكة تمكنه التفرغ لجهاد الصليبيين رأى وهو القائد الذى تغلب عليه سياسة المرونة والتسامح «اجتهد أن يصالحهم فما صالحوه»[٢] خاصة بعد استنجاد كمشتكين بابن عم صاحب حلب (سيف الدين زنكى) لينتهى الأمر

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٥٨.

(٢) المقريزى: السلوك ٢/٦٣٤.

حربًا حيث «التقى الجمعان فلم يثبت العسكر السيفى وانهزموا»[1].

على أن المجاهد صلاح الدين أنهى الموقف بكياسته صلحًا بالنسبة لحلب مع ابن سيده الملك الصالح إسماعيل سنة ٥٧٠ هـ - ١١٧٥م ريثما يستطيع ضمها بعد أن قيمها كقائد متمرس بقوله: «إن حلب هى أصل الملك وجرثومته وقاعدته ولهذا دأبت فى طلبها هذا الدأب»[2].

هذا الصلح أغاظ ابن عمه سيف الدين زنكى صاحب الموصل رغم تساهل صلاح الدين لعقد صفقة يستميله بها لكنه أبى إلا اللعب بورقة الحرب بعد إغرائه جيش حلب أيضًا، فسار سنة ٥٧١هـ فى جيش يقارب الستة آلاف مقاتل ليحسم الأمر بانتصار صلاح الدين، وليتوجه بعدها نحو حلب التى تحصن فيها كل خصومه من آل زنكى إلى جانب صاحب ماردين الأرتقى، فحاصرها طويلاً ما بين سنة ٥٧١ هـ حتى ٥٧٢ هـ ليتم الأمر صلحًا «لأن أهل حلب خافوا من طول الحصار»[3].

أما صلاح الدين فرأى أنه لا يقدر على قتال من بها لحصانتها. وإن خفت حدة المواجهة بين الطرفين إلى حد ما بعد زواج صلاح الدين من أرملة الشهيد نور الدين.. إلا أن نفوس آلى زنكى لم تصف تمامًا حياله إذ سرعان ما دب الخلاف بعد وفاة سيف الدين سنة ٥٧٦ هـ - ١١٨٠م ثم بعده بسنة مات الملك الصالح إسماعيل بن الشهيد نور الدين بعد أن «وصاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود زنكى»[4] إبقاء على وحدة الموصل وحلب لصغر أولاد

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠ / ٦٩.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ٥٨.

(٣، ٤) ابن الأثير: الكامل: ١٠ /٧٧، ١٠ /١٠٦.

عمه سيف الدين. وإن انتهت حلب إلى ابن عمه عماد الدين زنكي.

وفي ظل الأوضاع الجديدة رأى صلاح الدين أن يستولي على «الموصل».. فسار إليها سنة ٥٧٨هـ - ١١٨٢م ولما قاربها هاله مرآها «فإنه رأى بلداً عظيماً كبيراً»(١).

وأمام استعدادات فرسانها وأسلحتها وآلات حصارها «ما حارت له الأبصار»(٢) فضلاً عن بسالة أهلها من العامة، رغم ضربها بالمنجنيقات حتى اعترف أحد قواده:

«قد قاتلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا بعد مثلها»(٣). لذا فصلاح الدين «علم أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة»(٤). وكم كان يود لو ضمها إليه قبل انصرافه عنها خائباً حزيناً.. فلو طواها لا ريب ستشكل مركز ثقل للوحدة ضمن جهاده!.. على أنه انتزع من الزنكيين خلال مغادرته إليها مدينة سنجار الحصينة، ليفت من قوة الموصل لتبعيتها لها.

كما عوض فشله بالاستيلاء على حلب وحارم سنة ٥٧٩ هـ - ١١٨٣م حيث راسل صاحبها عماد الدين زنكي الذي خافه بعد انتصاراته على الصليبيين واتساع دائرة نفوذه، ولم ينس أن يستولي على بعض القلاع والحصون الزنكية ما وجد إلى ذلك سبيلا، ثم ليعود سنة ٥٨١ هـ - ١١٨٥م محاصراً الموصل رغم إيفاد عز الدين زنكي صاحبها «ابنة» الشهير نور الدين الذي كان «مخدومه

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١١٤.

(٣) المصدر السابق ١٠/١١٥.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية ٤٦.

وولى نعمته»(١) بيد أن صلاح الدين ردها خائبة ظنًا منه إنما أرسلوها لضعف المدينة!.. الأمر الذى جعل ابن الأثير المتواجد حينها فى الموصل يصف وقع عودتها كسيرة مع خاصتها من النساء، عاملاً قويًا فى إذكاء نار المقاومة الشعبية «وبذل العامة نفوسهم غيظًا وحنقًا لردة النساء»(٢). الأمر الذى أسلم صلاح الدين للندم!!..

على أن هذا الأمر لم يثنه عن محاولة اقتحامها.. ولم تجد محاولة صلاح الدين تحويله مجرى دجلة لإخضاع أهلها على التسليم -يبدو أنهم عرفوا حرب المياه مبكرًا!!!

وأمام مقاومتهم عاد «فصالح أهلها فى يوم عرفة»(٣) وفق شروط منها «ضرب السكة باسمه»(٤) كما «وخطب له بجميع بلاد الموصل»(٥).

وإن عانى الزنكيون -الذين يعتبرون أنفسهم أصحاب الحق الشرعى فى المملكة - من القائد صلاح الدين الذى تعارضت مفاهيمهم للأحداث أمام جهاده الحثيث لتوحيد الجبهة وضرب الصليبيين من خلالها. على أن مستجدات الأحداث التى برزت لتدق بعنف طبول الخطر فى سوح الجهاد كشفت عن أصالتهم بتقديس الجانب الإسلامى على كل ما سواه.. إذ ما أسرع ما نسوا أحقادهم حين وجدوا صلاح الدين يعانى مواجهة ساخنة خطرة أمام حشود الصليبيين فى حصار «عكا» حتى ألجأته الضرورة «فكتب إلى الجهات باستدعاء الأجناد للجهاد»(٦) فكان آل زنكى أول من لبى نداءه لينظموا مجاهدين ذوى

---

(١، ٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٣١، ١٠/ ١٣٢.

(٣، ٤، ٥) المقريزى: السلوك ١/ ٨٩.

(٦) المصدر السابق ١/ ٩٩.

بأس شديد تحت مظلته وذلك سنة ٥٨٦ هـ - ١١٩٠م مما أسعده مجيئهم، فأنزلهم فى الحرب منزلة خاصة بين أبنائه تكريمًا لهم.. كما أثار بلاؤهم فى القتال إعجابه حتى وصفهم قاضيه ابن شداد:

« .. وهجموا على العدو هجمة الأسود على فريستها »(١).

ولم ينس القائد صلاح الدين أن يؤثرهم بالثناء بعد أن رفدوا المعركة بتسيير « أحمال النفط الأبيض مع عزة وجوده، وما وجدوه من التراس والرماح، من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده »(٢).

## صلاح الدين والباطنية:

تلك الطائفة من الإسماعيلية التى قامت خلال الحرب الصليبية بدور مؤثر وفاعل لاغتيال زعماء الوحدة الإسلامية انتصاراً لمذهبهم. ولهم فى ذلك وقفات مشهودة منها دورهم المعادى لنور الدين حين ألغى فى حلب نداء « حى على خير العمل »(٣) وتظاهرهم بسب الصحابة بعدها، وقد « ساعد على ذلك جماعة من أهل السنة بحلب وقد عظم هذا الأمر على الإسماعيلية وأهل التشيع »(٤). فجدوا فى مقاومته لا سيما وقد حال دون توسعهم فى الشام وتحالفوا مع الصليبيين حتى تمكن من قهرهم وقتل زعيمهم.

كما بدا دورهم واضحًا فى هدم الخلافة العباسية بشخص وزيرها ابن العلقمى، كذلك محاولتهم تصفية قادة السنة العظام. إلى جانب ثورتهم

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية ١١٢.

(٢) العماد الكاتب: الفتح القسى ٣٥٠.

(٣، ٤) أبو شامة: كتاب الروضتين ١/١٤٧.

الفاشلة «في إعادة الدولة الفاطمية»[١] في مصر سنة ٥٨٤هـ حينما غدت تابعة للخلافة العباسية في بغداد.

ورغم تقليم نور الدين أظافرها بيد أن هذه الطائفة عادت لتعمل في صفوف آل زنكي - للأسف ضد صلاح الدين - ليس حبًا بآل زنكي.. بل انتصار لمذهبهم، وقد لمسوا في صلاح الدين مجاهداً سنيًا نشطًا يهدد وجودهم ومذهبهم في الشام كسلفه نور الدين.. هذا علاوة على قبضهم الثمن خدمة لمن يدفع.

لذا ففي سنة ٥٧٠ هـ - ١١٧٤م وقد توجه صلاح الدين لحصار حلب «فأرسل سعد الدين كمشتكين حاكم حلب نيابة «عن الملك الصالح إسماعيل زنكي، إلى سنان مقدم الإسماعيلية وبذل له أموالاً كثيرة ليقتلوا صلاح الدين»[٢] حيث أرسل مجموعة إلى معسكره بيد أن أمرها افتضح حين «حمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه، وقاتل الباقون من الإسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قتلوا»[٣] وانتهت المحاولة الأولى بنجاة صلاح الدين. لكن المحاولة الغادرة تكررت في السنة التالية ٥٧١هـ - ١١٧٥م تحت أطماع سيف الدين زنكي الذي اتفق مع الباطنية للتخلص منه في وقت صادف تواجده مع بعض أمرائه من القادة في خيمة المعسكر عندما «نزل قلعة إعزاز يحاصرها»[٤] «إذا وثب عليه باطني فضربه بسكين في رأسه فجرحه فلولا أن المغفر الزرد تحت

---

(١) المقريزي: السلوك ١/١٠١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٦٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/٦٨.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية ٤١.

القلنسوة لقتله »[1].

على أن القائد الشجاع لم يكن أقل جرأة، فأمسك به رغم محاولته توجيه ضربة ثانية إلى عنقه، حتى قبض عليه ( يازكش ) أحد أمرائه ليقتل بعدها الباطنى.

ونجد أن صلاح الدين لم يفرغ من مشاكله -بعض الشىء- مع الزنكيين والصليبيين حتى توجه سنة ٥٧٢هـ- ١١٧٦م نحو حصونهم ليلقن الباطنية درسًا فى العقاب لن ينسوه أبداً « فنهب بلدهم، وخربه وأحرقه، وحصر قلعة وصيات وهى أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم، فنصب عليها المنجنيقات وضيق على من بها »[2] درجة استنجد زعيمهم سنان مقدم الإسماعيلية، بصاحب حماة وهو خال صلاح الدين فشفع فيهم وسأله الصفح عنهم فأجابه إلى ذلك.

وإن سبقت مؤامراتهم.. مؤامرة أخرى لاغتياله فى مصر سنة ٥٦٩ هـ- ١١٧٤م حيث « صلب جماعة ممن أراد الوثوب به فى مصر »[3]. وذلك حين تحالف الفاطميون مع الصليبيين بهدف الإطاحة به.

ومهما يكن فقد تفرغ بعد اطمئنانه من جانب الزنكيين وكسر حدة الباطنية لينصرف إلى إتمام مشروعه الجهادى بطرد الصليبيين.

## صلاح الدين.. والصليبيون:

كانت المهمة الأساسية للقائد صلاح الدين من أجل حفظ الجبهة الإسلامية

---

( ١ ) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٧٦.

( ٢، ٣ ) المصدر السابق ١٠/ ٨١، ١٠/ ٥٣.

وتوحيدها، الاستمرار فى مقاومة الصليبيين حتى طرد آخر جندى منهم.

ولست فى معرض متابعة حركة إجلائه الصليبيين.. إنما هى وقفة قصيرة من خطوط جهاده فى الجبهة الإسلامية وتوحيدها.

لقد باشر التصدى لأطماعهم التى غلفوها برداء نجدة الزنكيين من هيمنته، وحينما أبطل زيفهم باتت خطوته التالية سنة ٥٧٣-٥٧٥هـ / ١١٧٧-١١٨٠م استعادة مستعمراتها الواقعة على شاطئ فلسطين الجنوبى، فأغار على مدنهم وحصونهم ليحرز انتصاره مغانم لكن جيشه وقد «رأوا أن الفرنج خامدون، استرسلوا وانبسطوا»(١) متوغلين فى العمق وقد تفرقوا فى إغاراتهم «فما شعروا إلا بالفرنج طالة بأطلابها»(٢) فى جمع كثيف أوقعت به هزيمة قرب عسقلان، بيد أن الصليبيين لم ينعموا بهذا النصر طويلاً إذ هدم سنة ٥٧٥هـ-١١٧٩م حصنا منيعًا لهم قرب بانياس يدعى مخاضة الأحزان «وخرب الحصن حتى سوى به الأرض»(٣) وكانوا قد أحكموا بناء الحصن حتى قيل بلغ عرضه «تسعة أذرع بالنجارى»(٤). ولتشكيله حجر عثرة فى طريقه فقد عرض عليهم مبلغًا مغريا من المال لقاء إزالته دونما قتال «فلم يفعلوا ظنًا منهم إذا بقى بناؤه تمكنوا فى كثير من بلاد الإسلام»(٥) مما ألجأه إلى قتالهم. وعندما اجتمعت فلولهم لحمايته كان صلاح الدين أسرع إلى هدمه حتى جعله يعانق الأرض.. الأمر الذى أوهن قدرتهم على التحرك بشكل أوسع نظراً لأهمية موقعه العسكرى.

---

(١، ٢) ابو شامة: كتاب الروضتين ٢/٦٩٩.

(٣) المقريزى: السلوك ١/٦٧.

(٤، ٥) ابن الأثير: الكامل ١٠/٩٦، ١٠/٩٦، ١٠/١١٢.

هذا النصر جعل الشعراء يعلنون عن غبطتهم فى هدمه حتى قال ابن نفاذه:

هلال الفـــــرنج أتى عـــــاجـــــلاً
وقـــد آن تكســـيـــر صلبـــانهـــا

ولو لم يكن قــد دنا حــتــفـــهـــا
لما عـــمـــرت بيت أحـــزانهـــا

ويبدو أن الأمر بات كذلك.. وقد استفاد من الاضطرابات الداخلية التى واجهت الصليبية فى مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية.. وهما واجهتان مهمتان من واجهات القوى الصليبية ليهاجم سنة ٥٧٨ هـ السواحل الفلسطينية وشمال الشام، حيث وجه غاراته فى إقليم الغور فى طبرية وبيسان ليصل بيروت ويحاصرها «ونهب مالم يصل أسطوله إليه»(١) ثم ليتوجه إلى شمال الشام وشرقه فى جولة استولى فيها على بعض المدن من حكامها المسلمين كديار بكر وآمد ونصيبين من أجل تقوية الجبهة.

## حطين واستكمال الوحدة:

يمكن اعتبار التحرش والغدر الذى مارسه أرناط أمير الكرك تجاه المسلمين من الأساسيات التى أنزلت الهزائم الساحقة بالصليبيين، وكانت فاتحة لإحراز أروع الانتصارات لصلاح الدين والمعسكر الإسلامى.

فما بين السنوات ٥٧٧-٥٨٣ هـ/ ١١٨١-١١٨٧م حاول أرناط استفزاز مشاعر المسلمين بمحاولته التوجه للإغارة على مكة المكرمة والمدينة المنورة.. إلى

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١١٢.

جانب أسلوب القرصنة من نهب وقطع طرق التجارة، الأمر الذى جعل صلاح الدين يقسم على الثأر لحرمات الله ومقدسات المسلمين بهدر دمه. وبدأ بمهاجمة إمارته الكرك «فنازله مدة ولم ينل منه غرضًا»(١) لحصانتها، ثم استعد لحرب الصليبيين الذين حشدوا قواتهم، وكان على صلاح الدين وضع خطة محكمة منها صلحه مع أمير أنطاكية ليفت من قوتهم. إلى جانب دخول أمير طرابلس فى حلف معه، الأمر الذى سهل عليه استدراجهم إلى طبرية قرب قرية «حطين» التى عسكر فيها. حتى إذا وصل جيشهم المنهك فى موسم الصيف وقد قطع صلاح الدين الماء عنهم، جرت معركة تعد من أروع معارك الظفر الإسلامى فى الحروب الصليبية وذلك سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٧م.

وبعد انتصار صلاح الدين انتصاراً ساحقًا بإبادة جيشهم وأسر ملوكهم وقتل أرناط بسيف القائد المجاهد كان لابد من استكمال هذه المعركة الشهيرة إسلاميًا وتاريخيًا وسياسيًا من متابعة مشروعه الجهادى باستيلائه على المدن التى ضمها بكل سهولة إلى الجبهة الإسلامية وخاصة الساحلية منها كونها بوابة أوربا لضخ الحملات الصليبية.

ومن أروع حصاده الذى أعقب حطين استعادته زهرة المدائن (القدس).

ودخل صلاح الدين وقواته هذه المدينة المقدسة سنة ٥٨٣هـ - ١١٨٧م بعد مضى واحد وتسعين عامًا من استيلاء الصليبيين عليها. ومن أجواء الفرحة الغامرة كانت القصائد ترتجز معطرة بشذاها جنبات التاريخ الإسلامى. وقد شدا الحسن بن على الساعاتى قصيدة منها:

---

(١) المقريزى: السلوك ١ / ٨١.

جلت عـــزمـــاتك الفـــتح المبـــينا

فـــقـــد قـــرت عـــيـــون المؤمنينا

قـــضـــيت فـــريضـــة الإســـلام منهـــا

وصـــــــدقت الأمـــــــانى والظـنـونـا

تهـــز عـــواطف القـــدس ابتـــهـــاجًـــا

وتـرضـى عـنـك مكـة والحـــــجـــــونا

وبهذا النصر كان السلطان البطل المجاهد قد توج مشروعه فى حفظ ما توقف عنده الشهيد نور الدين، ليضيف إلى ملحمة جهاده مدنا جديدة استعادها من أيدى الغزاة الصليبيين ليعيد الطهر إلى ثراها.. والحق إلى أصحابها!!

وبهذه الهالة المشرقة من الانتصارات بات صلاح الدين آخر قائد إسلامى حقق نصراً فى دحر الصليبيين وتوحيد الجبهة العربية الإسلامية ما عجز عنه رجال تسلموا من بعده راية الجهاد.. لعقود عديدة!!!

***

**تم بعون الله تعالى**

## صدر للمؤلفة

| | | |
|---|---|---|
| الدفن بلا ثمن | مجموعة قصصية | مطبعة راشد (بغداد ١٩٦٨م) |
| أنتم يا من هناك | رواية | دار الاتحاد (بيروت ١٩٧٢م) |
| المرأة فى منهج الإمام الغزالى | | دار الرشاد (القاهرة ١٩٩٨م) |

معدة للطبع

جهاد الصحابية فى صدر الإسلام

الشاعر طاغور.. جوانب إيمانية

الدكتور محمد عمارة.. مواقع دفاع

النعمان بن مقرن ومعركة نهاوند

طليحة الأسدى، الارتداد.. التوبة

# موارد البحث

## ١- المصادر (القديمة):


- ابن الأثير (أبو الحسن عز الدين على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى): ت ٦٣٠ هـ.

١- التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (بالموصل)

تحقيق عبد القادر أحمد طليمات دار الكتب الحديثة: القاهرة ومكتبة المثنى بغداد.

٢- الكامل فى التاريخ (١٠ أجزاء) دار الكتب العلمية (بيروت ١٩٨٧)

- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسى البلنسى): ت ٦١٤هـ

رحلة بن جبير: دار التراث (بيروت ١٩٦٨م).

- ابن الجوزى (عبد الرحمن بن على بن محمد بن على): ت ٥٩٧ هـ

المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم: (١٢ جزءاً، ط١: مطبعة دار المعارف العثمانية (حيدر آباد ١٣٥٨ هـ).

- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد): ت ٦٨١ هـ

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (٧ أجزاء): دار صادر بيروت.

- الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز): ت ٧٤٨ هـ

١- سير أعلام النبلاء: ط١: حققه وخرج أحاديثه شعيب الأرناؤط: مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٤.

٢- العبر فى خبر من غبر: تحقيق صلاح الدين المنجد (الكويت ١٩٩٣م)
- سبط ابن الجوزى (شمس الدين أبى المظفر يوسف بن قزاوغلى التركى): ت ٦٥٤ هـ.

مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان (١٠ أجزاء): دائرة المعارف العثمانية (حيدر آباد).

- أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى): ت ٦٦٥هـ

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية.

- ابن شداد (القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف): ت ٦٨٤ هـ.

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: دار الفكر (بيروت).

- الاصطخرى (أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسى (المعروف بالكرخى): ت ٣٤٠ هـ.

المسالك والممالك: تحقيق: د. محمد جابر عبد العال الحينى: مراجعة محمد شفيق غربال وزارة الثقافة والإرشاد القومى (القاهرة ١٣٨١ هـ- ١٩٦١م).

- الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير): ت ٣١٠ هـ

تاريخ الأمم والممالك: (٥ أجزاء) دار الكتب العلمية (بيروت).

- ابن العبرى (غريغوس أبو الفرج الطيب الملطى): ت ٦٨٥هـ- ١٢٨٦م

مختصر تاريخ الدول: دار الرائد (بيروت ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٣م).

- ابن العديم (كمال الدين عمر أبى القاسم): ت ٦٦٠هـ

زبدة الحلب فى تاريخ حلب (ثلاثة أجزاء)

عنى بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه د. سامى الدهان.

- ابن العماد الحنبلى ( أبو الفلاح عبد الحى ): ت ١٠٨٩هـ

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ( ٨ أجزاء ) مكتبة القدس ( القاهرة ).

- العماد الكاتب الأصفهانى

الفتح القسى فى الفتح المقدسى: تحقيق محمد محمود صبيح.

- ابن القلانسى ( أبو يعلى حمزة ): ت ٥٥٥هـ

ذيل تاريخ دمشق: مكتبة المثنى بغداد -مكتبة الخانجى القاهرة: ( بيروت ١٩٠٨م).

- القلقشندى ( أبو العباس أحمد بن على ): ت ٨٢١هـ

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ( ١٤ جزءاً ) دار الكتب المصرية ( القاهرة ١٩١٣م).

- ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل ): ت ٧٣٢ هـ

البداية والنهاية ( ١٤ جزءاً ): تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح دار الحديث: ( القاهرة ١٩٩٤م).

- أبو المحاسن ( جمال الدين بن تغرى بردى ) ( ٨٧٤هـ ) - النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب المصرية ( القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٥٦م).

- المسعودى ( أبو الحسن على بن الحسين على ): ت ٣٤٦ هـ

مروج الذهب ومعادن الجوهر ( أربعة أجزاء ) تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد دار الفكر ( بيروت ١٩٧٣م)

- المقريزى ( تقى الدين أحمد بن على ) : ت ٨٤٥ هـ

السلوك لمعرفة دولة الملوك ( جزءان ) : دار الكتب المصرية ( القاهرة ١٩٣٤م )

- ابن هشام ( محمد بن عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى )

السيرة النبوية ( ٤ أجزاء )

تحقيق وضبط مصطفى السقا مجموعة من الأساتذة : دار ابن كثير.

- الواقدى ( أبو عبد الله محمد بن عمر ) : ت ٢٠٧ هـ

فتوح الشام ( جزءان ) دار الجيل ( بيروت )

- ابن واصل ( جمال الدين محمد بن سالم ) : ت ٦٩٧ هـ

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ثلاثة أجزاء تحقيق دكتور جمال الدين الشيال

- وليم الصورى :

الحروب الصليبية ثلاثة أجزاء

ترجمة دكتور حسن حبشى الهيئة المصرية للكتاب

- ياقوت الحموى ( الشيخ شهاب الدين أبى عبد الله الحموى الرومى البغدادى ) : ت ٦٢٦ هـ

معجم البلدان، منشورات مكتبة الأسدى ( طهران ١٩٦٥م )


## ٢- المراجع (الحديثة) :


بار كر (آرنست)

الحروب الصليبية

نقله إلى العربية السيد الباز العرينى دار النهضة العربية ( بيروت )
- يوسف ( جوزيف نسيم )
العرب والروم واللاتين فى الحروب الصليبية الأولى، منشورات دار المعارف ( مصر ١٩٦٣م )
- حبشى ( حسن )
الحروب الصليبية الأولى، دار الفكر العربى ( بيروت ١٩٥٨م )
- رونسمان ( ستيفن ) .
تاريخ الحروب الصليبية دار الثقافة ( بيروت ١٩٦٧م )
نقله إلى العربية السيد الباز العرينى
- الحصين أحمد ( عبد العزيز )
الطفلة هيلة والكنيسة ( الكويت )
- عاشور ( سعيد عبد الفتاح )
١- أوربا العصور الوسطى جزءان : مكتبة الإنجلو المصرية
٢- الحركة الصليبية جزءان: القاهرة ج١ (١٩٩٣م)، ج٢ (١٩٩٤م)
- توفيق ( عمر كمال )
مقدمات العدوان الصليبى على المشرق العربى، طبعة ثانية ( ١٩٦٧م )
- قاسم ( عبده قاسم )
الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية : طبعة ثانية ( ١٩٥٨م )

- نخبة من أساتذة جامعة بغداد

حضارة العراق ( جامعة بغداد ١٩٨١م )

- هونكة ( زيغريد )

شمس العرب تسطع على الغرب طبعة ثانية ( ١٩٦٩م )

- هويدى ( فهمى )

طالبان جند الله في المعركة الغلط : دار الشروق ( ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م )

تشومسكى ( نعوم )

١١ سبتمبر : دار ميريت للنشر ( القاهرة ٢٠٠٢م )

- المجلات :

- مجلة المفكر الإسلامى : السنة الأولى العدد الثالث : شعبان ١٤٢٣هـ تصدر عن منظمة المؤتمر الإسلامى الشعبى ( بغداد -العراق )

- مجلة الرسالة : العدد الثالث : ربيع الأول ١٤٢٣هـ تصدر عن مركز الإعلام العربى

- مجلة القدس : السنة الرابعة : العدد ٤٢ : صادرة عن مركز الإعلام العربى

الجرائد :

- جريدة الأهرام ( القاهرة )

- جريدة آفاق عربية ( القاهرة )

- جريدة « الأنباء » ( الكويت ) .

# الفهرس

## الفصل الرابع: ومع مسيرة «جيش الرب»

## الفصل السابع : الحروب الصليبية والصراعات المذهبية



## الفصل الثامن : الصليبية والمغول .. معًا على الطريق

## الفصل التاسع : الوحدة

# هذا الكتاب

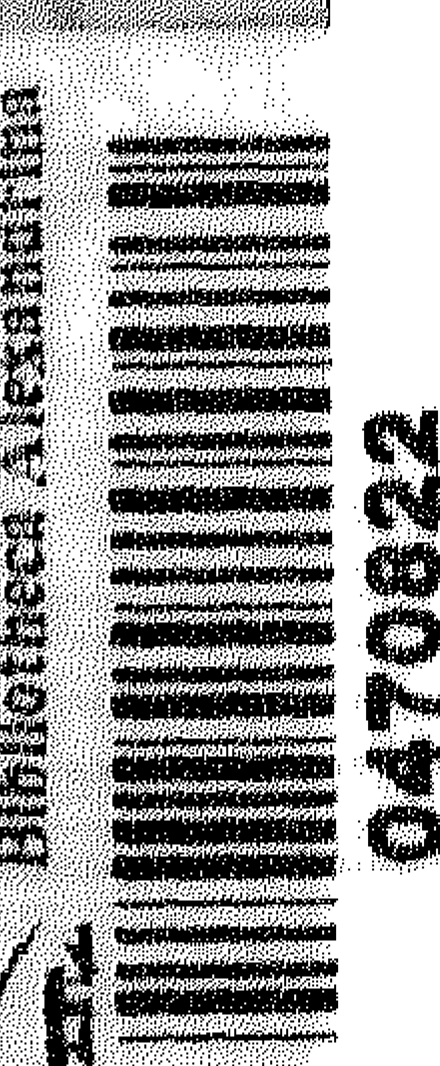
إن هَوِيَّة الأمة المتمثلة فى عقـــيدتها ، ولغتها ، وتاريخها هى الهدف الرئيسى الذى توجهت نحـــوه ســهام الأعداء والغزاة لديار الإسلام على مر التاريخ ؛ وذلك لتحقيق التبعية والاحتواء ، ضماناً لاستمرار احتلال الأرض ، ونهب الثروات ، واستغلال الإنسان .

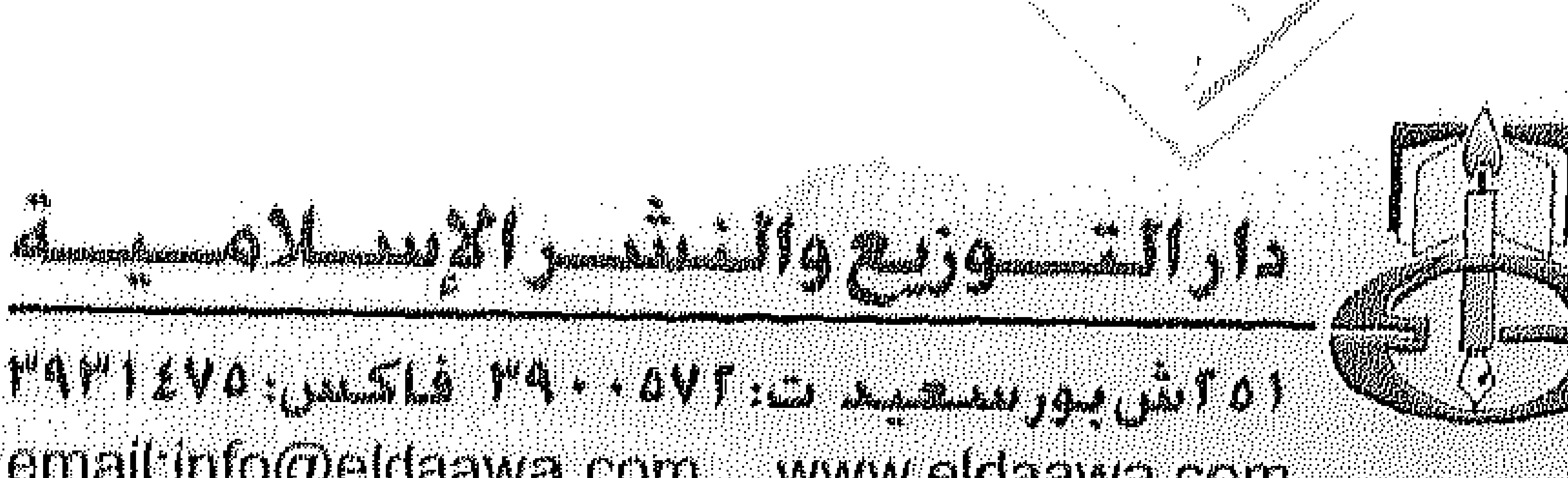
ولم يكن تاريخ أمتنا الإسلامية مجرد تاريخ للأرض ولا للسكان ، وإنما كان تاريخاً للإســــــلام ، والثمرات التى أثمرها من الفتح التحريرى الذى أزال سيطرة وهيمنة الروم والفرس ، والفروســية التى قــهرت التحــالف الصليبــى - التترى فى عهد الأيوبــــيين والمماليك ، وكذلك حركات التحرر الوطنى على مر التاريخ .....

والأمل فى أن يعى القارئ الوقائع التى تحملها صفحات هذا الكتاب ، لا لمجرد تنمية الوعى - كقيمة فكرية - وإنما أيضا ليقــرأ وقـــائع الصراع الراهن بين الصليبية الغربية والصهيونية التلمودية وبين الإسلام وأمته وحضارته حتى يكون الوعى بسنن تاريخنا القــدي والوســيط عونا لأمتنا على النصر فى جهادها الحــالى ضد الغز المحدثين .

الله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

**الناشر**




دار التــوزيع والنشــر الإســلاميــة
٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ فاكس: ٣٩٣١٤٧٥
email:info@eldaawa.com www.eldaawa.com